ثروت أباظة



ثروت أباظة

قصر على النيل

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

(١)

فى استعلاء وكبر ، يقف قصر أحمد باشا شكرى • يشرف على النيل الذى يجرى من تحته فى تطامن وهدوء ، فإن رأيته حسبت أن النيل لم يجر إلا ليجمل هذا القصر على هذه الروعة وعلى ذلك البهاء • فهو فارع إلى السماء ، عريض ضخم ، كل ما فيه يوحى إليك أن هنا مجدا قديما لا يزال جديدا ، وأن هنا عزا عزيزا ، وخيرا وفيرا ، وكرما عتيدا ، ورغدا وهناء •

يفصـــل القصر عن النيل حديقـــة منسقة ، ويصـــل القصر بالنيل سلم من الحجر يفضى إلى النيل ذاته ، إذا شـــاء ســكان القصر أن يستعملوا قاربهم البخارى الراسى هنـــاك ، خلصـــوا إليـــه بسلمهم هـــذا •

كان القصر إذن يفضى إلى النيـــل بهـــذا السلم ، أما باب القصر ذاته ، فقـــد كان من الناحيـــة المقابلة للنيل ضـــخما رائعا ، مفتوحا على مصراعيه طول اليوم ، لا يلتقى مصراعاه إلا فى الهزيع الأخير من الليل •

كان الوقت أصـــيلا ، حين بلغ البوابة شـــاب فى مقتبل العمر ، قـــد يروعك منه أول ما تراه ، قوام ملىء وطول فارع ، ولكنك إن أنعمت النظر فى وجهـــه وملابسه لم يرعك فى وجهـــه شىء من القســـامة ، ولا راعك فى ملبسه شىء من الانسجام •

ـــ سلام عليكم يا عم أدريس •

وقام البواب واقفا فى أدب :

ـــ وعليك السلام يا بك ورحمة الله •

ـــ الباشا نزل ؟

ـــ والله يا بك لا أدرى ، ولكن لا أظن •

ـــ طيب انتظره حتى ينزل •

ـــ تفضل يا سعادة البك •

ويدخل سليمان بك شكرى سراى عمه أحمد باشا ، كما تعـود أن يدخل ، فالدار مكان مباح لأقارب الباشــا ، يجلسون فى أبهائهــا ، ويطلبون ما يشاءون من قهوة أو غيرها ، سواء كان الباشا موجــودا أم غير موجود • فالباشا أب لهم جميعا وهم فى داره أصحاب دار • ولم تكن هذه الأبوة من الباشا مقصورة على أقاربه الأدنين أو غـير الأدنين ، وإنما كانت تتسع فتشمل كل شاب يعرف الباشا ، ويتصل به فى معترك السياسة ، فالباشا من روادها •

جلس سليمان فى حجرة المكتب ينتظر نزول عمه الباشــا ، ولم يطل به الانفراد ، اذ سرعان ما دخل عليه ابن عمه وصفى ، وهو شاب حاصل على اجازة الحقوق جميل الصورة ، حسن السمت ، له شهرة واسعة فى الأدب السياسى ، وقد استطاع أن ينجح فى الانتخابات ، فتحددت مكانته السياسية ، وأصبح من النواب الظاهرين فى مجلس النواب •

ـــ أهلا وصفى •

ـــ أهلا سليمان •• ألم ينزل عمى ؟

ـ لا والله لم ينزل بعد •• أراك باسما •• هـل وراء ابتسامتك خبر جديد ؟

ـ لا ، ولكنى لاحظت أنك تأتى هنـا فى كل يوم منـذ عدت من أوربا •

ـ وأى عجيبة فى ذلك •• ألا تأتى أنت كل يوم ؟

ـ نعم ، ولكن عشرة أيام متتالية لا تنقطع يوما •• ألا ترى أنها غريبة بعض الشىء ؟

ـ يا أخى عشرة أو عشرين • ما شأنك أنت ؟

ـ لا شأن لى ولكنى ألاحظ وأبتسم •• ألا تعطينى حق الابتسام ؟

ـ الله •• أتظننى سـعد باشا وتريد أن تتعب قلبى أنا أيضا •• لا يا حبيبى ،أنا لا أحب المناقشة ، ولا أحب السياسة ، ولا أحب هذا الكلام المزوق الذى يخفى وراءه معـانى أخرى •• أنا رجل مهندس ، أضع قالب الطوب على الآخر فيتم البيت •

ـ واضح •• واضح •• فلو لم تكن مهندسـا لمـا حشرت سعد باشا والسياسة وقالب الطوب فى ضحكة •• مجرد ضحكة !

ـ وبعد •• أما فرغت ؟

ـ يا أخى ، أنا لم أفتح الحديث ، وإنما أنت الذى فتحته •

ـ فهل تسمح لى أن أقفله ؟

ـ على كيفك ، ولكن أريد أن أفتح معك موضوعا آخر •

ـ افتح ، ولكن ترفق بى وحياة والدك •

ـ لم أجلس معك وحدنا منذ عدت من أوربا ، ماذا فعلت هناك ••؟

ـــ حصلت على دبلوم الهندسة •

ـــ هذا أعرفه جيدا •• أقصد فى حياتك الخاصة •

ـــ أكاد أفهم •• وإن كنت غير متأكد من موضـــوع ســـؤالك •• أتقصد •• ؟

ـــ الحـــريم •

ـــ الحـــريم ؟

ـــ نعم •

ـــ ليس هناك شيء اسمه الحريم •• ولكن ما الذى جعلك تدخـــل من موضوع مجيئى هذا إلى موضوع الحريم ؟

ـــ أتريد أن أقول السبب . وأذكر الصلة بين الموضوعين . أم تفضل أن تتكلم أنت فى السؤال من غير شرح منى لهذه الأسباب والصلات •

ـــ لا . أفضل أن أتكلم فى الموضـوع . فأنا أعلم أنك طويل اللسان •

ـــ عظيم •• قل . ما حال الحريم هناك ؟

ـــ ليس هناك حريم . بل إن هناك نساء •

ـــ لا أجد فرقا بين الاسمين ••

ـــ بل الفرق بعيد •• الحريم عندك وعند الرجعيين أمثالك نساء محجبات . يضعن على وجوههن الستار الأسود . وإن كان قد أصبح شفافا . وهن عندك لابد أن يلبسن المعاطف ، ويضعن على رءوسهن القلانس . بل لعلك تريدهن محجبات باليشمك والحبرة ، أما النساء فى أوربا فأداة نافعـــة •

ـــ ومن قال لك إن النساء فى مصر أداة غير نافعة ؟

ـــ تقصد نافعات فى الطبخ وإخراج الأولاد وتربيتهم •

ـــ وهل هذا قليل ، وما الأطفال ؟ أليسوا هم رجال الغد ؟؟

ـــ لا ، إن المرأة فى أوربا أقوى من ذلك وأنفع ، فصاحبات المواهب يزاحمن الرجال فى أعمالهم ، وهن مع السياسيين أمثالك يخرجن فى الانتخابات مع أزواجهن .

ـــ إننا هنا نحترم المرأة أكثر مما يحترمها الغربيون ، نحن نراها جوهرة يجب أن تظل بعيدة عن أيدى الطامعين ، وعن أنظارهم أيضا .

ـــ فتحبسها ؟!

ـــ ألم تكن لك صديقة فى أوروبا ؟

ـــ بل كان لى .

ـــ أترضى لابنتك ، أو نزوجتك أن تكون صديقة لرجل ؟

ـــ ماذا تعنى بالصداقة ؟

ـــ أعنى الصداقة التى كانت بينك وبين فتاتك فى أوربا .

ـــ يا أخى أعوذ بالله .. أعوذ بالله .

ـــ ارأيت .. أترضى أن تخطب واحدة تعرف أنهـا كانت تلتقى بآخر .. لقاء بريئا ؟

ـــ طبعا ، لا .

ـــ فما هذا الدفاع الحار ؟

ـــ عن الحرية .

ـــ حرية المرأة هى الطريق إلى هذا الذى تأنف أنت منه ، لن ترى المرأة إذ ذاك فى الرجل ذلك الشىء المقدس الذى لا يمكن أن تلتقى به إلا إذا كان زوجا لها ، والرجل أيضا سيفقد لذته بالمرأة فى زوجته ، ما دام يلتقى بالنساء فى الطريق وفى العمل . سيجد كل منهما أنه من الطبيعى أن يلتقيـا ، وإذا التقيا ..

ـــ وما البأس إذا التقيا وتعارفا ثم تزوجا ؟

ـــ الخشية أن يتزوجا قبل الزواج •

ـــ فإذا كانا عاقلين واقتصر الأمر بينهما على اللقاء البرىء ؟

ـــ ما رأيك أنت ، إذ التقيت بفتاة وبادلتها حبا •• حبا شريفا •• أتتزوجها بعد ذلك ؟•

ـــ لا •• لا •• لا أظن •

ـــ أرأيت ، إننا نحب أن نثق بزوجاتنا •• نحبهن لنا بجميعهن ، بذكرياتهن وأحلامهن وآمالهن ، ولا نحب هذه الذكريات أن تبدأ إلا بعد الزواج ، فكل ما قبل الزواج لا نعترف به نحن الشرقيين ، حتى وإن كنا نحن الطرف الآخر فيه •

ـــ ولكن يا أخى ••

وقطع عم دهب خادم الباشا الخاص النقاش ، وهو يفتح البـــاب قائلا فى جد حازم :

ـــ سعادة الباشا •

ووقف الشابان ينتظران قدومه ، وما هى إلا لحظات قلائل ، حتى أقبل الباشا مبتسما كعادته ، كان الباشا رجلا فى الحلقة السابعة من عمره ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، سمح الوجه ، ترى فى وجهه طيبة ، فإذا أنعمت النظر فى عينيه من وراء نظارته ، رأيت فيهما عمقا وذكاء ولمـــاحية ، مارس الباشا السياسة ومارسته ، وشهد أحداثها وشارك فيها ، ولكنه أبى أن ينضم إلى حزب من الأحزاب ، بل كان دائما يقف من هذه الأحزاب موقف الناقد الحر ، يؤيد هـــذا حينا ، ويهاجمه حينا ، دون أن يبعثه إلى التأييد أو المهاجمة باعث شخصى ، إلا ما يرى فيه صالحا للبلد • وقد اكتسب بهذا لنفسه احترام جميع

السياسيين ، كما اكتسب بهذا ذاته لنفسه كره جميع السياسيين ومن تبعهم ، فلم يكن له بين الشعب مؤيدون ، وهكذا كان دائما ، بعيدا عن الحكم ، إلا إذا جاءت وزارة محايدة ، أو وزارة مؤقتة ، فهو إذن عضو من أقوى أعضائها شخصية ، ومن أوسعهم نفوذا .

دخل الباشا الغرفة ، وحيا ولدى أخويه وجلس دون أن يلحظ أنظار وصفى التى كانت مشدودة إلى النافذة المطلة على الحديقة ، ولم يلحظ وصفى أن عمه قد جلس وأنه قد آن له أن يجلس هو الآخر وإنما ظل شاخصا إلى تلك المرأة التى دلفت إلى الحديقة تحمل فوق رأسها بقجة مصرورة ، تهدلت جنباتها فوق رأسها ، إنها أم وديدة تحمل الأقمشة التى تعرضها على حريم الدار ، وتحمل أيضا موافقته على موعد الليلة .. وأفاق وصفى من سرحته على صوت عمه ينبهه ..

ــ خير يا سى وصفى ، أراك سارحا ، أتراك تفكر فى خطبتك الجديدة ؟

وارتبح وصفى لكلمة الخطبة ، وصحا إلى عمه يسأله فى جزع وحيرة :

ــ أى خطبة .. أى خطبة يا عمى ؟

ــ يا أخى ، أنا قلت خطبة ، أقصد خطبتك فى مجلس النواب ، ألا تنوى مهاجمة أحد غدا ؟

ــ والله يا عمى ، سعد باشا أصبح رجلا عسيرا على المهاجمة ، فهو منذ تولى رياسة مجلس النواب ، وهو يعمل على ضم الكلمة .. لو كان سار على هذا النحو منذ أول عمله بالسياسة لأراحنا .

وقال الباشا باسما :

ـــ الواقع أن العيب الأساسى فى ســـعد أنه استغل الدكتاتورية الشعبية ، وهى دكتاتورية تعطى لصاحبها سلطات واسعة ، وتجعله يعمل وكأنما هو وحده صاحب البلد •

ـــ ولكنه فى هذه الأيام الأخيرة أصبح يستعمل الدكتاتورية الشعبية استعمالا معقولا •

ـــ ما أحب إلينا أن يظل ســـائرا على هذا النحو ، مالك ســـاكتا يا سليمان ؟

ـــ يا عمى أنا لا أفهم فى السياسة •

ـــ آه صحيح •• نسيت هذا ، ونحن أيضا لا نفهم فى الهندسة •• فما رأيك •• ابحث لنا عن موضوع نتكلم فيه •

فقال وصفى وقد هفت نفسه إلى مداعبة ابن عمه :

ـــ كنا نتكلم قبل قدوم سعادتك عن المرأة فى الغرب ، والحـــريم فى الشرق ، ويظهر أن أخانا سليمان يخالفنا نحن الشرقيين فى أفكارنا عن المرأة •• قل رأيك لعمى •

وتقلص وجه سليمان واحتقن وتلجلج لسانه ، وأصبح لا يدرى ما يفعل ، وضحك وصفى ضحكة مستورة ، فهو يعلم أن سليمان لن يستطيع أن يقول رأيه أمام عمه المعـــروف بالمحافظة ، وأحس العم أن وصفى قد ألقى بابن عمه فى مأزق دقيق فغير مجرى الحديث •

ـــ هيه يا سى سليمان ، ماذا عملت فى المصلحة ؟

وقبل أن يجيب سليمان أدرك وصفى أن فى عينى ابن عمه حديثـــا آخر يريد أن يفضى به إلى عمه فى خلوة فخرج من الغرفة فى هـــدوء دون استئذان ، وأقفل الباب من خلفه ، وشكر سليمان لابن عمـــه هذا الادراك الدقيق ، وراح يجمع صوته ليسأل عمه فى حشرجة :

ـــ ماذا عملت لى يا عمى ؟

وكان الباشا يدرك تماما ما يقصد إليه السؤال ، ولكنه لم يشأ أن يجيب فى وضوح ، خشية أن يكون ما أدركه غير ما يقصد إليه ابن أخيه ، فهو يسأل :

ـــ ماذا فعلت لك فيم ..؟

ـــ ألم تقل لى أنك ستسأل سهير ثانية إن كانت تقبلنى ؟

ـــ سألتهـــا .

ـــ وبماذا أجابت ..؟

ـــ . . .

ـــ لا شك أن فى رضا سعادتك كل الكفاية .

ـــ يا أخى ، أنت تعرف أننى رجل محافظ ، وابنتى لا ترد لى أمرا . ولكن الزواج شأنها وحدها ، ولا أستطيع أن أرغمها .. أنا سأتركها بعد حين ، فبماذا تراها ستذكرنى إن أنا زوجتها بمن لا تريد ؟

ـــ يا عمى نحن فى مصر لا نسأل بناتنا عمن يتزوجن .

ـــ ولكنى أنا أسأل .

ـــ . . .

وأحس الباشا أنه أغلظ على ابن أخيه ، وأدركته عليـــه الشفقة ، ولم يشأ أن يجمع عليه الرد الخشن ورد خطبته فى آن ، فهو يقـــول له فى تلطف :

ـــ أمثلك ، وأنت المتعلم فى أوربا ، يقول هذا الكلام ، وماذا أعمل. إنى ألححت عليها ولكن بلا فائدة ، ولم أشأ أن أرغمها ارغاما حتى

لا تقوم الحياة بينكما على أمر جاف صدر منى ، على كل حال أترك لك فرصة أخرى .

ــ أمرك يا عمى .

ــ طيب يا سيدى .

وأدرك سليمان أنه لم يعد ما يدعو لبقائه ، فقام وقد أكفهر وجهه ، واستأذن عمه وخرج .

لم يكن سليمان جميلا ، ولكن ما أصابه فى زيارته تلك زاده قبحا ، فلو قدر له أن ينظر فى مرآة حينذاك ، لما تمالك نفسه عن أن يقول :

ــ نعم ، إنها محقة أن ترفضنى ، ولو كنت أنا امرأة .. ولو كنت حتى امرأة فقيرة ، ولست ابنة باشا ، لو كنت ، ونظرت إلى هذه الخلقة لرفضت الزواج بصاحبها .

كان خليقا أن يقول هذا لو إنه نظر إلى مرآة ، ولو أنه أصاب بصيصا من ضمير ولكنه ــ والحمد لله ــ لم ينظر إلى مرآة ، ولم يصب شيئا من ضمير ، فهو ينقلب إلى بيته ، لا يفكر إلا فى هذه الثروة التى يوشك أن يفوتها عليه ذكاء بنت عمه ، وقبح خلقته .

(٢)

خرج وصفى من الحجرة وأغلق الباب من خلفه ، ولكنه لم يقصد إلى الباب الخارجى للمنزل ، بل هو يقصد إلى الحديقة الخلفية يتمشى فى أنحائها رويدا ، وكأنما لا يهدف لغير الاستمتاع بضوء القمر الذى ينسكب على الحديقة ، حتى إذا بلغ السلم المؤدى إلى النيل ، نزل عليه فى سرعة ، وفى لمحة أخفاه الجدار الأبيض القائم هناك عن الحديقة والمنزل جميعا .

هنا الموعد .. موعده مع سهير .. ترى ماذا تخفى لهما الأيام . إنها سهير بجمالها الرائع ، بذلك القوام الفارع ، وهذه الضحكة العذبة التى لا تغرب عن ثغرها .. ثغرها ذلك الحلو الذى يلقى الكلام رقيقا جريئا ، عميق المعنى حلو الرنين ، سهير بذلك الوجه الذى يميل إلى الطول فى امتلاء ، وبهذين الخدين الناعمين ، يشع فيهما زهو وثقة ، وبهاتين العينين ، وفيهما بريق أخاذ يكاد فى ضوء القمر ينسكب مع ضوء القمر .. إنها سهير بروحها تلك الحلوة وبحبها العنيف له .. ماذا تخفى لهما الأيام .. إنه لن ينسى .. لن ينسى يوم جاءته أم وديدة تهمس فى أذنه أن انتظر اليوم عند مرفأ القارب ، وكاد العقل يرده ، ولكن الشباب دفعه .. وهناك التقيا فى أول يوم .. ومنذ ذلك اليوم لم تنقطع عنه أم وديدة بالموعد المهموس حينا ، أو بالموعد المكتوب حينا آخر ، وبين هذه المواعيد استقبل وصفى أساكيب من السعادة لم يفكر يوما إنه سيلتقى بها . ولكن إلى أين ؟

إنه يحبها •• يحبها •• يحب فيهــا شبابه البكر ، ويحب فيهــا أمسياتها الناعمة فى ضوء القمر ، أو فى ضــوء المصــباح المعلق على القارب ، يحب فيهــا استيقاظة القلب الأولى ، وصــحوة النبضات الناغمة •• يحبها ولكن إلى أين •• أزواجا ••؟

نعم هو يعلم أن عمه لن يتردد فى قبوله ، وهو يعلم أنه جــدير بها ، وهى جديرة به • ولكن الزواج ؟ ! فإذا ما شغلتنى الحياة ، وإذا انصرفت عن الحب حينا إلى ذلك المعترك الضخم الذى ألقيت بنفسى فيه •• ماذا تعمل سهير •• ولكنه يحبها •• بل هــو لم يعرف للحب معنى إلا هنا •• هنا •• هنا بجانب هذا القارب وعلى ضفاف هذا النيل ، وفى ظل هذا القصر ، وفى ضوء هاتين العينين •• عينى سهير • يحبها ، وهى تحبه ولكن الزواج ثقــة •• أجننت ؟ ألا تثق بابنــة عمك ؟! لا •• أثق •• أجننت ؟ لم أجن ألم تســع هى إلى هــذا الموعد ؟ ولكن هذا لم يكن إلا من أجلك أنت •• أنت وحدك ، من أجل شبابك الريان ، ومن أجل جمالك هذا ، من أجل عينيك الرائعتين ، وشفتيك الرقيقتين يعلوهما ذلك الشارب الذى تعنى بتجميله • ومن اجل شعرك الأسود تحت طربوشك المــائل ، يا لك من غر !! أتذكر جمال سنك ألست رجلا ، نعم •• إنى رجل •• رجل عظيم كاتب ، أديب سياسى يخشى كبار الساسة قلمه ولسانه ، وأنا رجل وطنى •• أحببت وطنى وهاجمت أعداءه ، وأثرت القلق فى نفوسهم فقبضوا على مرات فما زادنى هذا عند وطنى ومواطنى إلا إعزازا وحبــا ، وأنا أيضا عضو بمجلس النواب •• وأصــغر النواب سنا ، وأنا أيضا غنى • وأبى باشا مثل أبيها •• نعم فما كانت لتسعى إلا إلى •• إلى أنا بكل هــذه الأمجاد التى تجتمع فى • ولكن ؟! ولكن ماذا أيهــا

المربيد ، أتلتقى بهـــا وتبثها الهوى وتقابل هواها ثم نتردد • نعم إنى أتردد •

إنها قد تسعى إلى غيرى كما سعت إلى •• بل إن أمى قد ألقت إلى فيما ألقت أن كلاما غير كريم يدور حول سهير • أليس بحسبى هـــذا الكلام حتى لا أتزوجها •• ومتى رأيت الناس يصدقون ، لعلهم وشاة يكذبون ، ولكن الشرف ســـمعة ، وكرامة الفتـــاة منوطة بسمعتها ، فما للناس يتحدثون عنها ولا يتحدثون عن فتاة أخرى • لعلهم ينفسون عليها جمالها وغناها •• كم من الفتيات جميلات وذوات غنى ولا نسمع عنهن شيئا •• لابد انها هى انتى أتاحت الفرص لهـــذا الحـــديث أن يدور •• ثم •• أليس فى لقائها بى ما يدل على أنها جريئة لا تراعى التقاليـــد •• ولكنها تلتقى بك أنت وحدك •• لا •• إن من تقبل أن تلتقى بى لا ترفض أن تلتقى بآخر •• الزواج أمر خطير ، قد لا أفرغ لها •• قد تشغلنى السياسة ، فما يمنعها أن تواعد آخر كما تواعدنى •• لا •• لا •• لا أستطيع •• الزواج •• الزواج !

إن أمى محقة حين فكرت أن تخطب لى هنـــد بنت اسماعيل باشا مصطفى • ومن أدراك أن هندا لا تلتقى بابن عم لها كما تفعل سهير ؟ أيها المتشكك •• وكيف لهند أن تلتقى وهى فتاة صـــغيرة لا تزال فى أكمام الصبا لم تعده إلى الشباب •• تلك هى الزوجة •• تربية تركية صارمة ، تخرج من يد المربية إلى يد الزوج . بلا لقـــاء ولا مواعيد ولا أقارب فى النيل ، ولا ستار من جدار أو ليل ولا أم وديدة حمالة المواعيد • ولكن سهير •• سهير •• ماذا أنت قائل لهـــا ؟ ماذا أنت قائل لها ؟

وحينئذ سمع أقداما تقترب ، وسرعان ما بدت سهير على رأس السلم

وراحت تجوس الحديقة بنظرها هينهة ، ثم نزلت السلم فى سرعة محاذرة أن يصدر منها صوت واستقبلها وصفى :

ــ تأخرت •

وضحكت سهير وهى تقول :

ــ انتظرت حتى خرج أبى •

ــ عمى خرج ؟

ــ نعم •• ظللت أرقب باب الخروج ورأيت الباشمهندس الثقيل يخرج ، ثم خرج أبى بعــده بقليل ومعه عبــد البديع أفندى كاتب الزراعة •

ــ أنت تظلمين سليمان !

ــ أعوذ بالله •• لا تذكره لى •

ــ ولــاذا ؟

ــ يا أخى هذا كارثة •• مصيبة •• بلوى •

ــ لــاذا •• لــاذا هذا كله •• هل جلست معه ؟

وتضحك سهير وهى تقول :

ــ نعم يا سى وصفى ! ؟ • كيف أجلس معه ؟ •• أأقابل الرجال ؟

وابتسم وصفى وهو يقول :

ــ وما أنا ؟ هل أنا ست ؟

وابتسمت سهير ، ولمع فى عينيها بريق وهى تنظر إلى وصفى نظرات عميقــة جعلت الزهو يملكه ويروح يحاول أن يخفيه بالرجوع إلى الحديث عن سليمان ، فقد كان ذمه يرضيه ويرتاح إليــه كما يرتاح لديح يسمعه عن نفسه •

ــ فكيف عرفت أنه كارثة ومصيبة وبلوى ؟

ــ أوه •• يا أخى ، أترك سيرة هذا اللوح •



ويقهقة وصفي قهقهة توشك أن تعلو ، لولا أن تسارع سهير فتضع يدها على فمه فيقبلها ويمسك بها ، ويعيد سؤاله وهو ما يزال محتضنا يدها بيديه :

ـــ كيف عرفت أوصافه هذه ؟

ـــ يكفى أن هذه رابع مرة أرفضه ، وهو يصر على طلبى ..

ـــ رابع مرة ؟

ـــ طبعا ، عد معى ، مرة قبل أن يسافر ، وأجابه أبى دون أن يسأل رأيى بأننى ما زلت صغيرة ، ومرة وهو مسافر بخطاب لم يرد أبى عليه ، ومرة أرسل أمه وسألنى أبى فرفضت ، وهذه المرة التى لا يزال يلح فيها .

ـــ والله مكافح .. من يعلم لعله ينال أمنيته .

وانتفضت سهير جازعة . وانحبس صوتهـا وهى تسأل فى لهفـة جازعة :

ـــ ماذا .. ماذا تقول يا وصفى ؟

وأطلق وصفى ضحكة صغيرة وهو يقول :

ـــ يا ستى أنا أضحك .. ألهذا الحد تكرهينه ؟

ـــ بل لهذا الحد أحب غيره .

واغرورقت عينا وصفى بالدموع ، ولم يجد شيئا يفعله إلا أن يميل على يد سهير ، يقبلها فى خشوع حائر . وفى قلق مرير أحسسته سهير لمـا صبرت أن تلقى بنفسها إلى النيل ، وأوشكت سهير أن تميل على رأسـه تقبله وهو مكب على يدها ، ولكن ردها عن ذلك كبر لم يمده الحب ، وردها عن ذلك أن صـعد إليها وجه وصفى والدموع تتغشاه بعد أن فاض منها سكب على يدها .

(٣)

عاد وصفى إلى منزله أول الليل . وجلس إلى أمه التى استقبلته وقد رسمت على فمها ابتسامة . أدرك وصفى أنها تخفى وراءها أمرا • ولم يشأ وصفى أن يستعجل أمه لتنهى إليه ما تخفيه ابتسامتها . فهو يعلم أنها سرعان ما تفضى إليه بما تخبئه •

كانت السيدة اجلال أم وصفى سيدة فى الحلقة السادسة من عمرها . تركية المولد والنشأة ، وكانت بيضاء الجبين . لم يخط الزمان على وجهها خطوطا كثيرة . وإنما ترك صفحة وجهها صافية يلمع فيها البشر . فقد عاشت مع المرحوم زوجها عيشة رضية . فلم يتزوج عليها ولم يشتر جوارى أخريات شأن أمثاله من الأغنياء وإنما أفردها بحبه وعنايته ومنزله • ولكن هذا جميعه لم يستطع أن يمحو من عينها وميض قلق ألم بها منذ اختطفها اللصوص وهى طفلة تلعب فى مدارج الصبا ، وأتوا بها إلى مصر حيث بيعت بيع الرقيق إلى جد وصفى الذى زوجها لولده أدهم باشا شكرى • لا ، لم تمح الأيام من عينها هذه النظرة القلقة ، ولم يستطع أدهم باشا بكل حدبه عليها وحبه لها أن يزيل هذه الآثار الدارسة من بقايا القلق التى ارتسمت فى عينها منذ ذلك الحين البعيد • ولم تنجب اجلال هانم لزوجها غير وصفى ، فحمد ربه على ما أعطى . وعاش لا يرجو من دنياه إلا أن يمد الله فى عمر ولده ويحفظه من شر العاديات •

وكان وصفى خليقا أن يميع منتهزا فرصة انفراده بأبوة أبيه وبنوته له لولا أن اجلال هانم أدركت ما يحيط بالفتى من خطر ، فقامت على شأنه فى قسوة رحيمة وحزم واع ، وهيأ له أبوه مناهل العلم ومجالس العلماء ، فشب الفتى قويم الخلق واللسان ، أديبا محبا للعلم ، وصار إلى مكانه المرموق هذا مدركا أن الفضل فى ذلك يرجع إلى أمه وأبيه .

وحين انتقل أبوه إلى جوار ربه عاش الفتى وليس له أرب فى بيته إلا أن يرضى أمه فلا تفتقد شـيئا كانت تجده أيام أبيـه .. اللهم إلا فقدانها لزوجها ، وذلك الذى لا يعوضه مال أو بنون .

لاحظت اجلال هانم أن وصفى لم يحفل أمر ابتسامتها التى وضعتها على فمها حين أقبل ؛ فوسعت الابتسامة مرة أخرى عساه أن يسألها ، فقد كانت تدير الحديث فى ذهنها قبل أن يأتى ولدها ، وكانت تريد أن يسألها « ماذا وراء ابتسامتك » حتى ترد سؤاله بما تريد أن تخبره به، ولكن ها هو ذا ابنهـا يأبى أن يسألها ولا تعرف هى كيف تبـدأ الحديث .

وأدرك وصفى أنها تريد أن يسألها عما تخفيه ، وشاء أن يداعبها بصمته فسكت لا يسألها . وطال الصـمت بهما وازدادت الابتسامة اتساعا ، وازداد وصفى تشاغلا عنها حتى ضاقت الأم آخر الأمر .

— أما انك بارد !

وضحك وصفى وهو يقول :

— لـماذا يا أمى ؟

— أما ترى أنى أبتسم وأبتسم ، أما ترى أننى أريد أن أقـول شيئا ؟ !

— فما يمنعك يا أمى أن تقوليه ؟

ـــ لأنك لا تسألنى عن سبب ابتسامتى •

ـــ ألابد أن أسـألك حتى تخبرينى •• أنا أعلم أنك لن تسكتى أو تقولى ما بعث هذه الابتسامة الحلوة الى شفتيك •

ـــ والله لأسكتن فلا أخبرك •

ـــ ولمـاذا يا أمى ، أنا أعرف أنك تريدين أن تخبرينى عن خبر هام ، فلا تضايقى نفسك وقولى الخبر •

ـــ أنا أضايق نفسى ، إنه أنت الذى يتوق إلى معرفة ما أخفيه •

ـــ أنا يا أمى !

ـــ نعم أنت ولكنى لن أخبرك •

ـــ حسنا •• نعمل تجربة ، الذى يتكلم أولا يدفع للآخر خمسـة جنيهات •

ـــ أما انك بارد !

ـــ هيه •• ما رأيك •• نعمل تجربة •

ـــ طيب •• سنرى •

وسكت الاثنان وقـد ازدادت الابتسامة اتساعا على وجه اجلال هانم ، حتى لتوشك أن تنفجر عن ضحكة مرحة فرحانة • ولم يطل بهما الصمت بل تلفتت اجلال هانم حولها وهى تقول :

ـــ أين كيسى •• ها هو ذا ••

وفتحت اجلال هانم كيس نقودها وأخرجت منه خمسـة جنيهات وقالت لابنها :

ـــ خذ واسمع •

وراح الاثنان يقهقهان ف مرح ، ثم قالت اجلال هانم :

ـــ احزر من زارنى اليوم •

ـــ حرم اسماعيل باشا مصطفى •

وفغرت الأم فاها عاجبة من ولدها هذا الذى حيرها •

ـــ وكيف عرفت ؟

ـــ عرفت من ابتسامتك الأولى •

ـــ طيب هات الجنيهات الخمسة •• أتضحك عليّ يا ولد ؟

ـــ وفيم أضحك عليك ؟

ـــ أتكون عارفا بالموضوع كله وتدعى الجهل به ؟

ـــ يا أمى •• وهل لك عمل منـــذ قبلت أن تخطبى لى هندا إلا بيت اسماعيل باشا مصطفى ، وهل لك حديث إلا عن الخطبة ، وعن صداقتك لسمية هانم منذ أيام الطفولة ، وعن فرحك لهـــذا النسب الجديد • يا أمى اننى أعلم أنك لا تحملين أخبارا إلا هـــذه ، فمنذ فتحت هـــذا الموضوع وأنت لا تتحدثين عن شيء آخر •

ـــ آه لئيم •• هات الفلوس التى أخذتها •

وقال وصفى جادا :

ـــ وماذا قالت لك سمية هانم ؟

ـــ أرأيت •• انك أنت الذى تتوق إلى هذا الحديث •

ـــ على كل حال لابد لى أن أعرف •

ـــ يا سـيدى ، الباشـــا وافق وهو مسرور جدا ، وقالت لى أنه منتظرك غدا لتحدد موعد الخطبة •

وقال وصفى فى شيء من القلق :

ـــ غـــدا ؟

ـــ غـــدا •

ـــ بهذه السرعة ؟

ـــ وما المـــانع ؟

وسرح وصفى بنظرة وهو يقول :

ـــ نعم •• صحيح •• ما المـــانع ؟

(٤)

واندفع وصفى فى تيار رغبة عنيفة أن يتم زواجه هذا ، لقد كان يخشى الأيام ، أو هو يخشى نفسه أن مرت عليه الأيام ، كان قد وصل إلى قراره هذا بعد تردد ، وكان العقل وحده هو الدافع إلى هذا الزواج ، كان يريد زواجا مستقرا غير مفزع بأشباح من الماضى ، وخيالات من رعونة الشباب .

كان يعلم أن قلبه نافر من زواجه هذا إلى هواه الأول ، وكان قلبه الشاب قوى النبض ، عنيف الحجة ، ولكن استطاع فى لحظة أن يضع حول قلبه سياجا من المنطق ، فخفت النبض هونا ، وإنبعث وصفى فى غفوة من قلبه يتم الزواج ، فى اندفاعة خائف ، وفى سرعة قلق ، وفى عزم حيران .

يصبح الصباح فيندفع وصفى إلى التليفون يطلب إلى العاملة أن تصله بمنزل اسماعيل باشا مصطفى ، وبعد هنيهة يكون وصفى على موعد أن يلتقى بالباشا فى منزله فى الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم ذاته .

وفى الساعة الخامسة يكون وصفى قد أخذ مكانه من اسماعيل باشا مصطفى ، والباشا يرحب به فى اجلال فهو يعرفه من زمن بعيد ، ويلاحقه كاتبا وسياسيا ، ويحمل له فى نفسه إلى جانب الحب اكبارا .
وقد كان وصفى عالما بمكانه من نفس الباشا ، ولكن علمه لم يمنع الخجل أن يلعثم لسانه بعض الحين .. بعض الحين فقط ، ثم سرعان

ما جرى الحديث فيما قدر له أن يجرى وسرعان ما تحدد موعد الخطبة .. وصفى متعجل والباشا مسرور بهذا التعجل ، وصفى يخشى أن يطغى عليه قلبه إن تراخى الموعد ، والباشا يظن تعجل وصفى عدم صبر عن لقاء عروسه .

وانتقت الرغبتان وإن اختلفت البواعث والظنون . وانتهى الحديث، واستأذن وصفى وخرج . وعند باب المنزل التقى وصفى بأم وديدة تحمل فوق رأسها بقجتها ، فحياها تحية عابرة ، وانصرف عنها باهتة ذاهلة إن لم يمل وصفى على أذنها ولم يتح لهسا أن تميل على أذنه .

ركب وصفى عربته وأمر السائق أن يسعى به إلى بيت عمه أجمد باشا ، وما إن أتم إصدار أمره حتى صكت حوافر الخيل مسامع أم وديدة وهى فى طريقها إلى باب الحريم .

(٥)

كانت حجرة المكتب فى بيت الباشا خالية لا يشغلها إلا كاتب زراعته عبد البديع أفندى الدكر شاب يفتتح الحلقة الثالثة من عمره ، صورة قوية المعالم للفلاح المصرى ، مغلفا بعـــادات الريف ، لم ينزع من غلافه شىء ، لن تخطىء عيناك حقيقته ، ولن تخدعك منه هذه الحلة التى يضعها على نفسه كلما اقتضت الأعمال أن يزور الباشا فى المدينة. فقد شب فى القرية ، وفى مكتب الباشا ، يتلقى عن أبيه أحمد الدكر فنون حساب الدوبيا ، ومحاسبة الأنفار ، وصرف التقاوى والسماد ، وظل بالقرية وبمكتب الباشا عمره جميعه حتى مات أبوه ، فتولى هو عمله •

ولم يكن مجيئه هـــذه المرة فى عمل ، وإنما جاء ليستأذن الباشـــا أن يكمل نصف دينه بالزواج من خطيبته التى خطبها له أبوه منـــذ هو طفل ، ومنذ عروسه وليدة ، أنها ابنة عمه « محبوبة » •• محبوبة العمر كله •• كم يشتاق إليها •• إلى الزواج بها ، وإلى أن تخلو بهما حجرة ، ويقفل عليهما رتاج • إنه يحبها ، ويخفق قلبه لرؤيتها ، وتمور الدماء فى عروقه حين يلتقى بها وقد ألقت على رأسها خمارها الأسود • وهو منذ يومين لا يطيق صبرا ، فقد رآها فى صحن دارها ، وقد لبست جلبابها الأحمر الهفهام الذى لم يكن قد رأى منه إلا طرفه الأقصى حين كان يتدلى تحت جلبابها الأسود ، رأى الثوب جميعه ، رأى ظهره ، ورأى أكمامه وقد انشمرت عن ذراعيها •• ذراعيها هى ،

بل لقد رأى أيضا ساقيها تحيطان بالطست رأى ذلك جميعه حين ولج بيت عمه الذى كان مفتوحا •• رأى محبوبة فتملاها مليا ، حتى إذا أحس أنها توشك أن تلتفت خلفها سارع عائدا بظهره إلى باب الدار ، ومن هنـــاك قال :

ـ يا ساتر •

وقامت محبوبة عن الغسيل ، ومن وراء باب حجرتها قالت وهى تدرك من المنادى :

ـ من ؟

ـ أنا عبد البديع يا محبوبة •• عمى هنا ؟

ـ لا •• خرج •• تفضل •

ـ لا •• استأذن انا •• سأعود إليه فى العشية •

هو منذ تلك اللحظة لا يطيق صـبرا ، ولولا أن الأعمـال كانت متراكمة لركب القطار إلى الباشا لحظة ترك محبوبة ، ولكنه صبر نفسه يومين بغير نوم ؛ لقد كانت سـاقا محبوبة وذراعاها تطارده فى النوم والصحو على السواء حتى لقد خشى أن يخطىء فى الحساب فجاء •• جاء منذ الأمس ؛ ولكنه لم يستطع أن يحادث الباشا فقد كان جالسا طوال الوقت إلى ولدى أخويه فلم يره إلا وهو فى طريقه إلى السيارة ولم يتسع الوقت إلا لأن يسأله الباشا سؤالا عاما عن حال الزراعة ، ثم طلب إليه أن يبيت إلى الغد • وبات ليلته فى بيت الباشا ، وخرج فى الفجر ليصليه حاضرا فى سيدنا الحسين وحين عاد كان الباشا قد خرج • ثم ها هو ذا ينتظره وقد اقتربت الساعة من السادسة وأنه يخشى أن يبيت هـذه الليلة أيضا دون عـودة إلى القرية •• إلى محبوبة •

هكذا كان يفكر عبد البديع حين فتح البـاب ودلف إلى الحجرة سليمان • وقام عبد البديع فى أدب بالغ ، وقد اشتعل فى نفسه كره عنيف لسليمان ، فقد كان يريد أن يحادث الباشا على انفراد ، والآن لم يصبح هذا الانفراد ميسورا ، ولكن هذا لم يمنع عبد البـديع أن يقـول :

ـــ مرحبا سعادة البك •

ـــ أهلا عبد البديع أفندي •• لى زمان لم أرك •• كيف حالك ؟

ـــ الحمد لله يا سعادة البك •• أطال الله عمرك •

ـــ كيف حال الزراعة عندكم ؟

ـــ ماشية يا سعادة البك •• بركة الباشا كبيرة ••

ـــ كم يرمى الفدان ؟

ـــ من القطن يا بك ؟

ـــ نعم •

ـــ خمسة •

ـــ فقط ؟

ـــ نعمة •

ـــ والقمح ؟

ـــ من خمسة إلى ستة أرادب •

ـــ فقط ؟

ـــ نعمة يا سعادة البك ، طيب ، والله إن أرضـنا تنتج أحسن محصول فى الجهة •

ـــ لا •• لا يا عبد البديع أفنـدى •• لابد أنكم لا تحسـنون الخـدمة •

— يا سعادة البك الحال عندنا لا يقاس بالحال فى اوربا ٠

— ولم لا ؟

— لا حول ولا قوة إلا بالله ٠٠ هناك أوربا ٠٠ وهل أوربا يا بك مثل العواسجة ٠٠ شتان يا سعادة البك ٠٠ شتان ٠

— المسألة خدمة أرض فقط ٠٠ لو خدمت الأرض أعطتك ٠

— إنها أرض عمك وأرضك بجانبها ٠٠ أوصل لنا فى مرة وأرشدنا ، ونحن ننفذ أوامرك ٠

وقبل أن يجيب سليمان ، يفتح عم دهب الباب قائلا فى لهجتـه الحازمة :

— سعادة الباشا ٠

ويدخل الباشا إلى الحجرة ويسلم على سليمان وعبد البديع أفندى، ويقعد ، ويقعد سليمان ، وينظر الباشا إلى عبد البديع منتظرا أن يخرج ولكن عبد البديع يقول :

— سعادة الباشا يسمح لى ٠

— ماذا ؟

— كلمة صغيرة ، فإنى أريد أن أسافر الليـلة إن أذن سـعادة الباشـا ٠

ويتململ الباشا فى كرسيه ، وينظر إلى سليمـان راجيا أن يفهم ويترك الحجرة ، ولكن سليمان لم يتحرك من مكانه ، فلم يجد الباشا مفرا آخر الأمر من أن يقول لابن أخيه :

— اتركنا دقيقة يا سليمان ٠

— أمرك يا عمى ٠

— ويقوم سليمان خارجا حاقدا على عبد البديع أن يخفى عنـه

سرا •• فقد كان يحسب أنه يريد محادثة الباشا فى شأن من شئون الزراعة ، وقد كان يحب أن يعرف كل شئون الزراعة •• زراعة عمه الباشا بالذات •

قال عبد البديع فى لجلجة :

ــ أطال الله عمرك يا سعادة الباشا وأبقاك •• سعادة الباشا يعرف أننى خاطب لابنة عمى محبوبة منذ زمن بعيد •

وقاطعه الباشا :

ــ عظيم •• عظيم ، وتريد أن تتزوج ؟

ــ أطال الله عمرك يا سعادة الباشا •

ــ طيب اكتب أمرا إلى نفسك أن تصرف خمسين جنيها تتزوج بها •

وسمع عبد البديع الرقم فتحجرت عيناه هنيهة ، ثم فاض منها دمع فرحان ، فما كان يطمع فى غير عشرين ، وانكب عبد البديع على يد الباشا متشبثا بها ملقيا عليه بفمه ، ولكن الباشا يختطفها منه فى حزم :

ــ ماذا جرى يا عبد البديع ، متى رأيتنى أسمح لأحد أن يقبل يدى •• أستغفر الله يا ابنى ، واستغفره أنت أيضا •• اذهب يا ابنى ••• أنت ابنى • اذهب بارك الله لك فى زوجتك وبارك لها فيك •

وقال عبد البديع والدموع تجرى على خديه :

ــ وبارك لنا فيك يا سعادة الباشا ، وأطال عمرك ، ولا أرانا فيك سوءا أبدا يا سعادة الباشا •

وخرج عبد البديع ونادى الباشا :

ــ يا سليمان •• يا سليمان •

ودخل سليمان الحجرة ، وتبعه وصفى الذى كان قد وصل لتوه ، وجلس كلاهما إلى الباشا وقد غشيهم الصمت : أما الباشا فمفكر فى عبد البديع وفى زواجه مقارنا بينه وبين ابنتيه اللتين تعقدان الزواج تعقيدا يوشك أن ينتهى بهما إلى بوار • ومفكر أيضا فى سليمان هذا وفى وصفى : فقد كان يتمنى أن يخطب وصفى إحدى ابنتيه ، ولكنه صامت لا يبين عن رغبة . ولا تبدو منه بادرة تفكير ، ولو كان يطيق أن يرفض سليمان دون الرجوع إلى ابنته لفعل حتى يضمن بعده عنها ولكن لا يستطيع فهو ابن أخيه وإن كان فقيرا ، ويخشى أن يرفضه فتغضب الأسرة جميعها . فقد استقر العرف بينهم ألا يكون المال سببا فى قبول أحدهم أو رفضه • فكلهم أسرة ، وكلهم سواسية : لا يرفع المال واحدا منهم ولا يخفض آخر • ولكن الحمد لله . فان سهير ترفض وتتمسك بالرفض وما يظنها تقبله أبدا •• فان وجهه هذا — وهو يعلم أنها رأته من وراء الشباك — كفيل بأن يجعلها تزداد تمسكا برفضها له كلما عرض عليها •

وأما سليمان فقد كان يفكر فيما نال عبد البديع أفندى لعمه وفى الثروة الضخمة التى يشرف عليها هذا العبد غير البديع ويتوق فى أعماق نفسه أن يشرف هو عليها •• آه لو تقبله سهير •

وأما وصفى فقد كان يفكر فى الوسيلة التى سيلقى بها إلى عمه خبر خطبته . فقد كان يحب عمه ويقدره ؛ ولا يريده أن يسمع خبر الخطبة من غيره . وكان يعرف أن عمه يريده . لإحدى بنتيه ؛ جاهلا ما بينه وبين سهير . جاهلا أيضا أن هذا الذى بينه وبين سهير هو نفسه الذى منعه من التقدم للخطبة •

وهكذا صمت ثلاثتهم حتى فتح عبد البديع أفندى الباب وتقدم إلى

الباشا فى انحناء ، مقدما إليه إذن الصرف ، ووقع الباشا الإذن بين دعوات عبد البديع أفندى المتلاحقــة ، والتفت الباشـــا إلى ولدى أخويه :

ـــ باركا لعبد البديع أفندى ، فانه سيتزوج •

وهنأ الشابان عبد البديع أفندى الذى شكر لهما تهنئتهما وخرج ، ولحق به وصفى إلى خارج الغرفة ، وفى البهو انتحى وصفى بعبد البديع ناحية وأخرج من حافظته عشرة جنيهات أعطاها له ، وتأبى عبد البديع هنيهة ، ثم قبل الهدية وهو يشكر وصفى ويدعو له ••

وعاد وصفى إلى الحجرة ، فوجد الصمت ما يزال يأخـــذ مكانه بين عمه وسليمان • وكان الباشا قد أدرك ما دعا وصفى إلى الخروج ، وأراد أن يغمز سليمان فقد كان يريده هو أيضا أن يهدى كاتبه شيئا•• أى شىء مهما يكن تافها ليمكن لنفسه احترامها عنـــد الخدم • قال الباشا لوصفى :

ـــ ما كان لك أن تفعل ، فقد أعطيته أنا خمسين جنيها •

وتردد وصفى ثم قال :

ـــ يا عمى أنا أعرف ذكاءك الخارق ، ولكنى ما كنت أحسب أنك تعرف الغيب أيضا •

ـــ لا غيب ولا حاضر •• لم يكن هناك ما يدعو لخروجك إلا هذا ، وأنا أعرف عنك أيضا أنك كثير العطاء •• وسع الله عليك يا ابنى •

ولم يشعر سليمان بغمزة عمـــه وإنما شـــعر بحقده يزداد على عبد البـــديع لزواجـــه ، لنيله هـــذه الأمـــوال فوق ما ينهبـــه من الزراعة • وشعر بحقده على وصفى يزداد أيضا لغناه ، ولأنه استطاع

بهذا الغنى أن ينال هذا الدعاء الجميل من عمه ، كمـــا استطاع من قبل بغناه ومركزه أن يكون المرشح الأول فى إشاعات الأسرة للزواج من ســـهير •

وانتهز وصفى الفرصة السانحة من الحديث عن الزواج وقال لعمه:

ـــ وأنا يا عمى سأتزوج عن قريب •

ودهش الباشا ، وتسارعت الدقات بين ضلوع سليمان •

ليس هــذا أسلوبا يخطب به الفتى الفتــاة إلى أبيها ، ولم يكن الباشا يقدر أن وصفى سيخطب غير واحدة من بنتيه • وانتفض قلب سليمان ذعرا متخيلا أن وصفى سيخطب ســهير • ولم يتح وصفى لهذه المشاعر أن تبلغ مداها ، بل سارع قائلا :

ـــ لقد خطبت اليوم هند بنت اسماعيل باشا مصطفى •

وتمالك الباشا نفسه فى سرعة قادرة مرن عليها فى مجالات السياسة والحياة وقال :

ـــ مبروك •

ولم يستطع أن يزيد ، بل لم يستطع أن يشفع التهنئة بابتسامة •• أى ابتسامة مهما تكن باهتة •• قالها مبروك •• بريئة من كل فرح ، مجردة من كل معنى للتهنئة ، أما سليمان فقد جاهد نفسه أن يخفى فرحته وأطلق :

ـــ مبروك •

تحمل سرورا عاتيا راقصا ، ولكنها مع ذلك لم تكن تحمل كل ما فى نفسه من سرور •

وأحس وصفى راحة إلى القاء هذا النبأ •• راحة الحيران التائه يصل إلى مستقر ، مهما يكن هذا المستقر مخالفا لمــا كان يتمنى ••

ولكنه مســـتقر على أيه حال • أحس أنه أتم عــزمه •• وتغلب على قلبه ، واطمأن إلى مستقبله فى ظلال بيت هادىء لا تدور فيه أعاصير الهوى ، وإن كان يتمنى أن تترقرق فيه نسمات من الحب النـــاعم ، تنمو ولا تدوى ، وتكبر مــع الزمان ، ولـــكن فى هـــدوء ووقـــار وإينـــاس •

ولم يلبث وصفى كثيرا •• فقد أحس بالصدمة التى يعانيها عمه من خيبـــة الأمل ، وبالفرح الذى يعانى سليمان فى كتمانه أن أمله قـــد يتحقق •

وما ان بلغ وصفى الباب الكبير ، حتى التقى هناك مرة ثانية فى يومه هذا بأم وديدة ذاهلة حائرة ، تتخفى منه فى بقجتها ، وتميل عن طريقه فى ازورار •• وأحس وصفى فى أعماق نفسه كرها لأم وديدة •• كرها شديدا لم يعرفه لأحد من قبل •• انها هى •• هى وحدها التى فرقت بينه وبين هواه •• انها هى التى وضعت هذا الحائل بينه وبين سهير •

وأدرك وصفى ان النبأ فى طريقه الى سهير مــع بقجة أم وديدة ، وأحس حينئذ أن سهير ستحس هذا البغض نفسه نحو أم وديدة •• وأحس فؤاده يختلج فى صدره خلجه الطير الجريح •• انه سيجتمع هو وسهير على كره أم وديدة فى وقت معا ، كما اجتمع هو وسهير على حب أم وديده فى وقت معا •

(٦)

صعدت أم وديدة الى الطابق الأعلى وهناك لقيتها الأسرة جميعها بالترحاب وخاصــــة سهير التى راحت تدور حولهـــا فى فرحة نشوانة ، يبتعثها فى نفسها هذا اللقاء الذى مهدت له أم وديدة فى أمسهم الذاهب ولم يكن فرح سميحة أخت سهير بأقل من فرح أختها بأم وديدة ، فقد طالمـــا كانت تهمس أم وديدة لســـميحة أن أختهـــا الكبرى ستتزوج عما قريب ، وعما قريب ستلحق هى بها وتتزوج من فتى أحلامها سامى الذى لا يمنعه عن طلبها إلا أن أختها الكبرى لم تتزوج بعد ، ولم يكن فرح الأم بأقل من فرح البنتين ، فقد كانت أم وديدة تقرأ لها الفنجان وتطمئنها أن فرحين لا واحد سيقامان عما قريب ، بعد نقط ثلاث فقط ، فى القصر . فيطمئن مضطربها القلق ، ويهدأ ثائرها المفزع دائما بتلك القالة التى تشيعها أخوات بناتها من زوجة الباشا الأولى ، من سهير وسميحة ستظلان عانسين بلازواج .

راحت البنتان تتواثبان حـــول أم وديدة ، جاعلتين السبب الظاهر لفرحتيهما أنها قد جاءت لهما بما طلبته كل منهما فى الأمس من ملابس وأقمشة .

واستقبلتها السيدة تفيدة فى فرح هادىء شارع فى وجهها كله ، وأطل من عينيها الطيبتين ومن صوتها وهى تقول بعد أن صفقت بيديها :

— يا بنت هاتى القهوة .

وواجهت أم وديدة هـــذا الاستقبال الفـــرحان بوجمـــة حزينة ،

ووجه شاحب كالثلج ، وعقـــل مذهوب ، وقــد وضحت آلامها جميعا فى صوتها وهى تقــول :

ــ اعملى القهوة سادة يا نبوية .

واكفهر وجه الست الكبيرة وقالت :

ــ لمـــاذا يا أم وديدة كفى اللـــه الشر !

ــ واللـــه يا ستى كنت عند جماعة وسمعت ــ ويا شوم ما سمعت ــ حكاية ــ بعيد عنك ــ ومن ساعتها وأنا مخى داير وربنا يستر .

ــ خير يا أم وديدة ؟

وانطفأت الفـــرحة عن وجـــوه الأسره جميعها ، وارتمت الفتاتان إلى الأرض بجانب أم وديـــدة ، واشرأبت إليهـــا رأســـاهما ، وجف فهما ، فما تطيقان كلاما ، وما تطيقان صمتا .

ــ خير يا أم وديدة ؟

ــ واللـــه يا ستات لا خير أبدا .. لا إله إلا اللـــه .

وقلت السيدة تفيدة :

ــ يا أختى قولى ، نشفت ريقنا .

وخلست أم وديدة نظـــرة إلى سهير ، ثم أطرقت وصعدت تنهيدة عميقة ، وقالت :

ــ لا حـــول ولا قوة إلا باللـــه .. كان بودى يا ستى سهـــير أن يحمل غيرى الخبر ، ولكن لا عليك يا بنتى ، غيره أحسن منـــه .

وحملقت عينا سهير فى أم وديدة ، وأوشكت أن تصرخ « وصفى » ولكن أمسك بلسانها وجود أمها وأختهـــا ، وأمسك بهـــا استدراك

أم وديدة السريع بصوت رفعته حتى يطغى على ما قد يبدر من سهير :

ـ وصفى يا ستى الكبيرة •• سيدى وصفى بك •

ودقت السيدة الكبيرة صدرها وهى تقول :

ـ ماله يا أم وديدة •• ماله وصفى ؟

وقفزت سميحة واقفة ذاهلة :

ـ ما لوصفى يا أم وديدة ؟

وبقيت سهير مكانها وكأنها تعرف أن وصفى بخير ، وكأن الأمر لا يعنيها ، فهى مطرقة تشتعل نفسها بنيران من الغيظ والألم والحسرة ، والكبر ذل من بعد كبر ، والكرامة أهينت من بعد كرامة •

واستطردت أم وديدة :

ـ خطب يا ستى الكبيره •• خطب هند بنت اسماعيل باشا مصطفى •

وتمالكت الست الكبيرة نفسها فى كبر وهى تقول :

ـ وماله ؟

وحاولت سميحة أن تقلدها وهى تقول :

ـ آه •• وماله •

وقامت سهير إلى حجرتها فى هدوء وبطء وفى وجوم ، فكأنما وجهها قد من صخر فهو قاتم لا يبين عما يسده فى نفسها من ثورات • حتى إذا خلت بحجرتها أقفلت الباب وأحكمت رتاجه ، ثم ارتمت على السرير ، شعلة لا تريد أن تخفف وقودها بماء ، وان

كان هــذا المساء دمعا ، لا وإن كان هذا المـاء دما • انها تريد شعلة نفسهـا أن تظل مشتعلة تحرق وتحرق وان يكن الوقـود نفسها •• وان يكون الوقــود حياتها •• ارتمت على السرير وألقت بوجههـا الى الجدار الصلب ، لا تذرف دمعة ، ولا تفـكر في شيء غير أمس عنــد القارب ، وغير الأمسيات التي سبقت الأمس هناك حيث قتلت كرامتها ، وأهدرت كبرها ، ولم تنسل حبـا نقـاء كرامة ، ولا وفاء لقـاء كبر • فلتلتهب نيران الشعلة ولتكن نفسها الوقود ، وما النفس بلا كرامة ، وبلا كبر ، وبلا حب ، وبلا وفاء •

لقــد أدركت أن الذى قضى على مستقبلها هــو القاؤها بوصفي مهما يكن لقـاء بريئـا •• لقــد كانت تعـرف وصفي رجلا متشبثا بالتقاليد ، يقدسها ويدافع عنهـا •• ألم تكن تقــرأ له مقالاته التى يعارض بهــا من يطالبون برفع الحجاب ، أما كان هذا رادعا لها أن تلتقى به •• ولــكن هى أم وديدة أوحت اليها أن لقاء سيتم بينهــا وبين من تحب • وهيأت لها أنه أمر ميسور ، فانصاعت فى سذاجة الهوى ، وفى رعونة الشباب الأولى •

صامتة سهير لا تبــكي ولكن تشتعل وتحترق بلا نور من الشعلة ، ولا بصيص من ضيــاء يبعثه الحريق ، حريق أسود داكن كآمالها ، كمستقبلها ، كماضيها ، كحياتها جميعا •

وطرق البــاب فقامت إليــه لم تسأل الطارق من هــو وما يريد ، وانفرج البــاب عن سميحة التى دخلت صـامتة وأقفلت الباب من خلفها وسارت مــع أختها إلى السرير ، وعادت سهير إلى استلقائها وجلست سميحة بجانبها :

ـــ لا عيــك يا ••

ولم تـكمل سميحة الجملة ، فقـد كانت تدرك أن آمال سهير معلقة بوصفي ، وقـد كانت العـائلة جميعهـا تذكى هـذه الآمال بمـا تطلقه من شائعات وأقاويل •• كانت تـدرك ذلك ولكنها كانت تجهل مواعيد أم وديدة ولقـاء الأمسيات •• لم تكمل سميحة الجملة فقـد وجدتها سخيفة لا تفيد شيئا ، ولم تجد شيئا تقوله غير دمعات فاضت صامتـة أول الأمر ، ثـم انفجرت عن بكاء ونشيج ، راحت سميحة تكتمه بالوسادة ، وقـد ألقت وجهها اليهـا ، وسهير صامتة لا تتكلم ، وكأنما هى وحـدها فى الغرفة بلا بكاء جازع حزين قـد ألقيت أختهـا فى غمرته • وطـرق البـاب مرة أخرى وانفتـح عن أم وديدة تقـول :

— ستى سهير •

ولم ترد سهير على أن تقـول :

— مع السلامة يا أم وديدة •

وعادت أم وديدة فى نغمة توشك أن تكون نغمة نصح :

— يا ستى سهير ••

ولم تكمل لفظ سهير ، فقـد قاطعتها سهير فى صوت حازم يحمل حقا ويحمل أمرا :

— مع السلامة يا أم وديدة •

وأقفلت أم وديدة البـاب وانصرفت • وخلت الحجرة بالأختين مرة أخرى ، ولكن سهير تريد أن تنفرد بنفسها ، فهى تقول لأختها :

— اذهبى إلى حجرتك يا سميحة •• أريد أن أنام •

— ومن سيلبس أبى حين يعـود ؟

وقالت سهير في تصميم :

ــ أنا طبعا •• سأصحو قبل عودته •• اذهبي الى حجرتك •

وفهمت سميحة أن أختهـا تريد أن تخلو الى نفسها ، فقـامت وتركت لهـا وحدتها •

❊ ❊ ❊

عاد الباشـا متأخرا بادى التعب ، وأحست سهير وقـع أقدامه في البهـو ، فقـامت اليـه جامدة محاذرة أن تلتقى عيناه بعينها ، ودخلت معه حجرته ووقفت وراءه لتخلع عنه سترته •

وقال الباشا وهو يخلع ملابسه :

ــ لا أدرى يا سهير لمـاذا أحس بتعب الليلة ؟

ــ لعلك تحتاج الى النوم يا أبى •• أبى ••

وقال الأب في اشفاق :

ــ نعم يا بنتى •

ــ ماذا كان سليمان يعمل عندك اليوم ؟

وأدرك الباشا ما يهفو اليـه حديثها ، ولـكن لم يستطع أن يميله بالموضوع الى آخر • فهو يقول متظاهرا بعدم الاهتمام :

ــ انه يجىء كل يوم يا بنتى ••

ــ نعم أعرف ••

وأدرك الباشا أنه لا بـد له أن يلاقى الأمر مواجهـة ، فسـكت حتى لبس جلبابه ، وقعـد على الأريكة ، ثم نظر مليا الى وجه ابنته وقال لهـا :

ـــ أتعرفين ما تريدين يا سهير ؟

وقالت سهير :

ـــ تمام المعرفة يا أبى •

ـــ لعلك غاضـــبة الليلة من أمر ما ، فيحسن أن تروى فى الأمر ، وتفكرى فيه وأنت بعيدة عن غضب لحظة •• انها حياتك يا سهير •• حياتك كلهـــا •

ـــ أبى ، اذا كنت أنت لا تريـــدنى أن أتزوج من سليمان فأمرك ولا أخرج عن أمرك •• أما أنا •• أما أنا ••

وجمعت كل قواها الباقية لتكمل الجملة قائلة :

ـــ أما أنا فأقبله يا أبى •

ـــ أواثقـــة أنت يا سهير ؟

ـــ كل الثقة يا أبى •• انى أقبله •

وكان الباشا صادقا مـــع نفسه ، وصادقا مع قومه •• لقد قبلت ابنته الزواج من سليمان ، ولا بد له أن يوافق ، فهـــو ابن أخيـــه ولا يستطيع أن يرفضه ، وقد كان أمله الوحيـــد فى الرفض معلقـــا بابنته . ولـــكن ها هى ذى تقبل •• فماذا بقى له انهـــا حياتها •• وهى فيهـــا حرة •• ويل لهـــا من الأيام •• أيـــكون سليمان زوجا لابنتى هـــذه •• ويل لهـــا من الأيام !

(٧)

أصبح الصباح على الباشا ، فاذا بوعكة الأمس تصبح مرضا فهو لا يطيق أن يبرح فراشه ، وجاء الأطباء واجتمعوا حول سرير الباشا وقرروا ألا يبرحه لمدة شهر على الأقل ، ووصفوا له العلاج وخرجوا ، وانشغل المنزل جميعه بمرض الباشا ، ونسيت السيده تفيدة فى غمرة علاج الباشا ما كان بالأمس من خطبة وصفى • وانشغلت سميحة بأبيها أيضا ، أما سهير فقد راحت تنفذ أوامر الأطباء فى صرامة قاسية ، باذلة أقصى جهدها فى خدمة أبيها ، ولكن دون أن تنسى ، وكيف لها أن تنسى •

ومرت أيام والدار مقصد زوار لا ينقطع لهم سيل ، فأما فى الدور الأعلى فسيدات الأسرة حزنهن حزنان ، حزن لمرض الباشا ، وحزن يظهرنه وان لم يتمكن فى نفوسهن لخطبة وصفى لغير سهير •

وكانت بنات الباشا الكبيرات مع الزائرات وان كن يطلن من أمد الزيارة ، وقد يطيب لأحداهن أن تغيظ زوج أبيها ، فتبيت ليلة أو أكثر من ليلة فى قصر أبيها • وكن اذا جلسن الى زوج أبيهن أبدين أسفا لمرض أبيهن ، وأسفا آخر مستترا بالحديث الملفوف لخطبة وصفى ، مبديات انشغالهن على مصير أختيهن • حتى اذا خلت بهن حجرة ، راحت كل منهن تبدى سخريتها المرحة لما أصاب القصر من مصائب ، مرددات أن هذه المصائب انما هى ذنب أمهن المسكينة التى تزوج أبوهن عليها دون ذنب أو جريرة ،ولكن هذا لم يمنعهن أن يشفقن على أبيهن ، وأن يتمنين له الشفاء •

وأما الدور الأسفل فقد كان يحفل بالرجال ، لا يصعد أحد منهم الى الدور الأعلى ، فان الباشا كان لا يلقى أحدا ، وأحد لا يستطيع أن يصعد الى الدور الأعلى ما دام الباشا لا يلقاه ، فما تلقى السيدة الا اخوتها هى دون اخوة الباشا ، فهم لا يصعدون وانما يمسكثون بالدور الأول يتعرفون الأخبار من الأطباء حين نزولهم ، ويلقون الزوار ويشكرون زيارتهم •• كان رجال الأسرة جميعهم يلتقون بالدور الأول ويظلون به الساعات ، لا فارق ثمة بين اخوة الباشا وأبناء اخوته وبين غيرهم من أفراد الأسرة فالجميع له اخوة وأبناء اخوة •

وكان وصفى وسليمان على حالهما من المواظبة ، يظلان بالقصر ما اتسع لهما الوقت • وكانت خطبة وصفى قد عرفت فى مجال الأسرة ، فراحت التهنئات تترى اليه ، ولكنها تهنئات ذاهلة •• أذهلها اخلاف الخطبة لظنونهم ، وأذهلها انتظام وصفى فى المجىء الى دار عمه رغم خطبته ، وكانت تهنئات واجمة أيضا فقد كان مرض الباشا يخيفهم جميعا •

لم يكن سليمان يعلم ما جرت به الأمور بعد خطبة وصفى •• ومن أين له أن يعلم ؟ ! ، ولكن آماله كانت قد تضخمت ، فهو أكثر رفعا للكلفة فى القصر ، وهو من يجلس فى الشرفة الخارجية ليكون أول مستقبل للزوار ، وهو من يودع الزائر حتى عربته أو سيارته -

وتحسنت صحة الباشا ، واستطاع أن ينتقل من السرير الى الأريكة دون أن يبرح الغرفة ، واستطاع أن يلقى اخوته بين حين وحين على أن يتباعد ما بين الحين والحين • واستطاع أيضا أن يذكر آخر حديث له مع سهير قبيل مرضه ، وأن يذكر أن الحديث قد

مرت عليه أسابيع ، فهى ينتهز فرصة تخلو به الغرفة وبابنته فيسألها :

ــ هيه يا سهير .. أمصممة أنت على قبولك لسليمان ؟

ــ نعم يا أبى .

ــ أواثقة أن هذه رغبتك بلا أى تأثير ؟

ــ نعم يا أبى .

ــ شأنك يا بنتى .. ولكن اذكرى حياتك كلها أنك أنت من اخترت ، فاذا مت فاذكرى أنى سألتك رأيك .. وألححت فى السؤال .. أنت وحدك المسئولة عن حياتك منذ هذه اللحظة .

ــ أطال الله عمرك يا أبى .

ــ على بركة الله .

وعلم الباشا أن سليمان بالقصر ، فأمر أن يخلى الطريق الى حجرته من الحريم ، وأن يصعد سليمان اليه .

وقصد سليمان الى عمه الذى استقبله فى محاولة هزيلة للبشر ، وقال له :

ــ مبروك يا سليمان .. مبروك عليك سهير يا ابنى .

وهوى سليمان على يد عمه يقبلها ، فتركها له الباشا ، فهى قبلة ابن اختار يد أبيه موضعا لها .. وقال الباشا لسليمان وهو ما يزال مكبا على يده :

ــ يا بنى الشكر يكون بمعاملتها هى معاملة ترضينى .. ترضينى وأنا فى قبرى .. انها ابنتى .. قطعة منى .. وهى أحب بناتى الى .. أحببها هى .. أحببها هى يا سليمان ، فهى بغير كل

ما حولها من مال وجاه جديرة بالحب ، والله على ما أقول شهيد ••
أكرمها يا سليمان تكرم أباك وعمك •

ولم يقل سليمان شيئاً فى غمرة فرحته الا جملة واحدة ظلت تتردد على لسانه ، دون أن يفكر فيها ، ودون أن يجد لها فى نفسه صدى •

ـ أطال الله عمرك يا عمى •• أطال الله عمرك يا عمى ••

لم يكن تفكيره فى الثروة التى انهملت عليه ليسمح له أن يفكر فى شىء آخر ، ولم يكن ليسمح له أيضا أن يستمع إلى كلام عمه حتى يفهمه •• وانما هى جملة تعلقت بلسانه ، فراح لسانه يرددها وكأنها اسطوانة وضعت على حاك خرب •

(٨)

كانت الأيام التالية أيام أفراح .. أو هى ان شئت الحق الخالص أيام زيجات . فقد تزوج عبد البديع من محبوبة ، وقد كانت هذه هى أولى الزيجات ، وقد كانت ناحية الأفراح فيهما مترعة خالصة لا يشوبها الا الهناء والسعاده .

فقد عاد عبد البديع الى انقرية وبلغها فى الهزيع الأخير من الليل فما رده التأخير أن يقصد إلى بيت عمه . وطرق الباب فى شىء من التهيب ولكن فى اصرار وجاءه صوت عمه جازعا غاضبا بعض الغضب من هذه اليد العابثة التى تطرق عليه الباب فى بهيم الليل ، فهو يثوب من نومه العميق :

ـ من ؟

ـ أنا عبد البديع يا عم .. لا مؤاخذة .

ـ خير يا بنى .

ـ خير وكل الخير يا عم .. افتح .

وقال العم وهو يفتح الباب غير مطيق أن يفتح عينيه :

ـ يا ابنى الصباح رباح .. خير .. متى جئت من مصر ؟

ـ الآن يا عم الآن ..

ـ وكيف حال الباشا .. عسى الله أن يكون بخير .

ـ بخير يا عم الحمد لله .. أبقاه الله لنا ومد فى عمره .

وراح عبد البديع يقص على عمه الخبر الذى سكبه عليه الباشا وابن أخيه وصفى بك ، ولم يفته أن يذكر جمود سليمان . واتفق عبد البديع مع عمه على أن يكون الفرح بعد أسبوع وأن يكون المهر ثلاثين جنيها ، بدلا من العشرين التى كان متفقا عليها .

ولكن الصباح أقبل عليهم بمرض الباشا فتأجل الزواج ، وجعل موعده شفاء الباشا ، حتى يكون الفرح فرحين ، وظل عبد البديع يتعجل هذا الشفاء حتى علم به وعلم بخطبة سهير هانم الى سليمان بك ففرح بخبر الشفاء فرحا غامرا وان اعترضت غمرته غصة بهذا الزواج الذى اختاره الباشا لابنته ، ولكنه سرعان ما قال فى نفسه « أطال الله لنا عمر الباشا .. مالنا نحن ولسليمان » .

وأقيم فرح عبد البديع وخلت الحجرة به وبزوجته وارتاح المضنى الى المضنى بها وهدأ للاعج المستمر من هوى شب على السنين الطوال ، وازداد أجيجه من نظرة عارضة عجلت بالزواج . وانصرف الجمع الذى ظل ملازما لباب الحجرة ، يعلو خواره وتنشق حناجره عن أصوات مرتفعة تريد أن تلتهم فى هديرها تلك الصرخة التى تودع بها الفتاة عهد العذارى .

خلت الحجرة بالزوجين وبدأت بهما حياة جديدة .. جديدة عليهما ، قديمة على العالمين منذ بدء العالمين .

* * *

وفى القاهرة ، وفى ذلك القصر المطل على النيل كانت العدة تعد لفرح آخر ؟ ولكن أهو فرح ؟ أيحمل من معنى هذه الكلمة شيئا ..

على كل حال هو زواج دعى الى شهود حفلة قوم كثيرون ، هم خيرة أبناء مصر وقادتها ، وسيحيى ليلته خير المغنين •• بمبه كشر عند الحريم ، وعبد اللطيف البنا عند الرجال • فهو فرح اذن ! ولكن العروس •• مصدر هذا الفرح وسببه ، حزينة لا تعبأ من أمر هذا الفرح بشىء ، وانما هى جامدة لا تتحرك خلجات وجهها عن نأمه من بشر أو سرور ، تسألها أمها عما تريد فتترك لها الأمر جميعه ، لا تريد أن تساهم فيه بأكثر من تلك الموافقة التى قسرت نفسها عليها قسر ، ويسألها أبوها عن طلباتها فلا تزيد على الدعاء له بطول العمر •• دعاء صادقا من عميق قلبها وأن يكن صدقه هذا يخفى مشاعر أخرى لا تبين عنها لأبيها • كانت سهير لا تريد أن تشارك فى هذا الجرم الذى تقترفه نكاية بنفسها أكثر مما ساهمت •• فبحسبها اعناتا لنفسها وانتقاما أنها وافقت على الزواج من سليمان • أما أن تشارك فى تجهيز نفسها لهذا الزواج ، فهذا ما لا تطيق أن تفعل ، لقد استنفذت جهدها جميعا لتقول لأبيها أنها تقبل هذا الزواج ، ولم تبق منها بقية تجهز بها له •

وكانت الأم تعرف ما يعتلج بنفس ابنتها ، ولكنها تكتم علمها ذاك فلا تبين عنه ، فهى تخشى أن تشمت بها بنات زوجها ، وهى تخشى أن تنكأ فى نفس ابنتها جرحا تعرف أنه يسيل ، وترجو من الزمان أن يرقأ دماءه المسفوحة ، فهى صامتة تلهى نفسها بالشراء والاشراف على شأن الزواج وحفله ، ولكن هذا الشراء وهذا الاشراف لا يمهدان لها وقتا طويلا ، فقد تم الاتفاق على أن يقيم سليمان مع زوجته فى قصر أبيها الباشا ، فالأمر لم يعد محتاجا لغير أثاث حجرة نوم واحدة تستبدل بالقديم الذى كانت تنام فيه سهير ، والشىء الوحيد الذى طلبته سهير هو ألا يباع أثاث

حجرتها القـــديم ، وألا يبارح الطابق الأعلى أو القـــاهرة الى منزل الريف طلبت ذلك ولم تبـــد لطلبها سببا ، وأجيبت إلى طلبها دون أن تسأل عن السبب . لقـــد شهدت هـــذه الحجرة أسعد أيامها ، وهى تريدها أن تبقى قطعة من سعادتها الذاهبـــة .

لم تكثر الأم اذا من الشراء انما هو أثاث حجرة واحـــدة فخـــم وضعته بـــدلا من أثاث حجرة سهير القـــديم ، وابتسمت لسهير ، وهى تقـــول :

أما أثاث حجرتك القـــديم فهـــو كمـــا طلبت ، سيظل هنـــا معنا فى هـــذا الدور ، سأجعله فى الحجرة المجاورة لك ينتظر الأولاد .

وذعرت سهير ، الأولاد ! ؟ وهـــل ستأتى بأولاد أيضـــا ، نسيت ســـهير أن الزوج فى غالب أمره ينتج الأولاد .. الأولاد .. أولاد منهـــا ومن سليمان .. لم تفكر فى هذا الأمر إلا حين ذكرته أمها ، وقـــد ظلت بعـــد ذلك ليـــالى تفكر فى هـــذه الكارثة الجديدة التى ستصاحب ما وقـــع وما أوقعتـــه هى على نفسهـــا من كوارث .. وأوشكت ، بل وهمت أن تقـــول لأمهـــا ارفضوا الزواج . ولـــكن منعها خوف راعد ، خافت الصدمة التى سيصاب بهـــا أبوها ان هى قالت « لا » بعـــد « نعم » ، وخافت أن يرغمها أبوها على الزواج ارغاما وقـــد كان خليقا أن يفعل : فهو لا يقبل أن تمس كرامته بسوء وان كلفه هذا حياة ابنته جميعا ، وخافت أيضا أن تطفىء هذه الفرحة الغامرة التى تمرح أختهـــا سميحة فى أسكوبها ، مظهرة أنهـــا فرحة من أجل أختها وقـــد غبيت أن أختها تعرف تماما بأمر حبها لسامى وحب سامى لهـــا وانتظارهما زواجها هى ليتزوجا هما أيضا .

لم تكن « لا » اذن ذات غائدة فقد فات حينها ، بل انها كانت خليقة

أن تجعل الزواج يتم فى ظلال قاتمة من الارغام والقهر والزجر والتهديد ، بدلا من اتمامه فى ظلال من العطف والاشفاق والحدب والحب .. نعم فقد كان البيت الذى يتهيأ للزواج الجديد ، مغمورا بهذه الظلال من العطف والاشفاق والحدب والحب ، وهى ظلال كما ترى خالية من الفرح كل الخلو . فهى ظلال بلا اشراق ، كان القصر المقبل على الزواج بعيدا عن الفرح كل البعد ، ولم تجد الزغرودة التى كانت تطلقها بعض الخادمات من حين الى حين ، عندما يقبل العريس وينتظر عمه فى الدور الأسفل ، أو عندما تقبل قطعة من أثاث جديد أو قماش أو فستان للعروس ، لا ولم تجد تلك الضحكة العريضة التى كانت تضعها الأم على شفتيها ، لا ولم تجد هذه الرقة الحنون التى كان يصطنعها الأب كلما حادث ابنته العروس ، بل ولم تجد الفرحة الحقة التى كانت تعيش سميحة فى أنغامها ، لم يجد شىء من ذلك فى اشاعة قبسة من فرح فى هذه الظلال التى كانت تسود القصر الذى يتهيأ للزواج الجديد ، وأن تكن الظلال مسكوبة من عطف واشفاق وحدب وحب ، الا أنها ظلال أبدا لم تعرف ومضة الفرح .

ومع ذلك جاء اليوم الموعود ، وسمى اليوم يوم الفرح . واستقبل الأب اليوم أشد ما يكون اشفاقا وضيقا ، فقد كان يعلم تماما ما تقاسيه ابنته ، حتى لقد كان يوشك أن يقتل ابن أخيه هذا ، كان يرى فيه جلاد ابنته الذى اختارته هى لنفسها فى لحظة انهدمت فيها آمالها . لم يكن لفقر سليمان أى أثر فى ضيق الباشا به ، فهو ابن أخيه ، وقد كان أخوه حبيبا الى نفسه ، ولقد طالما نهاه عن السرف والقمار والمضاربة ولكنه لم يستمع ، بل انه كان فى كثير من الأحايين يدفع عنه ديونه وان تضخمت ليبقى عليه أرضه ، ولكنه

لم يسكن لينتهي حتى أنهى ماله جميعا وأتى عليه ، فلم تبق منه الا أوشال ضئيلة لا تعدو ثلاثين فدانا ملاصقة لأرض الباشا ، ومع ذلك فقد كان الباشا يحبه ، وظل يرعى ولده بعد وفاته حتى عاد من أوربا ، وكم كان الباشا يتمنى أن يكون سليمان على خلق سوى ، وترفع عن الدنايا واعتزاز بالنفس ، ولكن سليمان لم يكن ، كان كل شيء الا خلقا سويا أو ترفعا أو اعتزازا ، كان هينا .. هينا على نفسه فرآه الناس آهون ، وكان دنيئا لا يعرف السمو ، وكان ذليلا يطلب الأمر اليسير فيبذل في سبيله كل كرامة ، حتى لم تبق له كرامة ، لا يعف عن قول خسيس ، ولا تمتد آماله الا الى توافه الأمور بلا طموح . أكبر آماله هي تلك التي ينالها الآن ، زواج من ثروة ، وركون الى هذه الثروة ، واستزاده لها دون أن يفكر حتى فيما سيتمتع به في ظلال هذه الثروة .

كان الباشا يعرف هذا جميعه عن سليمان ، فهو ضيق به أشد الضيق ، لا يفكر في فقره ، فقد كان يعلم أن غنى ابنته كفيل أن يضمن لها ولزوجها حياة ميسورة ، ولكن زوجها نفسه بما فيه من خلق ، أو بما ليس فيه من خلق ، هو ما يضيق به الباشا ، ولكن ماذا يفعل ؟ لقد تم الأمر وحل اليوم . ولات حين رجوع .

أقبل سليمان على قصر الباشا في الصباح من يوم الفرح ، واستقبله الخدم في اجلال صامت ، وصعد خبر مجيئه الى الباشا وانطلقت زغرودة أعقبها صمت . وظل سليمان منتظرا عمه متوفز الأعصاب . يدعو الله في نفسه أن يتم هذا اليوم على خير .. الكتاب فقط يا رب .. الكتاب على خير يا رب ، ولا أريد غير هذا منك يا رب .. انه كل ما أطلبه منك يا رب ، لن أطلب منك بعد اليوم شيئا يا رب .

وكأن الله يضيره أن يطلب هـذا السليمان شيئا ، أو كأنه يخادع ربه ويمنيه أن يريحه بعـد ذلك من طلباته ، أم لعله كان لا يـدرى ما يفعل ، أو ما يقول ، فظل يدعو ربه فى الحاح تعوده مع عبيد الله ، فلا حرج عليه ان هو بذله عنـد المولى .

ولم يطل به الدعاء ، فقـد نـزل عمه متجهم الوجه وان حاول أن يلقى على وجهـه بعض البشاشة :

ــ صباح الخير يا سليمان .

وأقبل سليمان على يـد عمه فقبلها :

ــ صباح الخير يا عمى .

وجلس الباشـا ، وجلس سليمان ، ومرت فترة صمت ، ثـم قال الباشا .

ــ سليمان . هل أعددت المهـر ؟

وأخذ سليمان لحظة ثم تلعثم وهو يقـول :

ــ نعم .. نعم .. نعم يا عمى .

ــ كم ستدفع ؟

ــ أمرك يا عمى .

ــ لا بل أمرك أنت .. انى أريد أن تدفع شيئا مهما يكن قليلا ، حتى أحس أنك أجهدت نفسك لتنال أملك .

ــ واللـه .. واللـه ..

ــ اسمع يا سليمان .. اننى أعددت لك هـذا المبلغ .

وأخرج الباشا من جيبه ظرفا منتفخا ، وأكمل حديثه :

ألفـان من الجنيهـات ..

واتسعت حدقتا سليمان ، وفغر فاه ، واستعصى ريقه على البلع ، حتى ليكاد يسيل ، وأكمل الباشا حديثه :

ـــ ستدفع منها ألفا هي المهر • وأعطيك الألف الأخرى لك لتظهر أمام زوجتك في الشهور الأولى مظهرا يرضى كرامتها ، ويشعرها أنها تزوجت من رجل يريدها هي ولا يريد مالها •• هذا المبلغ كبير يا سليمان كما ترى •• فأكرم به نفسك أمام زوجتك ولكني أريد أن تكتب لي كمبيالة بخمسمائة جنيه •• هذا هو المبلغ الذي أريدك أن تقدمه لي مهرا ، وأما بقية الألفين ، فانه هدية مني لك لمناسبة زواجك •

وهب سليمان الى يد عمه وانكب عليها يريد أن يقبلها ، ولكن الباشا سارع فجذب يده وهو يقول :

ـــ لا •• لا يا سليمان في هذه المرة لا •• لا تقبل يدى لأنني أعطيتك نقودا ••

وأخذ سليمان المال ، وانحط على كرسيه ، ولم ينظر الى عمه ، ولو فعل لرأى وجها ينكره •• او فعل لرأى وجه عمه الذى كان يحاول أن يكسوه بالبشاشة ، وقد انقلب الى وجه حزين كسيف جازع مليء بالكره والاحتقار ، لقد فعل الباشا ما فعل ، وكان يتمنى أن يتأبى سليمان أو يظهر بعض التمنع ، أو يعرض أن يكتب كمبيالة بالمبلغ جميعه ، أو يظهر بأى مظهر فيه بعض كبرياء ، أو بعض رجولة ، أو بعض خلق • أما أن ينكب على يده كما فعل عبد البديع فواضيعتا لك يا سهير !!

أحس الباشا الألم الذى أمرضه يعوده ، ولكنه جاهد نفسه ،

ولم يبين عنه ، وقام تاركا القصر جميعه ، ومن ورائه ابن أخيه ، وحين حاول أن يركب معه سيارته قال له :

ـــ لا أظن طريقنا واحدا •

ثم أمر سائقه فسر ، وأخذ سليمان وجهته الى داره ليبشر أمه بما سكبه عليه عمه دون أن يشعر بما يكنه له عمه هذا ، ودون حتى أن يشعر بما فى رد عمه له عن ركوب السيارة من كراهية واحتقار •

❋ ❋ ❋

وكان الفرح الثالث هو زواج وصفى ، وقد كان هذا الزواج محوطا بشىء كثير من الفرح ، فأهل هند فى فرح غامر يعدون للزواج والسعادة تغمر نفوسهم ، وكانت هند ذاتها سعيدة غاية السعادة •• سعيدة لأنها ستتزوج ، وقد شبت وهى تسمع أن الزواج معناه فرح ، فهى لا تعطى فقيرا الا دعا لها بالزواج والفرح ، وهى لا تجلس الى أمها الا رأتها تتمنى لها زواجا من رجل عظيم لتقيم لها فرحا تتحدث عنه الى أولادها وأولاد أولادها ، وهى لا تجلس إلى زائرات إلا دعون لها بالزواج والفرح ، وها هى ذى تتزوج ، ومن رجل عظيم مشهور طالما سمعت عنه من أبيها ومن أعمامها وأخوالها وهو ابن باشا وغنى ويقولون انه جميل كالأمير الذى تروى عنه الأقاصيص ، والذى تشهده فى التمثيل حين تصحبها أمها الى التمثيل فى يوم السيدات •

ها هى ذى تتزوج اذن ، وها هو ذا الفرح يعد له اعدادا ضخما رائعا •• فهى اذن فرحانة •• يبارك أبوها فرحتها وتنتشى بها أمها •

وكانت السيدة اجلال سـعيدة أيضـا بزواج ابنهـا ؛ فهى زيجة طالمـا تمنتها وسعت اليها •

الوحيـد الذى انشغل عن أن يفـرح هـو وصفى ، وقـد أراد لنفسه أن ينشغل •• لا يريد أن يفكر فى هـذا الزواج ولا يريد أن يعـرف حقيقة شعوره نحوه •• انه زواج فقط ، بلا مشاعر حـوله من ضيق أو فـرح أو أمل أو ألم ، انه زواج يتم فى حيـاته كجزء من طريق حياته ، ولا بد له أن يقطعه فهو لا يستقبله بشعور معين ، وانما هو يشغل نفسه بالسياسة ، ويندفع فى غمارها يريد منهـا أن يحقق أمله فى الجهاد ، ويريد أيضـا أن تشغله عن تفـكير آخر ، وعن زواج آخـر • لم يعـد يريد أن يذكره أو يذكر صاحبتـه •• سهير •

(٩)

أقيم فــرح ســهير الحزينــة ، فــكان على أروع ما أريد له أن يكون • وطرب الزوار وانتشوا بالغناء ، فكانوا هم ومعهم سليمان وسميحة رمز الفــرح فى القصر •

كان سليمان فرحا يغشى فرحه بعض اضطراب • فهــو ان يكن قــد ربط جأشه وسكن مضطربه بعــد كتابة عقد الزواج ، الا أنه عاد لنفسه يسألها : ماذا هو قائل فى ليلته تلك ؟

ماذا هــو قائل لسهير فى لقائهما الأول • انه لا يفــكر فيما هــو فاعل ، لأن أمه منعته أن يفعل شيئا فى ليلته الأولى ، فشأن العروس فى الليلة الأولى أن تــكون مضطربة ، ويجب على العريس أن يطمئن روعها ليلة أو أكثر من ليلة حتى يزول عنها الروع ويهدأ المضطرب •

فماذا هــو قائل اذن •• لو أنه كان مثــل وصفى لفتــح للحديث أبوابا ، أما وهو لا يستطيع حديثا فماذا يفعل •• آه لقــد تذكر •• ألم يكن يحكى على صديقــاته فى أوربا ما يجعلهن يضحــكن حتى تســيل الدموع من عيونهن ، أو لم يكن أترابه وأصــدقاؤه هنــاك يضحكون منه هم أيضا •• نعم انه لم يجد بمصر منذ عاد من يضحك من حديثه الا أن هذا لن يقف به عن المحاولة ، فان عروسه مثقفة ولابد أنها ستضحك كما كان أصحابه يضحكون •• لقد هداه الله الى الحل •• وانه لمتبعه فبالغ ما أراد لنفسه أن يبلغ فى ليلته •

وراح سليمان يعيد على ذهنــه ما كان يحكيه بأوربا لأصــدقائه ،

منصرفا عن الفرح الى تلك الأيام المزدهرة فى حيـاته ، والمدعوون فى شـغل عنه إلى الغناء وإلى أصدقائهم ، لا يحفل واحد منهم شأن سليمان ، فلم يكن ذا شـأن بينهم أو بين غيرهم ، فهو من أولئـك الذين اذا حضروا أو غابوا لم تحس حضورهم أو غيابهم • وقد كان فى هذه اللحظة حاضرا غائبا ، يفكر ويبتسم ويفرح •• لقـد هدى الى الحل ، ووفق الى السبيل !

وكانت سـهير فى الطابق الأعلى ، يعينها على سـتر ما بنفسها من ألم وحسرة الخجل الذى تتشح به العروس فى ليلة زفافها ، فهى صامتة عن ألم ، وتظن المدعوات أنها صامتة من خجل ، والله يعلم ، والباشا وأمها ، على أى لاعج من أسى ينطبق صمتها •

وانتهى الفرح • وخلا العروس الى عروسـه • ولم يجد سليمان من كل ما كان يعده فى رأسه الا :

ـــ مساء الخير •

ونظرت اليـه سـهير •• انه فى القرب أبشع منـه فى البعـد ، وجاهدت نفسها أن تجيب ، فلم تستطع فأشـاحت متخذة من خجل العروس وقاء لها من الإجابة •

وتمطى سليمان وألقى نفسه إلى كرسى وهو يقول :

ـــ متعب الفرح •

وسخرت سهير فى نفسها من كلمة الفرح ، وظلت فى صمتها •

ـــ أليس عجيبا أن تكونى ابنـة عمى ولا أراك الا الليلة ؟ عادات سخيفة !! • عندنا فى أوربا كان النساء يقابلن الرجال حتى الأغراب •• تصورى ••

عنــدنا فى أوربا •• لا •• لا أطيق •• أيجمع إلى قبح المنظر ، وصــفاقة الوجه ، ثقل الدم أيضا •• لا •• لا يارب •• لم أقــدر لنفسى كل هــذا العقــاب •• النجاه يا رب النجاة •• عنــدنا فى أوربا •• ويقول تصــورى •• أنا متصــورة •• أنا عارفة فلا حاجة بى إلى التصور •• الشىء الوحيد الذى لا أتصوره هو أنت يا زوجى ، يا شريك حياتى يا مستقبلى كله ، يا بقية عمرى •• وأخشى والله أن تكون بقية العمر طويلة •

ــ كان النســاء يجلسن معى ، ومن لا يعرفننى •• وكنا نتكلم ونتبادل الأحاديث ••

ثم يضحك سليمان فى غرور شائه ثقيل :

ــ كن يعجبن بى اعجابا كبيرا •

بك أنت •• لا •• انى أعلم •• لقــد كن يضحكن منك لا لك •• كنت سخرية الأصــدقاء والصديقات •• ويلى أنا ، لقــد كنت تقيم مع الواحــدة منهن ســاعة أو يوما أو شــهرا ، ثم تنصرف عنك ، ولا يمكن أن تنصرف أنت عنهــا لأنك صــفيق ، أما أنا فالعمر •• العمر كله •

ــ تعرفت هناك ببنات كثيرات •• جميلات •• ولكنهن طبعا لسن فى مثل جمالك •

وتغازل أيضــا •• يا لهــا من مصيبة ! •• انه يستعرض أمامى مهارته مع النساء ، ويغازلنى فى وقت واحــد • كأن من المفروض أن أفرح أن كان له سوابق مع أخريات •• نعم والله كنت خليقة أن أتعزى لو أن هذا الذى يرويه حق •• كنت خليقة أن أعزى نفسى بأن أخريات فكين به قبلى ، ولكن من أدرانى أنه الحق !!

ـــ أنت غيرى •• أليس كذلك •• لا •• لا •• لا تغارى ، فقــد انتهى ما كان بينى وبينهن ، ولقد شئت أن أقص عليك هذا الحديث ، حتى أكون صريحا معك منذ أول ليلة •• هيه لا تغارى •

أغار ! •• عليك أنت •• ألم ينظر فى مرآة هذا الثور •• أنا أغار عليه ؟ !

وقام سليمان عن كرسيه واقترب منهــا فى كرسيها الذى جلست اليه ، وقد ألقت برأسها إلى كفيها تدير إجاباتها على زوجها فى ذهنها ولا تنطق منها بشىء •• اقترب سليمان من زوجته ووضع يده على كتفها •• ولم تكن رأته وهو يقوم عن كرســيه مقتربا منهــا •• لم تر شيئا من هذا ولم تحس إلا بيده تهبط على كتفها ، فلم تشعر بنفسها إلا وهى فى آخر الغرفة ، تصطك أسنانها من المقت والخوف ، محدقة فيه مذعورة ، لا تنطق بلسانها شيئا ، وإن كانت عيناها قد نطقتا بكل شىء •

ولم يــكن سليمان يفهــم من لغــة العيون شيئا ، وانما قال فى نفسه « ان أمى خبيرة •• انها تدرك الذعر الذى تلتقى به العــروس فى ليلة زفافها الأولى » •

* * *

وفى الصباح بكرت ســهير تخرج من غرفتهــا ، وتركت زوجهــا نائما هادىء البال مطمئنا ، لم تجد أحدا صاحيا ، فاتخذت لنفسها مــكانا فى البهــو ، وراحت تفــكر فيما أصابت به نفسها ، وحاولت جهــدها أن تنفى عن نفسها هــذه الأفكار ولــكن الأفــكار كانت أقوى منها ، فهى تمور بعقلها فى ثورة عارمة ، فليس لها منها نجاء •

قامت سهير تتمشى فى أرجاء البيت ، وقصدت الى الشباك المطل على باب البيت والشارع ، وكانت الحياة قد بدأت تدب هونا فى الطريق ، فبائع الفول يدفع عربته لم تتحلق حوله الخادمات والخدم بعد ، وبائع اللبن يسير حاملا بيده اناء اللبن ، وفوق رأسه ذلك اللوح الكبير الذى استقرت عليه أطباق القشدة وأوعية لبن الزبادى الفارغة ، والموظفون يسيرون فرادى ، والتلاميذ يسيرون جماعات ، وعم ادريس يصلى ، وقد وضع بجانبه موقدا من الفخار اشتعلت فيه النار واستقر عليه اناء الشاى والعيش ورأت سهير النار تشتعل وتكاد تلتهم العيش ، فما يملك عم ادريس الا أن يخرج من الصلاة بغير انتهاء ، بل انه حتى لا يستأذن ربه فى الخروج من ساحته بأن يلقى السلام على الملائكة الذين يحفون به وهو قائم .. لا يفعل شيئا من هذا ، بل هو يترك الصلاة فى جزع عاجل وينكفىء على النار ، يختطف منها العيش أن تلتهمه قبله . وتلوح ظل ابتسامة على شفتى سهير كانت جديرة بأن تكون ضحكة عريضة ، لولا ما بالقلب من ألم . وتظل سهير رانية الى عم ادريس والى الشارع . وقد ماجت فيه الحياة وتسارعت فيه الخطوات ، وجرت به العربات تجرها الجياد ، مطهمة حينا أو كسيرة وانية الخطوة حينا آخر ، وقد ترى من حين الى حين سيارة تخترق الطريق فى زهو ، مدلة بسرعتها وأناقتها ، فتلقاها الخيل وسائقوها بكبر ، كبر صاحب الأصل الدارس صار الى الفقر ، وما يزال متشبثا بأصله العريض ، وان يكن قد تهدى الى فقر وارهاص بزوال .

واستطاعت الحياة أن تلهى سهير عما يمور بنفسها بعض الحين ، فلم تنتبه من وقفتها الا على عربة مطهمة الجياد تقف أمام بيتهم

وينزل منهـا ابن خالهـا سـامى عبد الحميد ، أمل أختهـ سميحة وفتاها • وحين تركت النافذة خشية أن يراها سامى ، سمعت جرسا يـدق • فأدركت أن أباها قـد صحا ، فذهبت الى غرفتـه ، وقالت وهى تفتح الشباك ، وقد حملت جرائد الصباح فى يدها :

ــ صباح الخير يا أبى •

وقال الأب فى بعض دهشة :

ــ صباح الخير يا بنتى •• صاح الخير يا عروسة ••

وكانت سهـير قـد أصبحت بجانب سرير أبيهـا ، تضم الـكلة المسدلة عليـه ، وهى تقـول :

ــ أرو أن تكون جقـد نمت نوما هانئا ؟ !

ــ أرجو أن تكونى أنت قـد نمت نوما هانئا ، لقـد صحـوت مبكره يا سهير •• خير يا سهير •

ــ خير يا أبى •

ــ قولى يا سهير •• هل أنت مرتاحة ؟

ولم تستطـع سهـير أن تحتمـل حـزنها أكثر ممـا احتملت •• لم تستطع أن تـكتم الدموع الطفرة من عينهـا ، فأدارت وجههـا عن أبيهـا ، وانهملت دمعـت صامتـة ، وألح الأب فى السؤال ، والدمـوع ما تزال تتزاحم فى عينى سهـير ، حتى اذا عجـزت عن وقف دفعها جلست على سرير أبيهـا ، وألقت برأسها على حافته ، وقـد تشبثت يداها بهـذه الحافة وبكت •• فى همهمة خافتـة أول الأمر ، ثـم ما لبثت أن انفجـرت عن بكاء صـاخب ، تـكاد تذرف فيـه قلبها ، وأمسك أبوها بهـا ، واحتـواها فى صـدره ، فازداد



بكاؤها عنفـــا ، والأب الراسخ الصلب لا يجـــد ما يفعله ســـوى أن يربت كتفها ، وقـــد ثارت فى نفسه عاطفـــة الأبوة جياشة ، رقراقة عنيفة ، حتى لم يستطع ، وهـــو الرجل عـــرك الحياة وعركته ، الى أن صـــار من الحوادث كالجبل الأشم ، تـــدور به الرياح فلا تنـــال منه .. لم يستطع أحمد باشا الا أن يسكب دمعـــات ، سارعت يده الى تجفيفها قبل أن تراها ابنته .

وأحست سهير فى حضن أبيهـــا بعض راحة ، وأحست أن بكاءها لن يفيدها شيئا الا أن تعـــذب أباها ، فتمالكت وانتفضت عن سرير أبيها الى خارج الغـــرفة ، لم تغب عنهـــا كثيرا ، بل هى تعود الى الأب الحزين ، وعلى شفتيها شـــبح ابتسامة باهتـــة ، وتجد أباها يختم صلاته ، فتجلس رانية اليه فى حب ، حتى اذا قام عن السجادة قالت :

ـــ ان أكن قـــد آلمتـــك يا أبى هـــذا الصباح ، فانى أحمـــل لك خبرا تفـــرح له .

ـــ والله يا بنتى لا أعلم أن شيئا يفرحنى وأنت حزينة .

ـــ لا عليك منى يا أبى ، ان سامى قـــد جاء الآن ويرجو لقاءك .

ـــ وأى شىء يفـــرح فى هـــذا ؟

ـــ ألا تدرى يا أبى ، انه يريد أن يخطب أختى سميحة ، فبحياتى عليك يا أبى الا قبلته .

ـــ سامى ابن حلال ، ولكن هل سميحة تريده ؟

ـــ نعم يا أبى ، انى سألتها .

ـــ هل أعتمد على قولك هـــذا وأقبله ، وأحمل عن نفسى مئـــونة سؤالها وخجلها ؟

ـ نعم يا أبى •

ـ اذن فأرسلى اليه من يصعد به الى هنـا ، واخلو له الطريق •

وما هى الا دقائق ، حتى صعد سـامى الى زوج عمته التى كانت قـد صحت هى أيضا ، وانضمت الى زوجهـا فى حجرته • وما هى الا دقائق أخـرى ، حتى خرجت تفيدة هانم من الحجرة ، وأعلنت الى ابنتهـا سميحة أن أباها قـد قبـل خطبـة سامى لها ، وانطلقت الزغاريد فى القصر ، صاخبة فرحة هـذه المـرة ، لا يعوق انطلاقها شىء •

وصحا سليمان من نومه على هـذه الزغاريد ، فظن أنهـا موجهة له ، وحدث نفسه أنه لا يستحقها بعد ، ولكنه لم يستطع أن يصرح • ووضـع على نفسه معطف المنزل ، وقصد الى حجرة عمه • وهنـاك عـرف ما أطلق هـذه الزغاريد من عقـالها • فهنأ سـامى وأصابت نفسه غصة ، فقـد كان يعلم أن سامى أغنى منه • ولكنه تذكر ما نال من عمه فى أمسه ، فثـارت فى نفسه فـكرة جاهـد أن يكتمها • انه يريد أن يدعو زوجته الى رحلة خارج القاهرة ، يتمتعان فيها بشهر العسل ، حتى يظهـر لعمـه أنه سينفذ أمره له باظهـار كرمه أمام زوجتـه ، وحتى يستطيع أن يتيـح لزوجتـه أن تأنس به من تلك الوحشة التى عرفهـا منهـا فى ليلة البـارحة • وكان يجاهد نفسه ألا ينفذ هذا العزم ، حرصا على الأموال ، واحتفاظا بها ، ليشترى قطعة أرض يضيفها الى تلك الأفدنة القليلة التى تركها له أبوه •

وبينما كانت هـذه الأفـكار تتصـارع فى نفس سليمان ، كـان القصر يموج فى فرحة غامرة • فسهير مـع سميحة تحضنها ، وتبكى بكاء اختلط فيـه الفرح بالحزن •• فرح بأختها وحزن على نفسها ،

وتجيبها سميحة بالبكاء ، لا يبتعثه الا الفـــرح الخالص ، تشـــوبه الأحـــلام الوردية عن الرخاءة التى ترنو اليهـــا فى ظل هـــذا الزواج السعيد •

وكانت الأم فـــرحة هى أيضـــا ، فرحة بريئة ســـاذجة ، ولـــكنها لم تسعد بهـــذا الفرح كثيرا ، فهى تنظر الى وجه زوجها فتجد فيـــه ألمـــا يجاهد فى اخفـــائه ••

ـــ خير يا باشا •• أنت متعب ؟

ـــ والـلـــه يا تفيدة نعم •

ـــ ومالك لا تقـــول ؟

ـــ اتركنى البنات يفرحن •

ـــ البنات لا يفرحن الا بك يا باشا •• صحتك أهم من كل شيء

وانكتم الفـــرح فى الصدور ، وانـــكتم معـــه حزن سهير ، وحيرة سليمان الذى وجـــد فى مرض الباشا قرارا حاسما ، اذ لا يمكن أن يدعو زوجته الى رحلة وأبوها مريض •

وسرعان ما جاء الأطبـــاء . وهـــرول ســـامى ليشترى الدواء ، وتكاسل سليمان متظاهرا أنه يريد أن يظل الى جانب عمـــه ، مرتئيا فى هـــذا العذر اعفاء له من دفع ثمن الدواء • وجاء الدواء ، ولـــكن متى نفع الدواء ، وقضـــاء الله مقضى ، سبحانه يهب الحياة ويختارها الى جواره •• هو وحده صاحب الأمر فيها مبتدئة ومنتهية •

(١٠)

لم يستطع شيء أن يعوق سليمان عن حقوق الزواج ، وان يكن الحزن قد أجل نَيْل حقوقه بضعة أشهر ، ولكن أين المهرب لسهير والحياة طويلة ، ما الشهور فيها الا قطعة صغيرة من الزمن ، يبتلعها الزمن . ويبقى الزمن ، وتبقى الحياة ، ويبقى زوجها ، وتبقى حقوقه .. وقد نالها ، ولكن سهير كانت تحس دائما أنها كأنما ترتكب اثما حرمه الله ، كان يداخلها شعور بالخزى والعار ، ولولا أن عقلها ما يلبث أن يذكرها بأنها أوامر الله لما زايل هذا الشعور نفسها .

ولم يكن الجنين يعلم أن أمه لا تحب أباه ، ولم يكن يعلم أنه يتكون على رغم أمه ، ولم يكن يعلم أنها تتمنى أن تموت قبل أن يصبح هو طفلا ، ولو كان يعلم ما استطاع أن يفعل شيئا ، وماذا بيده أن يفعل .. انه يتكون ويكبر على رغم أنفه وعلى رغم أمه ، ويكتمل وينزل الى الحياة .

واستقبل القصر الطفل الأول لسهير .. وقد كان اسم الطفل معدا له قبل مجيئه « أحمد » وقد رحب سليمان بالطفل ورحب أن يسمى أحمد ، وتخلى عن بذل أى مال للحكيمة المولده أو للخدم ، فقد تعود الخدم منه ألا يعطيهم شيئا وان يكن بعض الأمل قد داعب نفوسهم أن تسخو نفسه الجامدة ، يوم مولد طفله الأول ، الا أن هذا الأمل كان ضعيفا واهنا ، لم يحسوا فى انهدامه برزء الأمل المتهدم .

(قصر على النيل)

وكانت سهير قـد عرفت عن زوجها هـذا البخل القاتل ، ولم تشأ أن تنبهه الى موقفه من الخدم ، فقـد كانت تعلم أن لا أمل يرجى من تنبيه ، وضمت هـذه السوءة الى ما اجتمع فيـه من سـوءات وسكتت • وقـد كانت تعلم أنه مهما يعظهم فانه لن يطيق أن يصبر نفسه عن ارتكاب الصغائر أمامهم • فقـد استطاع سليمان فى مهارة حاذقة أن يرغم زوجتـه على احتقاره ، فأصبح كرهها له كرهين ، ومقتها له ألوانا من المقت ، عديدة لا يخفت لهـا أوار •

استقبلت سهير طفلها أحمد ومقت أبيـه يمهد له عندها ، وحينما رأته فى يـد الحكيمة يطلق صرخاته الأوى فى وجه الحياة لم تحس نحوه شيئا من عطف ، ولعلهـا لم تحس نحوه شيئا على الاطلاق ، لولا أنها تذكرت ما يتناقله النـاس من حب الأمهـات لأولادهن • فطوت نفسها على شعورها المبهم ، ونامت بعد أن عرفت أن وليدها طفـل ذكر • وما كان يعنيها أن يكون ذكرا أو أنثى •• كـل ما كان يعنيها ألا يجىء هـذا الطفل ، أما وقد جاء فسيان عندها أن يكون ذكرا أو أنثى ، فهو ان يكن ذكرا فقد يرث عن أبيه شر أبيـه ، وهو ان يكن أنثى ، فهى قد ترث عن أمها تعاسة أمها •

صحت سهير من نوم عميـق ، فوجدت أمهـا بجانبها تشرف على طعامها • حتى إذا أصابت ما قدموه لهـا ، دفعت أمهـا اليها طفلها لترضعه • وحين وضعت ثديهـا فى فم الطفل راح سـؤال يدور فى ذهنها •• وأنت ما ذنبك ؟ ما ذنبك أنت يا ولدى العزيز ••! العزيز •• أعزيز أنت •• أى شىء فيك عزيز ؟ ! أنت بلورة شقـائى •• انبت تجسيد الأشباح القاتمة فى ظلال حياتى ! أنت تعاستى حيـه وترضع منى وأغذيها •• لا عليك يا ولدى ، فانى كمـا أتيت بك الى الحياة

أتيت بشقائى الى الحياة •• انها أنا يا بنى التى خلقت شقاءها بيدها ، وهأنتذا شقائى جاء من احشائى مجسما بعد أن كان فكرا •• انسانا بعد أن كان خيالا •• حياة بعد أن كان رؤى •• حياة وان تكن شقية حزينة آسية ، الا أنها حياة ، وأنا صاحبتها ، وأنا من أغذيها • سأغذيك يا بنى كما غذيت شقائى دائما ، وكما خلقت شقائى هذا •• لقد ولدتك أحشائى . كما ولد عقلى شقائى •• أتت بك أحشائى على رغم أنفها . وولد عقلى شقائى مختارا لينتقم •• لقد خلت انى أنتقم ممن هجرنى : فاذا أنا أنتقم من نفسى ، فويلى من ظالمة ومظلومة . وقاتلة وقتيل •• أنا هى جميعها ، أنا الظالمة والمظلومة والقاتلة والقتيل •• ولكن أنت •• أنت يا ولدى •• ما ذنبك ؟ فاطعم •• اطعم يا بنى هنيئا لك ما ينساب الى جوفك الطاهر البرىء الندى •• وأرجو الله اللطيف بعباده ألا ينساب فى دمى الذى يغذيك هذا الشقاء الذى خالط دمى على الأيام •• اطعم هنيئا ، فأنت يا ولدى لا ذنب لك •

واقتحم سليمان الغرفة على زوجته . فألقت فضلة ثوبها على صدرها ، ومال سليمان على جبين زوجته . فطبع عليه قبلة ليس فيها الا ضم شفتين وانفراجهما عن صوت مرتفع مزعج وقال لها « كيف أنت يا سهير » ولم تزد سهير على أن تقول « الحمد لله » وحين حاول أن يجذب للحديث أطرافا لم تمكنه سهير مما يريد . فقد كانت فى غمرة من هذه المشاعر التى زحمت نفسها ، ولم يدرك سليمان شيئا مما يخالجها ؛ فما كان يدرك شيئا فى نفسها ، واطمأن باله الى أنها متعبة لا تطيق الحديث ، وخرج فرحا من الغرفة ، تشيعه نظرات سهير الحسيرة ، وقد ازداد جسمه امتلاء ، فأصبح سمينا ضخما ، لا يذكرك ان رأيته الا بالعجل قواما وتفكيرا •

* * *

وبعـــد أيام قليلة من ميلاد أحمد عبرت باب القصر فى خطــوات وانيــة محبوبة زوجة عبــد البديع ، تحمل على كتفها ابنهــا السيد وتمسك فى يدها سلة كبيرة ، يغطيها البرسيم ، ويســير من خلفهــا زوجها عبــد البديع ، يحمل هــو الآخر سلة كبيرة مغطاة بالقماش خيطت أطرافه الى حــواف السلة • ان الأسرة قــد جاءت الى قصر الباشا تقــدم تهنئتها الى السيدة سهير وتحمل معهــا الهدايا التى ينتجها الريف الكريم ، وقد كان هذا المجىء يحمل فى طيــاته شكرا عميقا من هــذه الأسره الى السيدة سهير فهى التى مــدت حمايتها على عبد البديع فأبقيت عليه فى وظيفته حين حاول سليمان أن يطيح به مدعيا أنه لص ، عاجزا فى الوقت ذاته عن أن يثبت عليه شيئا من انحراف الضمير •

وقــد أحست محبوبة بالرهبــة وهى تستقبل القصر ، ولكن يــد زوجها من ورائهــا ألقت الى نفسها الطمأنينة ، فخطت باسم اللــه وبستره الى الرحبــة الواسعة ، وسعت بــين مغــانى الحديقة الى القصر الــكبير •

ولــكن سيد أبى أن يجعل السيد يطمئن بهــم ، فهــو ينشق عن صراخ عال وعويل مزعج ، جاهدت أمه فى كتمانه ، ولكن بلا جدوى فقد أبى حتى ثدى أمه الذى أخرجته لتسكته به •

وبلغ العــويل مسامع السيدات ، فسألن وجاءهن النبأ عن زيارة عبد البــديع ، فمست هــذه الزيارة نفس سهير بنسمة طيبة أحست فى عبيرها وفاء وحبا ، وان يكن صراخ الطفل قد أزعجها •

وقبــل أن يختفى عبد البديع وأسرته الصاخبة فى الباب الداخلى

سمع ضجة سيارة تقف عند باب القصر ، فالتفت وعرف فيها سيارة سميحة هانم ، فقال لزوجته :

ــ أسكتى السـيد ، واذهبى لتسلمى على الست سميحة تهنئيها بوليـد أختهـا •

ثم انتقل عبـد البديع الى داخل المنزل ، ولم يطع السيد أوامر أبيـه ، ولم يُجد فى اسكاته جهـد أمه ، ولكن هـذا لم يمنعها أن تتقدم من سميحة هانم التى كانت تسير وئيـدة الخطى يمنعها عن الاسراع أنهـا تحمل هى الأخرى وليـدا غائبا فى ظلمات أحشائها • وقالت محبوبة :

ــ الحمد لله على سلامة الست سهير يا ستى سميحة هانم •

ــ اللـه يسلمك يا محبوبة •• أهـذا ابنك ؟

ــ نعـم يا ستى • العقبى لك •• نفـرح بالمحروس ، وتقومين بالسلامة مجبورة الخاطر ان شاء الله •

ــ لا ، فى هذه المرة أريد بنتا يا محبوبة •

ــ بنت يا ستى ! لا قدر اللـه •

ــ ولمـاذا يا محبوبة ؟ •• أنا عنـدى حسـام •• ألا يكفى ولد واحـدا ؟

ــ لا يكفى أبدا يا ستى •• ولد يا ستى ان شاء الله ولد •

ــ يا شيخة اسكتى ، فانى أخشى أن يسمع اللـه دعائك •• بنت يا رب •• بنت •

ــ لا حول ولا قـوة إلا بالله •• أمرك يا ستى ، بنت يا رب •• نولها ما تريد يا رب ، واجبر خاطرها •

ـــ ألم ترى سهير بعـــد ؟

ـــ لا والله يا ستى . كنت داخلة ورأيتك فجئت أسلم عليك .

ـــ تعالى نصعد معـــا .

وصعد ثلاثتهم . وسيد لا يكف عن صراخه الا بمقـــدار ما يلقف فى حلقومه بضـــع شهقات من الهـــواء ، ما يلبث أن يخرجها عاليـــة الضجيج ، تنقض على الهـــدوء الـــذى كان يســـود القصر فتمزقه تمزيقـــا .

(١١)

كانت الكلمات لا تـكاد تستقيم على شفتى أحمـد ، حـين دخل الى حجرة يجلس فيها أبوه الى أمه وقال :

ــ بابا •• هت لى شكولاتة •

ــ ولمـاذا •• أليس عنـدك شيكولاتة ؟

ــ عنـدى ، ولكن هات لى أنت •

ــ ولمـاذا أنا ؟

ــ لأن نينه تحب أختى هنـاء ، وأنا لا أحب نينه •

ــ ومن أدراك أنهـا تحب هنـاء ؟

ــ كـل يوم •• كـل ساعة أراها تحتضنها وتجعلهـا تبوسهـا فى صـدرها •• بوسة طويلة •• طويلة •• وتقول انها ترضعها ، وأنا لا أبوسها الا بوسة قصيرة فقط ، وبعـد ذلك تتركنى لتجعل هنـاء تبوسها ••

وكانت الأم غارقة فى الضحك ، بينما أكمـل الأب نقاشـه مـع ولده :

ــ طيب وما شأن هـذا بالشيكولاتة ؟

ــ الشيـكولاتة التى عنـدى من عنـد نينـه •• هات لى أنت شيكولاتة •

ــ ومن أدراك أنها من عنـد نينـة ؟

ـــ كل ما عنـــدى من عند نينة •• هات لى أنت شيكولاتة •

ـــ طيب يا سى أحمد •• أمرك •

ويخرج الطفل مطمئنا الى وعـــد أبيه ، فقد كان طفلا ، ولم يكن قـــد عرف أباه بعـــد •

وكانت الأم لا تـــزال فى ضحـــكها من حـــديث ولدها حـــين قال سليمان :

ـــ ألا يجب علينا أن نذهب اليوم الى وصفى لنهنئه ؟

وفجأة تجمـــد الضـــحك على شفتيها ، فقـــد كان اســـم وصفى لا يزال ذا رنين فى نفسها •• واستطرد سليمان :

ـــ يجب أن نذهب لتهنئته •

ـــ ولمـــاذا ؟

ـــ لأنه ابن عمنـــا •

ـــ انه ابن عمنا منـــذ ميلادنا ، ولم نفـــكر فى زيارته أو تهنئتـــه قبل اليوم • فما الذى جعلك تذكر هـــذا الآن ؟

ـــ كنت مخطئا ، وأريد أن أصحح خطئى •

ـــ سليمان •• قل الحقيقة •• انك تريد منـــه شيئا •

ـــ لا واللـــه •• ولكن ••

ـــ ولـــكن ماذا •• انه رزق بجعفـــر ولم تهنئـــه ، بـــل انك حتى لم تشكره على الهديتين اللتين أحضرهما عنـــد مولدى أحمد وهناء ، واليـــوم تريد أن تهنئه لأنه أصبح سكرتيرا لمجلس النواب ، ولا أرى المنصب كبـــيرا عليـــه ، فهـــو عضـــو نواب من سنوات ، وشخصية ظاهرة فى الحزب ، وليس غريبا أن يكون فى هـــذا المنصب •

— ولكنه فاز بثقة اخوانه ، ويجب أن نهنئه بذلك •

— قل لى يا سليمان •• ألم تحصل على الدرجة بعـد ؟

— وما شأن هـذا بالموضوع ؟

— ان هـذا هو الموضوع •

— وبعد معك يا سهير •• أما تريدين أن تساعدينى فى شىء ؟

— واللـه أنا كرامتى لا تسمح لى بأن أزور ابن عمى متظاهـرة بالتهنئة ، بينما أنا أريد منـه شيئا آخر ؟

— يا ستى ما لكرامتك وهـذا ؟ !

— ان الكرامة هى هـذا •

ثم تنهدت سهير ، وكأنما أفاقت الى أنهـا تحدث شخصا لا شأن له بموضوع الحديث ، فقالت :

— وعلى كل حال أنت تعرف أننى لا أقابله •

— نعم أعـرف ، ولو أنى غـير موافق على هـذا الحجاب • على كل حال اصعدى أنت الى زوجته ، وأقابله أنا •

— يا أخى ، أتريـدنى واسطة إلى زوجتـه •• لا يا سـيدى •• اذهب أنت وهنئه ، ولن أذهب أنا الى زوجته •

— ولمـاذا ؟ •• انك لا تزورينها أبدا •

— انها ست غريبة عن العائلة ، وزيارتى لهـا لا تـكون الا ردا على زيارتها هى •

— لقـد زارتك عندما ولدت هناء ، ولم تردى الزيارة •

— لم تأت المناسـبة ، ولو زرت كـل اللواتى زرننى فى الولادة لمـا انتهيت •

ــ ها هي ذي المناسبة •• اذهبي اليها وهنئيها ••

ــ سليمان •

ــ نعــم •

ــ لن أذهب •

ــ أمرك •

وخــرج سليمان غــير غاضب وان كان آســفا ، فقــد كان يأمل أن تتوطد الصلة بين عائلتــه وعائلة وصفى ، فهــو يطمع أن يكون وصفى ســندا له في وظيفته ، فقــد رأى وصفى واســع النفوذ ، مسموع الكلمة عنــد الوزراء وعند وزيره هو بالذات ، ذلك الوزير الذى لــم يجرؤ هــو يوما على طلب مقابلته ؛ ذلك الوزير صــديق لوصفى ، والعجيب أن الوزير هــو الذى يسعى الى توطيــد هــذه الصــداقة وتثبيت دعائمها ؛ يريد من وصفى أن يكون عــونا له في الحزب وفي المجلس •• ومــع ذلك تأبى سهير أن تذهب لوصفى •• أو لزوجة وصفى •• هو غــير غاضب لأن الغضب لم يكن في طبيعته فان الغضب صديق للكرامة والعياذ بالله ، وهو رجل ألف ألا يغضب كما ألف البعد عن الــكرامة •• هو غــير غاضب ، ولكنه آسف •• آسف كما تعــود أن يأسف دائما حــين تأمره سهير فيأتمر ، وهل كان له الا أن يأتمر ، انهــا الزاد والمأوى ، وانهــا المــال والقصر والضياع ، حين هو لا شيء •• لا شيء الا أن يتلقى أوامرها فيطيع ، والا أن تريد هي فيسير ، غــير غاضب أن أستقبل أمرا لا يريده ، ولكنه يأسف •• يأسف وينفذ • وهل كان بيده الا التنفيذ •

ولــكنه اليــوم يريد أن يصل ما بينــه وبين وصفى ، وان يكن قــد أهمل في شــكره على هــداياه ، وأن يكن قــد تأخر في تهنئته

بمولوده الأول . الا أنه اليوم سيمحو هـذا التقصير الذى كانت له أسبابه ودواعيه ، فهـو ان كان قد ذهب للتهنئة بميلاد جعفر كان لا بد له أن يحمل معـه هدية ، ان لم تـكن مماثلة لهـدية وصفى ، فهى على كل حال ستحمله مالا وهـو يحب أن يبـذل مالا . وهـو أيضا كان لا يريد أن تتوثق العلائق بينه وبين وصفى ، بعـد ما كان يشاع من أن وصفى سيخطب سهير . وهـو أيضا لا يحب أن يجتمع ووصفى فى مجلس ، فوصفى رجـل من رجالات الدولة ، فى حـين لم يستطع هـو أن يصبح رجلا من رجال البيت . وهـو لا يحب أن تجرى المقـارنة بينهما ، وخصوصا اذا جرت هـذه المقارنة فى ذهن سهير . ثم هـو أيضا لا يحب وصفى هـذا الذى يتسلق الى المجد فى كبر وخيـلاء ، بينما لا يستطيع هـو أن يتسلق درجة .. درجة واحـدة فى سلك الوظيفة ، ولو أن الأمور جرت فى سبيلها السوى ، لكان هو الأجدر بالرفعة . فوصفى لا يملك الا لسانا وقلما ، أما هو فمهنـدس درس فى جامعات أوربا ، وهـو رجل عملى ، ما الـكلام عنده الا شقشقة عاجز ، وتهويم من لا يستطيع عملا .

ولو أن وصفى ارتفع بجهده وحده ، لقبل ارتفاعه هـذا ، ولكنه ارتفع بغناه الذى خلفـه له أبوه ، وبجاه أبيـه أيضا الذى خلفه له فى الناحيـة ، فأصبح به عضـوا بمجلس النواب ، أما هو فلم يترك له أبوه الا أوشالا من المـال ، استطاع بهـا أن يذهب الى أوربا ، وأن يصبح مهندسا .

لهـذا جميعـه ، كان سليمان حريصـا على ألا يوطد صداقتـه بوصفى ، ولكنه اليوم حريص على هـذه الصلة ، فهو اليـوم فجأة ابن عم وصفى ، وصديقه الأوفى ، وليس لهذه الأسباب مكان .

فهــو لا يحتــاج الى اهــدائه شيئــا ، لأنه ليس من المألوف أن يتهادى القــوم فى التهنئات بالمناصب ، وهــذا فى ذاته أقوى سبب كان يقف به عن التهنئة فى ميلاد جعفــر •

وهو اليــوم لا يرى بأسا أن تتوثق العلائق بينــه وبين وصفى ، فقــد مر على الشائعات التى كانت تربطه بسهير زمن بعيد ، والزمن قادر على ابتلاع الشائعات ومحوها من أذهان الناس ، وهو اليــوم أيضا لا يرى بأسا أن تجرى سهير المقارنة بينه وبين وصفى ، فقــد أصبح لهــا منــه ولــد وبنت تحبهما الحب كله ، فمــا تملك الا أن تظل الى جانبهما ، وهــو أيضــا مطمئن الى أن زوجته لا تــكن له الاحترام ، لأنهــا من ذلك النــوع الساذج الذى يقــدر الــكرامة ولا يقــدر الحياة ، ويهيم فى الخيال ، ولا يفــكر فى الواقــع ، حتى انها تأبى عليــه الا أن يؤدى حق سميحة فى أرضها كاملا اليها ، وان امرأة تبلغ بهــا السذاجة الحــد الذى تأبى عنــده أن تأكل أمــوال أختها خليقة بألا يقيم لرأيها وزنا • أما أن يتسلق وصفى الى أعناق المجد ، فالواقع الذى لم يكن يفــكر فيــه من قبــل أن وصفى كان يجاهد الانجليز ويهاجمهام بمقالات مشتعلة ، حتى لقــد قبضوا عليه مرات ، وسجنوه ، وسليمان لا يرى بأسا أن يصيب هــذا المتهــور المجنون الذى يرمى بنفســه الى التهلــكة مجدا ، ما دام لم يصب التهلكة ، ثم ان هــذا المجد الذى بلغــه وصفى مجد للعائلة كلهــا ، وما دام هــو ـــ سليمان شكرى ـــ أحــد أفراد هــذه العائلة ، فمن حقــه أن يحظى بنصيبه فيما أصابه ابن عمه •• ومن ثم فهو يستحق الدرجة •

هـكذا كان يفكر سليمان حين وجد نفسه واقفا الى باب ابن عمه وصفى ، وقبل أن ينزل من السيارة سأل البواب عن وصفى ، فحين علم أنه بالمنزل ترجل وهو يطلب الى البواب أن يبلغ سيده بمجيئه ٠

كان وصفى اذ ذاك جالسا الى زوجته وابنه جعفر ، وقد راح يداعبه فى حنان ، والطفل يبتسم لأبيه ، ويحرك لسانه بكلمات لم تكتمل ، فيستقبلها الأب بفرح ونشوة ، ولكن هند لم تشارك زوجها فيما هو فيه من غبطة ، فهو يسألها :

ـ مالك يا هند ؟

ـ والله يا وصفى مشغولة بأمى ٠

ـ مالها ، لا قدر الله ؟

ـ منذ مات أبى وصحتها تزداد سوءا فى كل يوم ٠

ـ يا ستى ، طالما رجوناها أن تترك العزبة وتأتى هنا ليراها الأطباء ٠

ـ وماذا نعمل ، انها ترفض أن تترك العزبة وترى فى بقائها هناك ما يسليها ، ولكنها لا تسلو ٠

ـ وهل سمعت شيئا جيدا ؟

ـ كلمتها اليوم فى التليفون ، فلم يعجبنى صوتها ٠

ـ يا ستى لعلك واهمة ٠٠ وعلى كل حال اطلبيها ثانية الليلة أو غدا ٠٠ واذا شئت سافرى اليها ٠

ـ وكيف أسافر ؟

ـ ولم لا ؟

ـــ وجعفـــر ؟

ـــ خذيه معك إذا اقتضى الأمر ••

ـــ الولد صحته لا تحتمل السفر •• على كل حال سأكلمها ثانية •

ـــ لا تشغلى نفسك بلا سبب •• لعلهـــا كانت نائمـــة وأيقظتهـــا بالتليفون ••

ودخلت الخـــادم تنبىء وصفى ان سليمان فى انتظاره ، فتعجب بعض الشىء ، ثم قام للخادم :

ـــ سأنزل اليـــه •

وانصرفت الخادم . وعاد وصفى الى مداعبـــة ولـــده ، وطمأنة زوجه ، ثم قام الى سليمان •

وبينما هو فى طريقـــه الى الدور الأسفل ، لقيتـــه أم وديدة على السلم . فقال لهـــا فى لهفـــة :

ـــ هيـــه •

فهزت أم وديدة رأسهـــا نفيـــا ، فلم يزد ، ونزل الى سليمان •

لقى سليمان وصـــفى بترحاب كبـــير ، فأدرك وصفى أنه يريـــد منـــه أمـــرا ، ولـــكن أخفى ادراكه هـــذا ، وراح يجيب الترحاب بترحاب •

ـــ واللـــه يا وصفى أنت لا تعـــرف كم فرحت بانتخابك سكرتيرا للمجلس •

ـــ يا أخى المسألة لا تستحق فرحا •

ـــ كيف •• ثقـــة زملائك بك ، وبلوغك الى هـــذا المنصب ، وأنت فى سنك هـــذه لا تستحق فرحا •

ـــ لا تـكبر المسألة يا سى سليمان . المهم عنـدنا أن تستطيع الحكومة عمـل شيء مـع الانجليز . أما أن أكون سـكرتير المجلس أو لا أكون ، فوحياتك ما اهتممت بهـذا ؛ ولقـد اعتـذرت وبالغت فى الاعتـذار ، ولكن اخوانى ألحوا فقبلت .. على كل حال أشكرك على زيارتك .. كأنما كان لا بـد لك أن تجد سببا لتزورنى .. أين أنت يا أخى ، ولمـاذا تختفى هكذا عنـا ؟

ـــ واللـه الوظيفة يا وصفى تبتلع وقتى كله .

ـــ وكيف رضاك عن الوظيفة ؟

ـــ وهل رأيت صاحب حق ينال حقـه فى هـذا البلد ؟

ـــ لمـاذا كفى اللـه الشر ؟

ـــ يا سـيدى الوزارة تأبى ألا أن تسـاوينى بزمـلائى الـذين عينـوا معى .

ـــ وما البأس فى ذلك ؟

ـــ ما البـأس ؟ ! يا أخى أنا سـافرت لأوربا ، ونلت شهـادات من أعظم الجامعات هنـاك .

ـــ آه .. من هذه الناحية أظن أنك محق .

ـــ باللـه يا وصفى ـــ ان كنت لا تـرى بأسـا ـــ كلم الوزير ، فهو صديقك ، وما أظن أنه سيخيب لك رجاء .

ـــ أكلمه بكل سرور .

ـــ أشكرك .. ومتى تتناول الغـذاء عنـدى .

ـــ وما المناسبـة ؟

ـــ المناسبة ؟ ! وهل لا بد من مناسبة ؟

ـــ لا •• أبدا •• فى أى وقت •• ؟

ـــ بعد غـد •

ـــ وهو كذلك •• نقبل هـذه الرشـوة يا سى سليمان من أجـل خاطرك •

ـــ يا أخى العفـو •• يا ليتـك كنت ممن يرشـون ، اذن لأرحت قـوما كثـيرين •

ـــ نعم •• وتعبت أنا •

ـــ أبدا وحياتك ، الرشـوة تتعب فى المـرة الأولى تعبـا بسيطا ، ما تلبث الرشـوة الثانيـة أن تمحـوه ، أما الرشـوة الثالثة ، فهى الراحة والهنـاء والمـال والسعادة •

ـــ اللـه •• اللـه يا سى سليمان ، تتكلم كأنك خبير !

ـــ خبير بماذا ؟ •• وظيفتى ليس فيها ما أرتشى عليه •

ـــ فاذا كانت ؟

ـــ فيهـا نظر •

ـــ احـذر يا سليمان •• الرشوة كالقتيل ، تختفى يوما أو بعض يوم ، ثم ما تلبث الرائحة النتنة أن تفـوح منها •

ـــ يا عم صل على النبى •

ـــ عليه الصلاة والسلام •• ولكن هـذا هو الحق •

ـــ المرتشون يملأون المناصب الكبيرة •

ـــ ولكن لا يحترمهم أحـد •

— بل ويحترمهم الجميع وحيثك .

— لأنهم يرجون منهم خيرا . فهم يظهرون لهم الاحترام ، ولكن لا يكنون لهم الا الاحتقار .

— وماذا يعرف الناس عن ضمائر الناس .. المهم ما ظهر ، وأما ما خفى فالله به عليم .

— الاحترام .. أعظم الاحترام .. أن يحترم الانسان نفسه ، ويعلم أن الناس يحترمونه فى دخيلة نفوسهم ، كما يحترمونه فى ظاهرأمرهم . ولا تصدق أن انسانا يكبر وسمعته ملوثة .. ولا تصدق أن انسانا يكبر بغير احترام .

— نعم .. نعم .. أعرف مثلك العليا .

— هذه ليست مثلا عليا .. انها المستوى الطبيعى للأخلاق وما أقل منها سفالة .. المثل العليا سمو عن طبيعة الأخلاق .. ليست الأمانة مثلا أعلى : وانما هى طبيعة . انتشار الفساد جعل هذه المعانى العادية مثلا عليا .. لا تعتقد أنك حين تكون أمينا تستحق المديح ، فهذا هو المفروض .

— فما المثل العليا اذن ؟

— أن أترفع بالمستوى العادى للأخلاق .. أن أعطى كل ما معى لفقير مثلا ، وأظل بلا مال ، أن أضحى بحياتى فى سبيل الصالح العام .

— هذا تهور .

— بل هذه هى المثل العليا .. لا عليك ان لم تبلغ اليها ، ولكن عليك ألا تسفل .

— يا أخى أنت لا تعرف شيئا عن الدنيا .

ـ لكل دنياه يا سى سليمان •• تلك هى الدنيا التى أعرفها •• النهاية ، لقد جعلتنى ألقى خطبة طويلة وأنت لا تحب الكلام ، أنت رجل مهندس تضع القالب على القالب فتبنى بيتا •

ـ أما تزال تذكر •• يا أخى •• يا أخى ارحم الناس من لسانك • النهاية • لا تنس الغداء عندى بعد غد •

ـ وهو كذلك •

واستأذن سليمان وانصرف ، وفى الطريق راح يفكر فى هذا النجاح الذى أصابه من زيارته تلك ، فهو قد ضمن أن وصفى سيكلم الوزير بشأنه فى غد ، لأنه من غير المعقول أن يأتى للغداء عنده دون أن ينبئه بما تم عند الوزير ، وقد قصد سليمان أن يكون الغداء بعد غد ، حتى يترك له الغد ليلقى فيه الوزير ، وسليمان يعلم أن مثل هذا لا يخفى على ذكاء وصفى ، وسليمان مسرور بنجاحه هذا أيضا ، لأنه لن يخسر فى هذه الدعوة شيئا ، فزوجه هى التى ستقوم باعداد الغداء •• وسليمان مسرور أيضا ، لأن هذه الدعوة ستوطد الصداقة بينه وبين وصفى ، وهى صداقة يرى أنه أصبح محتاجا لها دائما • نجاح باهر اذن الذى أصابه فى زيارته تلك • وهو مصمم على تمكين هذا الانتصار والمحافظة عليه • وبلغ سليمان القصر ، فوجد زوجه كما تركها ، لم يزد عليها الا ابنتها هناء ، وقد تركت لها صدرها تقبلها فيه هذه القبلة الطويلة التى تثير الغيرة فى نفس أحمد •

ـ يا ستى ، وصفى سيتناول الغداء عندنا بعد غد •

ونظرت اليه سهير نظرة طويلة لم يرها هو ، ولو كان رآها لما فهم منها شيئا •• وكيف له أن يفهم • انه لا يفكر فى شىء الا أن

يبلغ من نجاحه اقصاه ، والا ان يمكن هـذا النجاح فيستقر به المقام ، وترسخ أقدامه فى أعماق مستقبله • لا شىء الا هـذا . وهل الحياة الا هـذا •• ينظر الى سهير ويقول :

— سهير ••

فتجيبه سهير بعض مفيقة :

— نعم •

— ما المانع أن تقابلى وصفى ؟

وأفاقت سهير الى زوجها افاقة تامة :

— ماذا ؟

— وما المانع ؟ انه ابن عمك •

وقالت سهير فى لهجة من لم يسمع ، وفى غير استنكار :

— ماذا ؟

— أقول انه ابن عمك •• وأنا رجل درست فى أوربا ، ولا أوافق مطلقا على هـذه الرجعية •

— ولكن رأيك هـذا لم تبده الا اليوم •

— نعم لأنه سيتغدى معنا ، ولا أرى معنى أن يأتى ابن عمك الى هنا ، وتقفلى أنت الباب فى حجرتك ، وأظل أنا وابن عمك وحدنا •

— لا أرى فى ذلك بأسا ، الا إذا كنت ترى فى مقابلتى له فائدة •

— الحقيقة نعم ، أرى فى ذلك فائدة •• فأنا لا أجيد الكلام •• ولن تمر دقيقتان حتى أجد نفسى عاجزا عن الحديث معه •

— من هـذه الناحية •• اطمئن ، فهو الذى سيتكلم ••

ثم استدركت قائلة :

— فانهم يقولون انه كثير الكلام •

وأصـــابت نفسـها غصــــة أن اضطرت الى مهاجمـــة وصفى لتعمى على زوجهـــا فقالت :

ـــ ويقولون ان حديثه جميل •

ـــ نعم ولـــكن بماذا أجيب حديثه •• انه يتكلم فى أمور لا أفهمها ولعلك أنت أن تفهميها •• فانك منـــذ تزوجنـــا وأنت لا تـــكفين عن القراءة •• أنت تقرئين الجرائد ، وهـــو يكتب فيهـــا ، وأنت تقرئين كتب الأدب • هو يهـــوى الأدب ، ولن يخرج حـــديثه عن سياســـة وأدب •• وأما أنا فلا أحب السياسة ولا الأدب •

ـــ وماذا يقول الناس يا سليمان ؟

ـــ الناس •• وهل تنتهى أقوال الناس •• الناس عنـــدك هم أنا • وما دامت أنا موافقا فلا شأن لك بالناس •

ـــ أخشى أن يقولوا انك جعلتنى أقابله ، لأنك تريد الدرجة •

ـــ بل جعلتك تقابلينه ، لأنه ابن عمك ، وأنا لا أوافق على الحجاب •

ـــ ولـــكن تعلم أنه هـــو رجعى ، ولن يسمح لزوجتـــه بمقابلتك •

ـــ لـــكل رأيه يا ستى ؛ هـــو من أنصار الحجاب ، وأنا من أنصار السفور •

ـــ هـــذا رأيك ؛ ولـــكنك تنسى العائلة وكثرة كلامها ؛ وتنسى أن رأيك هـــذا لم يظهر الا مع ظهور رغبتك فى الدرجة •

ـــ سهير •• الحقيقة أننى لا أريـــد لك هـــذا الحجاب اطلاقا •• ولن نقتصر مقابلتك على وصفى وحـــده ، بل اننى أحب أن تقـــابلى الجميع •• اننى رجـــل متعلم فى أوربا ، ولا أحب هـــذه الهمجية • لا يا ستى انك ستقابلين الجميع •• الجميع !

وارتفــع صــــوت سليمان كأنه رجــل ، وأحبت سهير أن يظهــر سليمان حماسته فى هــذا الأمر بالذات ، فقــد كانت تريد أن تقابل وصفى ، بل انها كانت تتوق الى هــذا اللقاء ، ولكنها تريد أن تدفع اليه دفعا عنيفا يهيىء لها أن تقول لنفسها انها لا قبل لها بالنكوص ، كانت تريد أن تعتذر لكبريائها عن هــذا اللقاء ، وها هو ذا زوجهــا يدفعها ، وانه زوجها ، فماذا يمكن أن تقول له •• انها ستلقى وصفى وأمرها الى اللـــه ••

وصمت سهـــير ، وأدرك زوجهــا أن صمتهــا موافقـــة ، وارتاح خاطره ، وهــدأ الى مستقبل زاهــر تلوح له بشائره ، فهو يعلم أن وصفى اذا لقى سهـــير سيطيب له أن يــكثر من الزيارة ، وهــو يعلم أن زوجته شريفة ، ويعلم أن وصفى أمين الضمير ، فهــو لا يخشى من اللقاء مغبة ، ولو كان يخشى ما أصر على هــذا اللقـــاء ، ولكنه يعلم أن سهـــير تحب الأدب والسياسة ، وتستطيـــع أن تــكون طــرفا فى الحديث يلقيـــه وصفى ، ويعلم أنه بهذا يحبب بيته الى وصفى ، وهو يأمل أن يحب وصفى بيته ••

وقامت سهير الى حجرتها ذاهلة النظرة ، شـــاردة الفكر ، أحقـــا ستلقى وصفى •• وصفى •• هــذا الخائن الذى ألقى بها الى أعماق هــذه الحياة التى تحياها وتصلاها ، ويلتهب سعيرها فى كــل أيامها ، وصفى •• ستلقاه •• أنها ستنتقم •• ستنتقم •• ولكن ما الذى يكفى لانتقامها •• أتقتله •• وصرخت نفسهــا •• لا •• ثــم سخرت منها نفسها •• وهل أستطيع •• إذن •• اذن ماذا ؟ •• ماذا ماذا ؟ •• كيف أنتقم •• أتجاهله •• وكيف أستطيع ؟ سيكون ثانى اثنين : أحــدهما أبكم فكيف أستطيع أن أتجاهله ؟ وماذا ســـيقول زوجى ، انه ليس

غبيـــا . ألا يجوز أن يدرك من تجاهلى ما كان بينى وبـــين وصفى ؟
ربمـــا ظن أننى أتجاهل وصفى ، لأننى غاضـــبة لزواجه من غيرى ..
أذن .. إذن لا سبيل لى الا أن أترك نفسى على سجيتها .. سجيتها ..
سجية نفسى .. أأخادع نفسى ، اننى لو تركتها على سجيتها لظهـــر
ما تخفيه من .. من حب .. حب عميق ، زاده عمقا هـــذا الألم الذى
أقاسيه فى ظلال رجل قاتم ، مظلم ، أصم الفؤاد .. على سجيتها ..
ويلى من نفسى .. ويلى من حبى .. أبدا لن تكون نفسى على سجيتها
فى هـــذا اللقـــاء .. أبدا لن تكون ، وكيف لها أن تكون ، وأنا مـــع
اثنين ، أحدهما أضـــاع آمال شبابى وحياتى ، وأضاع الآخر شبابى
وحياتى جميعا ، وكيف لهـــا أن تـــكون . وأنا أجلس الى اثنـــين ،
أحـــدهما ألقى بى الى السعير ، والآخر هـــو الســـعير ذاته ، أألقى
وصفى .. سألقاه ، فما هذا الليل الطويل الذى يفصلنى عن لقائه ،
بل هناك نهار آخر وليل آخر ثم القاه ، لمـــاذا لا يستمر هـــذا الليل
ليلا أنامه ، فلا أصحو الا على لقـــائه ، أو لمـــاذا لا يظل النهار نهارا
ألهو فيـــه عن شوقى بأطفالى حتى ألقاه .. لمـــاذا ؟ .. لمـــاذا ؟ انها
الحياة .. لذتها أن تسير هى طريقها المرسوم ، بسرعتها المرموقة ،
بليل يخلف نهارا ، ونهارا يخلف ليلا ، ونتمنى نحن وننتظر ، نتحرق
شوقا وننال ونمنح ونمنع .. وتظل الحياة سائرة ، لا شأن لهـــا بما
نريد أو ما نأمل .

(١٢)

تسير الأمور فى الطريق الذى أراده لها سليمان ، فقد جاء وصفى فى موعد الغداء ، وقصد الى حجرة الجلوس التى يعرف الطريق اليها تمام المعرفة ، وبعد هنيهة فتح الباب وفى انفراجته رأى وصفى •• من ؟ ! سهير ؟ ! سهير •• ومن ورائها سليمان •• ماذا فعلت بى يا سليمان •• حملق وصفى دهشا ، حتى كاد لدهشته ألا يستطيع قياما عن كرسيه !

وأقبلت سهير جامدة الوجه لا تبين نأماتها عن خلجة تشف عما يصطرع بنفسها من حب ، وغيظ ، وشوق ، واقبال ، واحجام ، وتساؤل ، واستسلام ، وتقدم سليمان فى بلاهة ومحاولة مقيتة للتظرف :

ـــ أقدم اليك ابنة عمك التى لم ترها طول حياتك •

وجمع وصفى على شفتيه « أهلا وسهلا » مترددة حائرة ، لا تكاد تبين ، وجلس ثلاثتهم ، وسليمان أثبتهم جأشا ، وأروحهم نفسا ، لا يدرى ما يمور فى نفسيهما من تيارات ان اختلفت فى مجراها ، فهى مندفعة عن معين واحد ، نابعة من خلجات متشابهة ، وراح سليمان يثرثر بحديث لم يع واحد منهما شيئا منه ، حتى اذا فرغ عقله من أى حديث ، لم يجد شيئا يقوله ، صمت ، فانتبه كلاهما الى الصمت الذى ران عليهم ، وانتفض وصفى متمالكا أمر نفسه فى دربة ، وقال لسليمان :

ـ مبروك يا سليمان •• ذهبت الى الوزير وسيمنحك الدرجة ، ان لم يكن قد منحك اياها فعلا •

ـ يا سيدى متشكر •

ـ وهل بيننا شكر ؟

ـ سأكلم أحد أصدقائى فى المستخدمين لعلى أجد عنده خبرا •

وقام سليمان فى فرحة غامرة وخلت الحجرة بالمحبين ، وفى عينى سهير تساؤل ، وفى وجه وصفى حيرة ، ولم يجد وصفى شيئا يقوله الا :

ـ كيف أنت يا سهير ؟

وجاهدت سهير نفسها حتى تقول :

ـ الحمد لله يا وصفى •

ثم جذبت شهقة من أعماق نفسها لتقول ثانية :

ـ الحمد لله •• وأنت كيف حالك ؟

ـ الحمد لله •

ـ وكيف حال هند وجعفر ؟

ـ بخير •• وأولادك ؟

ـ الحمد لله •

وران الصمت عليهما •• لم تستطع سهير أن تسأل •• لماذا فعلت ما فعلت ، ولم يستطع هو أن يبين •• صمت كلاهما ، ووصفى يعلم ما يدور بنفسها ، وهى لا تعلم الا أنه يدرك ما يدور بنفسها ، ثم لا تعرف جوابا على هذا السؤال الذى ظل أعواما يلح عليها فلا تجد له جوابا شافيا •• أو لعلها تعرف الجواب ، ولكنها أيضا تعرف أن وصفى لن يستطيع أن يطالعها بهذا الجواب الذى تعرفه ••

ماذا تراه قائلا •• أيقــول لهــا انه لم يعجبه منها أن تلتقى به قبل الزواج •• ماذا تراه قائلا •• انها تريد أن تسأله •• تريد أن تبلو لباقته الى درب عليهــا فى ميــادين الأدب والسياسة والمجتمـــع •• كيف سيفسر لهــا هــذا الشقاء الذى ألقى بها اليه ••

وفجأ قال وصفى :

ـــ سهير أريد أن ألقـــاك ••

وذهلت سهير لحظة ثم قالت فى تخابث وعدم مبالاة :

ـــ هأنتذا تلقـــانى •

ـــ وحدنا •• فى مكاننا •• هناك عنـــد القارب •• اليوم • الساعة السادسة من مساء اليوم •

وقبل أن تقــول « لا » دخل سليمان فراح وصفى يتكلم . وكأنه يكمل حديثا لم يقطعه دخول سليمان •

ـــ بل ان الشاعر الذى يقول :

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كـــل الظن ألا تلاقيا

أحب الى من الشعراء المتشائمين •• فالأدب عنـــدى متعـــة •• والتفاؤل أجـــدر بالشعراء •

وقال سليمان :

ـــ ماذا ؟ ! فتحتم باب الشعر •• لا مكان لى اذن •

وقال وصفى :

ـــ هيه ؟ ماذا قالوا لك فى المستخدمين ؟

ـــ يا سيدى ألف شكر •• لقـــد أمر الوزير بترقيتى •

ونظـــرت سهير الى سليمان ، ثم نظرت الى وصفى وكأنما تشيده على ما فعله بهـــا ، ثم قامت من الحجرة •

وحين أقبلت سهير لتدعو الضيف وزوجها الى الغـداء ، لم يلحظ سليمان بينما لحظ وصـفى جفـونها المخضلة ووجههـا الشـاحب لقد سكبت بعض دمـوع مكنتها من أن تتمالك نفسها وتجلس الى ضيفها الحبيب ، فتجرى الحديث فى بساطة ورقـة ، حببت الجلسة اليه ، تحادثا فى كل شيء •• فى السياسة وفى الدور الذى يلعبه فيها ، ووجدها على علم دقيـق بكل خطواته فى هـذه السنوات التى غابها عنها •• هيـه يا حبى الأول الـكبير • ان زوجتى التى لا تفرقنى يوما لا تعـرف عنى ما تعرفين •• رحمتك فى بلواك فمن يرحمنى فى بلواى •• انى أعيش فى بركة هادئة ، صافية هـذه البركة ، ولكنها راكدة ليس فيها تيار ، ولا هى مشوبة بقـذى ، وهذا الهدوء فيهـا وهـذا الصفاء هـو أتعس ما ألاقيه فى حيـاتى ، ركود يصدر عن الغبـاء ، وصفاء لا يبتعثه الا الجمود • وأشـد ما أعانى فى حياتى أنى لا أجد شيئا أذمه فأشكو وأستريح •• ان زوجتى سـدت على منـافذ الشـكوى بطاعة عمياء ، وأدب بالـغ أقصى المـدى ، فمم أشكو ؟ وماذا أقول •• رحمتك يا سهير فمن يرحمنى •• هى الحياة فى بيتى أقطعها رتيبة النغمة لا تتغير ، ان دخلت بيتى قطعت ما بينى وبين الحياة ، وأصبحت لا شيء الا زوج هند وأبا جعفر ، فلا هنـد تعرف عن شأنى فى الحياة شأنا ، ولا جعفر يفهـم ما أبوه صـانع ان هنـد فى البيت شأنها شأن جعفـر ، كلاهما طفل •• مطيع كلاهما هادىء ، ولـكن طفل •• أما أنت •• أنت فحياة •• أنت التى كنت جـديرة أن تهبى للنصر معناه حـين انتصر فى المعترك ، وأنت التى تشفين جـراح الفشل حـين الفشل •• أنت معنى النصر ، وبلسم الجراح تخلفت عن الصراع ، وحيـاة الحياة التى أحياها ، والنغمة العذبة فى كل معنى يطالعنى ان يكن فرحا ، فأنت النغمة الفرحانة ،

أو حزنا فأنت النغمة الآسية •• وأدركت سهير ما بنفسه •• قرأته فى عينيه •• عينيه الحلوتين . هاتين اللتين تستطيع فيهما أن تقرأ ما وراءهما •• فيهما شفافية حبيبة وطالما افتقدت الشفافية فى عينى زوجها فلم تجدها •• طالما نظرت الى عين سليمان وأنعمت النظر ، فما زادها الانعام الا عجبا •• كيف يرى سليمان بهاتين العينين •• انهما مطفأتان •• لا نور فيهما ولا حياة •• بل ان وجهه جميعا جامد صلب لولا أن صاحبه يسير جيئة وذهوبا ، لما عرفت ان كان ميتا أم حيا •• ويلى •• لماذا يحيا وجه سليمان كما يحيا وجه وصفى •• الحياة كلها هنا فى هذا الوجه •• انها طالما أنعمت النظر فى وجه وصفى وعجبت كيف لهذه الحياة جميعها أن تموج فى وجه واحد فقط ، حتى ليخيل اليها انه ليس هناك حياة الا فى هذا الوجه •• على ثنايا فرحها وغضبها واقبالها وادبارها •• المعانى كلها هنا فى هذا الوجه •• لماذا أيها الوجه •• لماذا فعلت بى هذا •• ما الذى جنيت ؟ •• لم أجن — علم الله — الا حبك ، وانه لجناية أنا وحدى من صليت أخلافها وعواقبها •

وقاربت الساعة الخامسة . وقام وصفى ، ولولا موعد تهفو له نفسه ما قام ••

انه ذاهب الى موعده لا يدرى أن كان سيلتقى هناك مع نفسه وحدها ، أم أنه سيلتقى أيضا مع هواه القديم الجديد •• ولكن بحسبه أن يلتقى مع نفسه هناك •• بحسبه ذاك ، فهو ذاهب •• أما هى ••

ركب وصفى سيارته . وأمر سائقه أن يسير دون أن يبين له عن هدفه ، حتى إذا اقترب من مكان يستطيع منه أن يستأجر قاربا ،

نـــزل وأمر السـائق أن ينصرف الى البيت ، وذهب الى النيـل ، واستأجر قاربا وأمر صاحبه أن يسير به فى اتجاه القصر •• انه الحب يعود •• يعود بجميعه حتى بهذه الأفعال الطفلة التى لم يقدم عليها يوما وان يكن قد سمع بهـا سماعا •• لقد نسى فى غمرة من أمواج حبه من هو •• نسى أنه النائب الخطير الذى يهتز الوزراء من نقده ، ويرجف أعـداؤه من هجومه ، ونسى أنه أحـد هاته الرموز القليلة التى يتمثل فيها جهاد شعبه ضد الاحتلال ، نسى هذا جميعه ولم يعد يذكر من أمر نفسه الا هـذا الخافق الذى عاد اليه الوجيب أعنف ما تـكون العودة ، فهو فى طريقه الى هواه •• الى ماضيه ، بل انه فى طريقه الى الحاضر •• الحاضر الذى كثـيرا ما تمنى لو أنه حققه لنفسه •• لقلبه •

هاذى القـارب قارب عمـه الراسى هنـاك ، ونزل الى المرسى، وطلب الى صاحب القارب أن يعـود اليه بعد حين •

جلس وصفى فى مكانه المعهـود والبيت الذى ألقاه عفو الصدفة يطن فى خاطره فى اصرار عنيف لا يبتغى عنـه حولا •

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما   يظنان كل الظن ألا تلاقيـا

وفى البيت يدور فى ذهنـه كنغمة تعودتها الأذن فما تحس بهـا ، وراح وصفى يفكر فيما كان من الأيام التى تفصل بين هـذه اللحظة التى هو فيها وبين آخر مرة كان فيها هنا •

وفى القصر جلست سهير وحدها •• أتذهب •• أتلتقى به هناك •• لا •• لن تذهب •• ماذا أفادت من هذا المكان ، ومن هاته باللقاءات التى كانت فيه ، لا شيء الا الحسرة والألم والحزن •• ولـكن أكان



الحزن نابتاً من اللقاء أم من انقطاع اللقاء •• طريق واحدة •• اللقاء أسلم الى عدم اللقاء الى الحزن •• الحزن منتهاه والألم والحسرة .

ما الجديد ؟ أهى المـرة الأولى التى يدعوك فيها الى اللقاء بعـد زواجك •• ليست الأولى ، لقد طالما جاءت اليك أم وديدة بموعد له فرددتها •• نعم انك لم تطرديها ولكنك رفضت موعدها •• لم تمنعيها من دخول البيت . لأنه كان يطيب لك أن تعرفى أنه يفـكر فيك وأنه يريد لقاءك •• ولكنك كنت ترفضين اللقاء •• فلماذا تريدين هـذا اللقـاء اليـوم ؟

ماذا تريدين من الذهاب •• مـكانك •• لا تـذهبى •• مـكانك فكبرياؤك أعظم من هـذا اللقـاء . وكرامتك أغلى من هذا الحب •• فهو الحب اذن •• نعم وأدريه •• فلأذهب اذن •• انه الحب يدعونى وهو كل شىء •• حب أبتر لا يلاقيك فيه •• حب بلا أمل •• بلا أمل ؟ من يعرف المستقبل ؟ من هـذا الذى يستطيع أن يؤكد أن لا أمل ؟ وأين لى بالأمل •• مكانك •• فقد مرت السنون ، وأخشى أن ينفض القلب أغلفة الأيام . ويصبو الى هـواه الأول •• ويحك ! ان الأيام لم تغلف قلبك . انه ما زال الى حبـه الأول يرنو عصى الجمحات ، واله الخفق . ملتهب الحنين . مكانك فلن تزيدى قلبـك الا جموحا وخفقا وحنينا : وهل ثمـة زيادة للمستزيد •• مكانك فلا أمل ثمـة الا سراب ، ولا شىء هناك الا ألم •• لا •• لن أذهب •• ونظرت الى السـاعة : فاذا هى السادسـة والنصف ، فحـزمت أمـرها على ألا تذهب •• ولكنها لم تـر بأساً أن تنزل الى الحديقة وتسـير فى طرقاتها تحـاول ما وسعها الجهد ألا تعـود الى ذلك النقاش مـع نفسها •• وسارت تفكر فى ألاتفكر فى موعدها •• وعصيت الخطى

تفكيرها ، فاذا هى عند السلم ••وإذا هى دون وعى تنفض الحديقة بعينها ، ثم تسلم الى السلم أقدامها ••

ـ سهير •

ـ وصفى •

واتمت على المقعد الحجرى ، وألقت برأسها الى راحتيها ، وانطلقت فى بكاء ، يعلو نشيجه فى صدرها ، حتى إذا أراد أن ينفجر كتمه حذر وكبر •

وارتمى وصفى إلى جانبها حائرا تسيل الدموع على وجهه فياضة السكب ، صامتا ملقيا برأسه إلى قبضته ، ناظرا إلى الأرض لم يجد غيرها يحتمل نظراته •

وطال بهما الصمت والبكاء لم يفيقا إلا على صوت يأتيهما من النيل :

ـ يا بك •

ولم يجب أحدهما ، ولكن الصوت ألح :

ـ يا بك •• القارب يا بك ••

وقام وصفى إلى حافة المرسى ، فوجد القارب وبه صاحبه ، فنفحه مبلغا من المال ، وطلب إليه أن يعود بعد حين آخر •• وعاد إلى سهير ، فوجدها ترقأ دمعها وهى تقول :

ـ لماذا ؟ لماذا يا وصفى ؟

ـ ماذا تريدين أن أقول !!

ـ لماذا ؟

ـ حمق وجهل وطفولة ورعونة •

ـ ولكنك أضعت حياتنا •• ألقيت بى إلى الشقاء والبؤس والألم

والحسرة •• حياتي كلها أضعتها •• لمـــاذا لقيتنى ما دمت كنت تنوى آن تفعل بى ما فعلت •

ــ سهير •• إننى أحاسب نفسى حســابا أشـــد عسرا ، فدعينى وما بى ، ولا تزيدنى ألمــا وحسرة •

ــ ماذا تريدنى أن أقول •• ماذا تنتظر منى أن أقوله •

ــ سنوات مررن لم نلتق . ألا تجدين شيئا تقولينه ؟

ــ سنوات مررن •• لا •• لم تحسها أنت •• لقد شغلتك الحياة عن السنوات تمر ، أما أنا فقد أمضنى كل يوم من هذه الســـنوات ، بل لقد شقيت بكل لحظة فى كل يوم من هـــذه السنوات •• حرمت فرحة الزواج ، بل شقيت بهذه الفرحة ، وحرمت فرحـــة الأمومة ، وأنا أم لطفلين . كلاهما جميل •• أحبهما ولكنى لم أفرح بمجيئهما •• حرمتكل شىء جميل ، وكل شىء حولى كان حريا أن يكون جميـــلا لولاك •• لولاك الذى تجىء اليوم لتقول لى فى ســـهولة ويسر حمق ورعونة ، ولتقـــول لى سنوات مررن ! ماذا تدرى أنت عن هـــذه السنوات ؟

ــ أدرى الكثير ، أدرى الألم كلما خلوت إلى نفسى أو إلى بيتى ، أدرى أننى لم أستطع أهوى زوجتى أو أرى فيها غير زوجة بلا حب جامح عرفته لك ولم أجده لها •• ظننت الحب يأتى هونا مع الأيام ، فاذا المـــودة هى التى تأتى لا الحب •• عرفت الليـــالى الطويلة ، تصطرع حولى الأحداث ، وأجاهد ما وسعنى الجهد ثم أعدم فى بيتى اليد المؤاســـية والعقل الذى يعى جهادى ، والأحداث والصراع •• أحسست السنوات بطيئة ، وانية الخطو ثقيلة الليالى •

ــ عرفت الليالى !؟ •• لعلك عرفت ساعة من ليلة أو ســـاعتين ،

أما أنا فالأيام والليالى والدقائق واللحظات •• سوداء كلها بلا صراع ولا أمل ولا حيـاة ولا شىء •• ماذا عرفت أنت ؟

ــ بعض هذا يا سهير •• بعض هذا •• كلانا شقى ببيته •

ــ وماذا تريدنا أن نفعل ؟

ــ أما أنا فبيدى أن أفعل ، فهل تستطيعين أنت ؟

ــ ماذا •• إلى أى هدف ترمى ؟

ــ أنا فى حياة لا أطيق المضى فيها •

ــ وأنا فى حياة لم أطق العيش فيها •

ــ سليمان سهل •

ــ لا •• ليس سهلا •

ــ تعرفين ضعفه •

ــ المـال والبنون •

ــ والبنـون ؟ !

ــ إذا كانوا لا يكلفون مالا •

ــ قولى له لا أحبك •

ــ إنه يعرف •

ــ قولى له لا أطيق العيش معك •

ــ أتظننى أستطيع ؟

ــ ألا يستطيع حبك لى وكرهك له ؟

ــ لا أدرى •

ــ اجعلى له من المـال ما يريد •

ــ يرضى •

ــ إذن •

ــ وأنت ؟

— أطلق زوجتى ..

— إذن .

— فالليلة تخبرين زوجك .

— أدع لى أن أستطيع .

— حبنا أقوى من الخوف ومن الاشفاق .

— أطلبنى غدا فى التليفون .

— فإلى الغـــد .

وقامت سهير إلى القصر ، وظل وصفى فى مكانه ينتظر القـــارب ، وهو شارد الذهن حيران اللب ، يجمع أمره على أمر ويخشى عواقبه فيمحو عنه الخشية حب جامح وملالة من حياة يقطعها وأمله فى جديد من الحيـــاة .

ويصل وصفى إلى منزله ، فيجد البيت خاليا .. ماذا ؟ وكأنمـــا خشى أن كون زوجته قد أدركت ماكان من أمره . ثم ما يلبث أن يعرف أن أم زوجته تعـــانى أزمة مريرة ، فـــلم تجد زوجته بدا من السفر دون اذنه . فقد أدركت من ارساله للسيارة أنه سيطول به الســـهر خارج المنزل ، فركبت السيارة ، وسافرت لم تنتظر .

خلا به البيت .. انقطعت الرتابة التى كان يشـــكوها .. طابت نفسه بعض الحين بفراغ البيت .. إنه يستطيع أن يفكر .. وهـــل يحتـــاج إلى تفكير .. لقد اســـتقر إلى الرأى .. ولكن .. ولكنى مشوق لجعفر .. بل إننى أريد أن أرى زوجتى .. لـــماذا ؟ أتحبها .. لا أدرى .. لا تدرى ففيم كل هذا ؟ .. ففيم تريد أن تفصـــل أما عن أولادها .. لقد جنيت عليها فى أول طريقها إلى الحياة ، فجاءت

بهم ٠ وتريد أن تجنى عليها ثانية بالانفصال عنهم من أجل فكرة لا تدرى إن كانت قائمة فى نفسك أم غير قائمة ٠٠ لا أدرى ٠٠ ولكنى أريد أن أرى زوجتى ٠٠ أهى لهو هذه الوشائج التى تقطعها ، وهذه الآمال التى تمزقها ٠٠ أهى عبث أطفال ٠٠ إنها الحياة ٠٠ إنها آمال قوم ، ومستقبل أطفال سيطالعهم غدا بحديث أم تركتهم من أجل رجل آخر ، ومستقبل طفل هو طفلك سيلقاه الزمان وهو مجرد من حنان الأبوة الذى نعمت أنت به والذى صرت بفضله إلى ما صرت ٠ ألا تدرى ٠٠ ألا تدرى ؟

ومد وصفى يده إلى التليفون ، وأدار القرص ، دورة واحدة ، وطلب من الترنك أن يصله بعزبة زوجته ٠

(١٣)

دلفت سهير إلى القصر فوجدت القصر مائجا ، فالخادمات رائحات غاديات فى شغل عنها شاغل ، فمنهن من تحمل زجاجة وتهرول بها ، وأخرى منهن تقف إلى جانب التليفون فى ذعر لا تكف يد لها عن إدارة القرص ، بينما انهمكت اليد الأخرى فى وضع السماعة ورفعها فى حركة آلية ليس فيها من فهم أو عقل •• ووقفت سهير فى البهو حائرة تلاحق كل سائرة ، أو مشغولة بعينيها ذاهلة النظرة ، مفتوحة الفم ، لا تملك أن تضم شفتيها لتكون سؤالا واحدا يشرح لها الجواب عليه هذا الذعر الذى يسود القصر •

واستطاعت إحدى الخدم أخيرا أن تجمع شتات نفسها وتراها وكأنما انتشلت الخادمة من وهدة عميقة الحيرة :

— ستى •
— خير يا نبوية !
— سيدى أحمد يا ستى •

ولم تزد الفتاة ، وما كانت بحاجة إلى زيادة ، فقد اندفعت سهير فى ثورة مجنونة إلى حجرة ولدها :

— ابنى •• ابنى •

ووجدت ولدها شاحب الوجه ملقى لا حراك به على الفراش ، وقد تفتحت عيناه لا تريان شيئا ، يجتذب أنفاسه وكأنما ينازعه

عليها خصم عنيف قوى الأسر ، فما يكاد صدره يخرج إلا حشرجة مجهودة متقطعة غير مكتملة • وارتمت أمه بجانبه :

ـ أحمد •• مالك يا أحمد ؟

ولو كان أحمد يستطيع نطقا لما كان هذا الذعر الذى انقض على القصر • وقالت الأم :

ـ دكتور •• أين الدكتور ؟

وجاءت الخادمة التى كانت بجانب التليفون وهى تقول لاهثة :

ـ طلبته يا ستى ، سيأتى حالا •

وفزعت الأم إليها :

ـ طلبته ! ألم يذهب أحد إليه •• أين السيارة ؟ •• أين عم دهب •• لماذا لم يذهب إلى أى دكتور فى الجوار ؟ دكتور ؟ •• أما زلتن واقفات ••

وانتبهت الخادمات إلى صراخ سيدتهن ، فتسارعن إلى السلم يدعون عم دهب •

وجلست الأم إلى جانب ولدها •• ولدى •• إياك أن تتركنى •• إنك كل شىء لى •• إنك أنت •• أنت وحدك الذى أحيا له وبه •• ولدى •• إياك أن تتركنى •• إننى الوحيدة بين الأمهات التى منحت وليدها ما منحت •• لقد تلقى الأخريات أولادهن وحب آبائهم يكلأ الجميع •• أما أنا فعانيت من أجلك يوم حملتك ، وعانيت من أجلك سنوات طوالا عشتها إلى جانب أبيك من أجلك •• لم اترك أباك فى كل هذه السنين من أجلك أنت •• حياتى الماضية أنت والمستقبل وما بعد الممات ، فالى أين تاركى •• أحمد •• لولاك

لكنت تركت أباك من زمن بعيد .. أحمد .. أنت لا تدرى ما أنت لى .
الأمهات حياتهن موزعة بين أزواجهن وأولادهن .. أما أنا .. أنا
وحدى بين كل الأمهات التى تتمثل حياتها فى ولديها برغم أبيهما ..
أنت جهادى لنفسى السنوات الطوال ،أ نت الشيء الذى قلبت من
أجله أبهى سنوات حياتى إلى أنكدها ، إن أحب الأمهات أبناءهن
لأنهم أبناؤهن ، فأنا أحبك أنت وأختك ، لأنكما أبنائى ، ولأننى
قاسيت من أجلكما المرارة والبؤس والشقاء والألم ، قاسيت أن أحيا
مع زوج أكرهه وأبذل له نفسى ، أحتقره ولا أتركه أمقته وأظل إلى
جانبه زوجه .. أحمد .. لى فيك ولى عليك حق الأمومة ، ولى فيك
ولى عليك حق الشقاء الذى ألقاه ، والشباب الذى يمر والسنين
التى مضت .. سعادة الأمهات بأبنائهن مجرد سعادة ، أما أنت
فجزائى عن الشقاء بأبيك ، فأنت كل شيء .. فإن يكن لحياتى
معنى .. فأنت .. أنت وأختك .. أحمد .. لا تتركنى .. ارحمنى
يا رب .. دع هذا الطفل لى يا رب .. فما الحياة بغيره ..
أرحم يا رب .

ويدخل سليمان هائما :

ــ خير ماذا به يا سهير ؟

ــ سليمان .. ماذا تنتظر ؟ .. دكتور يا سليمان .. أسرع .

وخرج سليمان من فوره حائرا لا يدرى أين يذهب ، لم يعد
يذكر طبيبا واحدا ممن يعرفهم ، فهو يذهب إلى التليفون ، ثم يبحث
عن المذكرة التى بها الأرقام التى يحتاجون إليها ، ثم يترك هذا
جميعه ويهرول إلى السلم ، فما إن يبلغ منتصفه حتى يصعد مرة
أخرى إلى التليفون ، ثم يتركه ويهم بأن يقصد إلى حجرة ولده ،

متخيلا أنه قـد صنع شيئا ، وأهما أن طفله قد أفاد شيئا من هذه الهرولة التى ذرع بها البهو والسلم ، وقبـل أن يصل إلى الحجرة يسمع صوتا من أسفل يقول •

ــ الدكتور •• جاء الدكتور •

ويسرع سليمان إلى السلم ، ويلقى الطبيب فيرجـوه أن يسرع ولا يجد الطبيب فرصة يسأل فيها عما دعى له ، وإنما هـو يقـاد إلى حجرة أحمد • ويفتح الطبيب حقيبته ويخرج حقنة صغيرة يملؤها دواء ، ثم ما يلبث أن يغرس ابرتها فى فخذ الطفل ، ثم يوالى اسعافاته وهو لا يكف عن ترديد :

ــ خير يا ستى إن شاء الله •• بسيطة إن شـاء الله ، لا شيء يا ستى •• مجرد إغماء بسيط •

وما لبثت أنفاس الطفل أن هدأت شيئا فشيئا ، حتى انتظمت ، وغمغم :

ــ نينـة •

وصاحت الأم :

ــ أحمد •• نعم يا أحمد •• أنا هنا •• الحمد لله على سلامتك يا أحمـد •

ونام الطفـل هادىء الأنفـاس ، وطلب الطـبيب أن يتركـوه ليستريح ، ولكن الأم أصرت على البقـاء ، وخـرج سليمان مـع الطبيب •

وما إن خلت الحجـرة بالأم وطفلهـا ، حتى ألقت رأسها على سرير الطفل ، وانطلقت تبكى فى نشـيج يمنعه خوفة الأم من إيقاظ ابنها أن يعلو ، وإنما هـو بكاء حار مكتم النشيج ، دفاق العبرات ،

ولكنها تمالكت أمر نفســها فجأة ، وقامت إلى البهـو ، فأحضرت التليفون ، وعلى الضوء الخافت أدارت القرص ، ولم تلبث أن وضعت السماعة ، فقــد حمل إليها أزيز الرقم مشــغولا عن طلبهـا ، وبعد دقائق رفعت السماعة مرة أخرى ، وأدارت القرص نفس الدورات ولم تلبث أن قالت :

— وصفى •

— نعم •

— أأستطيع أن أكلمك ؟

— أنا وحدى •

— لا يمكن يا وصفى •• لا أستطيع •

— نعم أعرف •

— فلتكن صداقة •

— صداقة عميقة ودائمة يا سهير •

— إلى اللقــاء يا وصفى •

— إلى اللقاء يا سهير •

(١٤)

كانت الصلاة جماعة فى المسجد الكبير بقرية العواسجة ، ولم يكن وراء الشيخ إلا قلة من الفلاحين ، وقفوا وماء الوضوء يقطر من وجوههم ، وكان يتقدم هؤلاء الفلاحين نفر من الطلبة ارتدوا الجلاليب الأفرنجية ، وغطوا رؤوسهم بالمناديل ، وألقوا بعيونهم الى الأرض فى تخشع • وكان ضوء المصباح المرتعش ينسكب على وجه جامد النأمات ، مسبل العينين ، تقوم من تحته بنية قوية التركيب ، ثبتة القوام ، وقد ارتدى صاحبه جلبابا أبيض موشعا بالخطوط الحمراء ، وأحكم على رأسه منديلا كان ناسجه يريد له اللون الأبيض لونا ، ولكن عدا على ارادته أيد كثيرة العبث قليلة العناية نزرة النظافة ، ذلك هو السيد أفندى عبد البديع النجل الأكبر لعبد البديع أفندى الدكر وزوجه محبوبة • حصل فى عامه هذا على شهادة التوجيهية ، وعاد الى القرية ليهنأ بين أمه وأبيه وآله بلذة النجاح •

انتهت الصلاة ، وخرج بعض المصلين من الجامع ، وبقى فيه السيد والتلاميذ الآخرون وقلة ضئيلة من الفلاحين لم يتركوا الجامع ، بل ان منهم من استقر على الجلسة التى كان يقرأ بها التحيات ، ومنهم من أخرج قدمه من تحت جسمه وأدارها ، فأصبحت مثنية أمامه ، ثم ألقى ذقنه الى يده ومد بصره فى تشوف الى السيد • واتخذ السيد جلسة مستقرة بعد أن أدار ظهره الى

القبلة وراح يبسمل ويحوقل متهيأ لالقاء درسه لدينى ، وقد خلا له الجو ، وانفرد فى الجامع بالفلاحين ، ومن يصغرونه من الطلبة ، منتهزا فرصة جهلهم جميعا ، وفرصة علمه الضئيل الملىء بالخزعبلات والأحاجى • وراح الفلاحون — قبل أن يبدأ — يمصون شفاههم ، كأنهم يختبرون الصوت الذى يصدر عنها ، أشبه ما يكونون بأفراد تخت موسيقى يجربون آلاتهم قبل البدء فى عزف الدور الذى سيعزفون •

وبين أصوات الشفاه يمصها الفلاحون ، وأسئلة صغار الطلبة يطلقونها لاثبات وجودهم ، بدأ الدرس وانتهى •

وخرج سيد منتفخ الأوداج ، مزهوا أن ألقى الدرس على هؤلاء القوم المساكين ، وزاده كبرا وزهوا اثنان من مريديه لحقا به ، وراحا يسألانه فى اكبار واجلال :

— منذ متى يا سيد وأنت منضم الى الشعبة الرئيسية فى المديرية ؟

— من زمان •

— ولم تخبرنا يا أخى ونحن معك كل يوم ؟

— لا بد أن أثق بكما أولا لأخبركما •

— وهل لك فئة خاصة تتفرع من هذه الشعبة ؟

— نعم •

— وما اسمها ؟ •• أهى الأسرة التى يقولون عنها ؟

— هذا سر •

— ومن رئيسها ؟

— لا أستطيع أن أقول •• هذا أيضا سر لا أستطيع البوح به ••

ــ لا بد أنك أنت الرئيس ..

وعلى خيــوط القمــر الزرقاء رأى الصاحبان شبح ابتسامة تلوح مخايلها على شفاه السيد ، فصاح أحدهما قائلا :.

ــ نعم أنه هو .. انه هو يا حسين .

وقال السيد نافيا فى فى لهجة تزيد ظن الصاحبين اثباتا :

ــ لا يا شيخ .. لا يا محمد .. هــذه أسرار يا رجل .. أستغفر اللــه العظيم .

وسأل حسين :

ــ ولكنك يا سيد لا لحية لك .

وقال السيد مغيظا :

ــ أنا بلا لحية .. ألا ترى لحيتى ؟

وقال حسين فى بلاهة :

ــ لا ..

وقال السيد فى حــدة :

ــ هات يدك .. هات .

واجتذب يد حسين المسكين وحك بها ذقنه فقال ذاهلا :

ــ آه صحيح !

ــ لقــد بدأت فى اطلاقها قريبا .

وكانت يــد حسين لا تزال على لحية السيد حين انغــرز كــوع محمد فى بطنه ، وهو يهمس :

ــ أنظــر .

ونظـــر حسين الى حيث يشير محمد فرآها ، فاذا هو بغير وعى منه • يضرب محمد بكوعه ويضع سبابته أمام شفتيه ويهمس :

ـــ أسكت •• أجننت ؟

وكانت أنظار ســيد كلهـــا ناشبة فى الفتاة التى تمر منهـــم على مقـــربة ، تمشى رهوا فى خفـــة واصرار ، ولكن أذنه كانت صاغيـــة الى همس صاحبيه ، فهو يقـــول :

ـــ ماذا يا محمد •• ؟

وسارع حسين قائلا فى لعثمة :

ـــ لا شىء •• لا شىء يا سيد •• لا شىء واللــــه •

فقـــال ســـيد :

ـــ يا أخى أنا لا أسألك •• أنا أسأل محمد •

وقبـــل أن يلفظ حسين مجموعة أخرى من اللاشىء ، قال محمد فى صوت تبين فيـــه الرغبة اللاهبة فى أن يلقى ما يزدحم فى نفســـه من أسرار :

ـــ لا •• لا شىء •

وقال ســـيد :

ـــ وأنت أيضـــا تقـــول لا شىء •• يخيـــل الى أن هنـــاك علاقة بين ناعسة وبين حسين •

واذا محمد يقول فى فرحة غامرة :

ـــ شفت يا عم •• أنا لم أقل له •• عرفها هو وحده •

وقال ســـيد :

ـــ أى علاقة بينكما يا حسين ؟

وتلعثم حسين ، بينما استطرد سيد قائلا :

ــ قل يا أخى •

وازدادت لعثمة حسين ، واشتعلت رغبة السيد فى أن يعرف تفاصيل هذه العلاقة •• كان يريد أن يعرف تفصيل كل وشيجة من هذه العلاقة ، ولم يجد غير مركزه الدينى يركبه ، ليصل الى ما يريد ، قال السيد ضائقا :

ــ قل يا أخى •• فكل انسان عرضة للخطأ ، ولكن الاصرار على الخطأ هو الشرك والكفران •

قال حسين فى تردد :

ــ لا شىء يا سيد •• لا شىء الا ••

ــ هيه •• الا ماذا ؟

ــ بوسة •

وقال سيد وقد اتسعت عيناه ، وجف ريقه ، وسرت فى دمائه نشوة ثائرة :

ــ بوسة ؟ •• أين ؟

وتمالك حسين أمر نفسه بعض الشىء وهو يقول :

ــ فى خدها •

ــ لا ! أنا أقصد أين كنتما حينذاك ؟

ــ أتعتقد ان لمكان وجودنا شأنا كبيرا من الناحية الدينية ؟

وآن للسيد أن يتلعثم بعض الشىء وهو يقول :

ــ لا •• لا طبعا •• وانما •• أحب أن أعرف المكان ، وسأخبرك لماذا •

ــ فى الذرة •

وقال محمد :

ــ وقعت يا بطل •

وصاح سيد فى لهجة ظافرة :

ــ آه •• أرأيته ! لـم تـكن قبلة على الخد اذن •• لقـد كانت قبلة فى الفم •• فى صميم الفم يا أستاذ •• الذرة لا يذهب اليها من يريد قبلة على الخد •• هيـه ما قولك ؟ !

ــ واللـه يا سـيد مـرة واحـدة فقط ، وتبت بعـدها ورجعت الى اللـه •

ــ هـذا حرام يا حسين •• لا بد أن تتوب الى اللـه •• وترجع الى الله •• لا حول ولا قوة الا بالله •• انا لله وانا اليه راجعون •• لـماذا يا حسين •• لـماذا •• وماذا فعلت معها ؟

ــ ماذا ؟

ــ مـاذا فعلته معهـا • • لعلك ان شرحت لى ، اسـتطعت أن أطمأنك انك لم ترتـكب الا اللمم ، وحسابه عنـد اللـه يسير •• اشرح لى يا حسين •• اشرح لى بالتفصيل •

وراح حسين يشرح ، وكلما أغفـل هنـة نبهـه اليهـا السيد فى يقظة صاحية ، لا ينى عن القـول كلمـا توقف حسين ليلتقط أنفاسه « يا سـلام » ودون أن يحس حسـين يجيبه فى ذهـول نشـوان « واللـه » •

وأتم حسـين القصة وصمت ، وظل ناظـرا الى السيد ، منتظرا منه أن يقول شيئا ، وظل السيد ناظرا الى حسين ، متوهما أو متمنيا

أن تـكون للقصة بقية ، وظل الاثنان يحملق كل منهما الى الآخـر فترة لم يدريا أطالت أم قصرت ، حتى تنبـه حسين أخـيرا وتلفت حـوله :

ـ الله •• محمد مشى •• أنا أعرف أين ذهب •• مسكين سيمرض من كثرة اختلائه بنفسه •

وقال السيد :

ـ مـاذا ؟

ـ لا شيء •

ـ هيـه •• وبعـد ؟

ـ وبعـد فيم ؟

ـ فى حكايتك •

ـ حكايتى ! ؟ حكايتى انتهت من زمان •

ـ وكم دفعت لهـا ؟

ـ ربع جنيـه •

وهمس السيد لنفسه : ربع جنيه بنت الكلب •• النهاية •

ثم عاد الى حسين :

ـ هيـه •• وبعـد ؟

ـ وبعـد فيم ؟

ـ فى حكايتك •

ـ أقول لك انتهت •

ـ انتهت ؟

ـ نعـم •

ولـكن السيد لم يقتنع بهـذه الاجابة ، بل انه راح يسأل مـرة

أخرى عن تفاصيل معينـــة ، فى اهتمام شـــديد ، وانصات واع الى أن استعاد القصة جميعها على طريقة سقراط من أسئلة وأجـوبة ..
حتى اذا فرغت أسئلته ، ظــل محملقا فى وجـــه حسين ، وظل حسين محملقا فى وجهه هنيهة هو الآخر ، ثم قال :

ــ هيـــه .

وقال السيد وهو فى غمرة من الأفكار :

ــ هيــه ماذا ؟

ــ أحرام ما فعلت ؟

وانتفض السيد متـــذكرا السبب الذى أبـــداه ليستدرج القصـــة الى المخـــرج ..

ــ آه .. آه .. حرام طبعا .. حرام يا بنى واللـــه .. حرام .. ولكن اللـــه غفور رحيم .. اذهب الى البيت وصـــل .. وارج اللـــه أن يغفـــر لك .

وانصرف حسين خجلا يتعثر فى مشيته ، مزمعـــا فى نفســـه توبة لا يعـــود بعـــدها الى هـــذا الاثم .

واقترب السيد من الطـــريق الذى عبرته ناعسة ، وأقام مستخفيا يرصد الطريق من حيث ذهبت ، فهـــو يعلم أنهـــا عائدة ، فما كانت وجهتها الى بيتها ، ولا بد لهـــا أن تعود وانه لمنتظر .

كانت ناعسة فتـــاة ريانة العـــود ، مليحة القسمات ، وكان أبوها قد زوجها الى رجل عجوز ، طامعا أن يعوض الرجل ابنته عن شبابه بالمـــال الوفير . ولكن الرجل خيب ظن حميه ، فهـــو وان ملك مالا ،

الا أنه لا يملك الجرأة على اخراج المـال ، ففقدت ناعسة فى زوجها الحسنيين من شباب ومال • ولم تجد ناعسة خيرا من بيـع محاسنها لتكسب بذلك كل ما خسرته فى زواجها •

ولم يعـرف سـيد هـذه التجارة التى افتتحتها ناعسة الا حين عاد الى القرية ، وقـد تقبل هـذه الأنباء فى تأفف ظاهر ، وفى رغبة مختفية أن يكون زبونا لهـا • ولـكن عاقه عن ذلك أمران : أولهمـا تظاهره بالتقى ، تظاهرا يسد عليـه المسالك أو يـكاد ، وثانيهما قلة المـال فى يده ، ولو كانت ناعسة قـد بدأت تجارتها قبـل أن ينحاز سيد الى ناحية الدين ، لأصبح شأنه غير هـذا الشأن ، ولاحتـال على المـال ، وبلغ به من ناعسة ما يريد ، ولـكنها تأخرت ، واتخـذ هو مظهره هذا الذى يضيق به غاية الضيق • فما كان مؤمنا بما يقول أو يفعل ، وانما انضم الى فئة الدين حين أعجزته الحيلة أن ينضم الى فئـة الفجرة ، وان كان الى هـذه الفئة الثانية أشد ميلا وأكثر شـوقا • على أن هـذا لم يفت فى عضده ، فقـد وعد نفسه خيرا ، وطلب اليها الصبر الى أن تحين فرصة فى طريق خال •

وها هو ذا الطريق خلا ، وناعسة تقترب منـه •

ــ مساء الخير يا ناعسة •

ــ مساء الخير يا سى سيد أفنـدى •

ــ الى أين ؟

ــ الى البيت •

ــ وفيم العجلة ؟

ــ تأخرت •

ـــ أريدك فى كلمتين •

ـــ وأى كلام بيننا يا شيخ ســـيد •

ـــ كلام مهم واللـــه •

ـــ تفضل • قله •

ـــ لا •• لا ينفع الكلام هكذا •

ـــ وما الذى ينفـــع ؟

ـــ تعـــالى •

ـــ الى أين ؟

ـــ الى الذرة •

ـــ اللـــه •• شيخ سيد !

ـــ ماذا ؟

ـــ شيخ سيد •• حتى أنت يا شيخ سيد ؟

ـــ لا والله ، وانما كنت أريد أن أكلمك •

ـــ تـــكلم •• المكان الذين نحن فيـــه يصلح للـــكلام ، أما الذرة يا شـــيخ سيد ••

ـــ شيخ ســـيد •• شيخ ســـيد •• هـــل شفتنى ألبس العمامة والجبـــة ؟

ـــ لا ، ولكن شفتك فى الوعظ يا شيخ سيد !!

ـــ يا شيخة •• تعالى •

ـــ عيب يا شيخ •

ـــ العيب ما فعلته مـــع حسين •

ـــ أقال لك ؟

ـــ نعـــم •

ـــ طيب •• هل معك المبلغ ؟

ـــ والله ليس حاضرا معى •• أعطيك غـــدا •

ـــ غـــدا لا ينفع يا شيـ •• يا سيد أفندى •• كيف أستطيع أن أطالبك غـــدا •• الدفع مقدما يا سيد أفندى •

ـــ وان كنت مفلسا ؟

ـــ فلا أعطلك •

ـــ ولكنى أريد أن تعطلينى •

ـــ هات كيلة ذرة •

ـــ كيلة ؟ !

ـــ نعم •• كيلة •

ـــ فانتظرينى حتى أحضرها •

ـــ أين ؟

ـــ فى ذرة أبى •• على طرف الغيط من ناحية الترعة •

ـــ لا تتأخر •

ـــ حالا •

وانصرف سـيد الى بيتهم مسرع الخطو ، فمـــا ان بلغـــه حتى خلع حذاءه وتسلل على أطـــراف أصابعه الى الحجرة التى يعلم أن بهـــا الذرة ، وملأ طرف جلبابه ذرة تزيد على الكيلة ، فما راجعهـــا فى الكمية الا حبـــا فى المراجعة ، وخرج سيد متلصصا كمـــا دخل ، ونفض المكان بعينيه ، وخيل اليه أنه لم ير أحـــدا ، ومشى سبيله الى المكان ، وما أن بلغه حتى همس :

ـــ ناعسة •• ناعسة أين أ ••

ولم يكمل الكلمة ، فقــد انصبت على قفــاه يد حديدية صاحبها صوت أبيه مغيظا صارخا فى حنق ، دون أن ترتفع نبراته :

ـــ أهى ناعسة يا ابن الكلب •• وعامل لى شيخا تتقصك العمامة يا ضال يا زانى يا ابن الـكلب •• قدامى الى البيت •• قدامى أنت وذقنك •• واللـــه لتسافرن غــدا الى مصر •

ـــ أبى ؟

ـــ اخرس وامش •• امش •

ـــ انهـــا •• انهـــا ••

ـــ اخرس قلت لك •

ومشى ســيد يتعثر فى خطاه ، ومن ورائه أبوه ، حتى اذا بلغــا البيت قاد الوالــد ولده الى المخـــزن ، وأعاد الذرة الى مــكانها ، ولم يستطع أن ينتظر حتى يخــرجا من الحجرة ، بل هو يقفل الباب ويحكم رتاجه ، ويمسك بتلابيب ولده ، ويخلع النعل من قدمه ••

(١٥)

كان أحمد جالسا الى أمه فى احـــدى غرف القصر حين دخل اليهما حسام الذى حيا خالته وقبلها ثم جلس •• وقالت سهير :

ـــ كيف حال سميحة وأختك نوال ؟

ـــ بخير والحمد للـــه •

ـــ لقـــد قالت لى أمك اليوم انها ستأتى •

ـــ والله لا أعرف ، فأنا لم أقل لها انى قادم اليكم •

وسكتت سهير ، وران الصمت عليهـــم بعض الحـــين ، ثـــم قطعه حسام متسائلا ، وهو يظهر عدم الاهتمام ، فيخيب تظاهره :

ـــ أين هنـــاء اذن ؟

وقالت الأم :

ـــ يا ســـيد صممت أن تشترى هى لأخيهـــا ما يلزمه من أقمشة الحلل والقمصان ليدخل بهـــا الكلية •

ـــ ولـــماذا لم تذهب أنت يا أحمـــد ؟

ـــ يا أخى •• أنا لا تهمنى الأناقة ، ولـــكن نينســـه هى التى تريد أن تشترى لى ثيـــابا جـــديدة ، وقد صممت هنـــاء أن تختار هى الملابس •

وقال حسام :

ـــ وهل نزل معها عمى سليمان ؟

فقال أحمد فى شبه سخرية :

ـــ وما شأن عمك سليمان بهـــذا ؟

فقال حسام متلعثما :

ـــ لا •• لا شىء •• ولكن هناء وحدها ؟

وابتسمت سهير فى فرح وهى تقـــول :

ـــ لا تخش شيئا يا سى حســـام •• لقـــد خرجت فى السيارة مع السائق ، ولن تذهب الا الى محل واحـــد ، وتعـــود فى السيارة •• اطمئن يا حبيبى ، واللـــه لولا مرضى لخرجت معها •

وازدادت لعثمة حسام ، وقد أحس أنه قد كشف خبيئة نفسه :

ـــ لا •• لا شىء •• لا شىء ولكن ••

وحينئذ جاء الخادم ليعلن الى أحمد مجىء فوزى عبـــد المجيد ، ووجد حسام طريقا آخر يسلك فيـــه بحديث جديد ، فقال :

ـــ يا أخى فوزى •• هـــذا لا أطيقه أبدا •

فقال أحمـــد :

ـــ ولمـــاذا يا سيدى •• ألأنه يقول الحق ؟

ـــ أكان حقا هذا النقد الذى راح يكيله لعمى وصفى باشـــا •

فقالت سهير فى اهتمام :

ـــ ينتقد وصفى باشـــا •• وأمامك يا أحمـــد ، كيف تسمح له ؟

فقال أحمد فى لعثمة :

ـــ انهـــا مرة واحـــدة ، وقـــد رددته فى خشونة ، وأخبرته أننى لا أحب أن يذكر أمامى عمى وصفى باشا الا بالخير •

وتدخل حسام ثانية قائلا :

ــ ليس هــذا فقط ، ولــكنه كثــير الانتقاد للأغنيــاء ، وكثــير الكلام عن الغنى ، فهــو لا ينسى مرة أن يقــول : ان الغنى لا بد أن تصاحبه الميوعة والجمود ، وعــدم الاحساس بالفقراء ، وكدحهــم وشقائهــم •

وسارع أحمد قائلا :

ــ أليس هــذا صحيحا ؟

ودهشت الأم من كلام أحمــد ، فسارعت تقــول :

ــ لا يقول هــذا الا حاقد •• انما الغنى والفقر بيد الله ، والغنى رجل كد واجتهد حتى أصبح غنيا •

فقــال أحمد :

ــ أنا لا أرى أبى قــد كد واجتهد •

وأرتج على سهير هنيهة ، ثم قالت :

ــ بل انك تعلم أن أباك قــد نال دبلوم الهندسة ••

فقاطعها أحمد قائلا فى سخرية خبيثة :

ــ من أوربا •

وأحسست الأم تهكم الابن ، ولكنها تجاهلته ، وقالت :

ــ وهل ترى أباك غنيــا ؟

ــ هو غنى بلا شك •• انه يعيش عيشة الأغنياء •

ــ أنت تعلم أنه ليس غنيــا •

ــ اذن فأنت الغنية •• كم اجتهدت أنت وكم كدحت ؟

ـــ أبى كد واجتهد ، حتى يوفر لى السعادة •

ـــ أبوك اجتهد ، فلماذا تستفيدين أنت ؟

ـــ انه لولاى ما اجتهد •• أى غريبة فى ذلك ، انهـا سنة الكون الأبناء يخلقون الطموح فى نفـوس الآباء ، انك غـدا حـين تنجب أطفالا ستعلم كيف يكون الطموح ، وحينئذ تسعى الى أن تجعـل أولادك أغنى الأولاد • تلك يا بنى حكمة اللـه وسنته ، وبهـا تدور عجلة الحياة •

ـــ نعم أعرف •• فكلما أريد لنـا أن نسكت فلا نفكر ذكر الله •• فلماذا لا يعطل اللـه تفكيرنا حتى لا نفكر فى عـدله وحكمته وسنته وكل هذه الأشياء التى تبدو لنا ، وغيوم الشك تغشاها •

وصاح حسام :

ـــ رأيت يا خالتى هذه أقوال فوزى •

فقال أحمـد :

ـــ وانهـا حـق •

وأصبح وجه الأم باسرا قلقـا :

ـــ ما هـذا الكلام يا أحمـد •• ما هـذا الذى تقـول ؟

ـــ رأيى •

ـــ لا تظن أنك بهـذا الرأى تبـدأ طريقا جـديدا •• انها طريق سبقك فيها الكثيرون ، وعادوا عن رأيهم •

ـــ انهـم سجناء •• جبناء لا يقوون على فك قيودهم •• انهـم سجناء العادة والوهم والتقاليد ، لو أمعنوا التفكير وفسكوا قيودهم لمـا عادوا • انهم القطيع •

ورأى حسام ان النقاش سحتدم ، ورأى وجـــه خالته يحتقن ، وخشى أن تصاب بالنوبة القلبية التى تعاودها ، فسارع قائلا :

ــ قم •• قم يا عبقرى انزل الى صاحبك العبقرى الآخر ••

وفهمت سهـــير ما أراد اليـــه ابن أختهـــا ، فســـكت مذعنـــة ، فما كانت تطيق أن تغضب ابنهـــا ، وقال أحمد :

ــ وأنت •• ألا تنزل معى ؟

ــ نعم سأنزل معك ، وأمرى الى اللـــه •

وصاحت سهير بالخادمة :

ــ يا نبوية •• هات سجادة الصلاة •

ونزل الشابان ، وأقامت سهـــير الصـــلاة • وبينما هى تصلى دق جرس التليفون وأجابت نبوية فسمعتها سهير وهى تقول :

ــ لا يا سعادة الباشا •• انه ليس هنـــا •

ثم سمعتها تقـــول :

ــ انهـــا تصلى •

ثم قالت :

ــ لا •• لن تتأخـــر •

وتركت السماعة الى جانب التليفـــون ، وسرعان ما أنهت سهـــير الصلاة ، وانتقلت الى التليفون ليقول لهـــا وصفى :

ــ أين سليمان ؟

ــ خـــرج •

ــ أنا فى البيت ، بمجرد مجيئه أخبريه انى منتظره •

ـــ هل حصل شيء يا وصفى ؟

ـــ لا أبدا •• ولكن أريد أن أراه فى مسألة تهمه •

ـــ طيب •

وبــدت هنــاء صاعدة من السلم ، حتى اذا بلغت مجلس أمهــا رأت على شفتيها مخايل ابتسامة يحيط بهــا شيء من الفرح ، فقالت لأمهــا :

ـــ خير •• ما هــذه الابتسامة ؟

ـــ لا •• لا شيء ، ولــكن ابن خالتــك حسام كان هنــا ، وزعل لأنك خرجت وحــدك •

فتجهمت هنــاء قائلة :

ـــ وما شأنه هــو ؟

ـــ شأنه •• ان له شأنا ليس لأحد •• انه يحبك •

ـــ وأنا أحبــه أيضا •• أحبه كما أحب أحمد •• لقــد ربى معى ولا أستطيع أن أنظر له الا كأخ •

فقالت الأم فى جــد :

ـــ اسمعى يا هنــاء •• مسألة الأخوة هذه عذر فقط ••

ثم تنهدت من أعماق ذكرياتها ، وقالت :

ـــ من قال ان القــريب لا يحب • هنــاء •• هــذا عــذر فقط فاذكرى لى الحقيقة •

ـــ الحقيقة انى غير معجبة به ••

ـــ ولــاذا ؟ انه شاب غنى متقدم فى دروسه •

ـــ عقليته يا نينا •

ـــ مالهــا ؟ !

ـــ عادية •• انسان عادى جدا •

ـــ ألا يشفع له غنــاه ؟

ـــ على العكس •• أنا أريد انسانا فقيرا ، يغنى بعمله واجتهاده ونكبر معـا •

ـــ هذا هراء يا بنتى •• فأنت غنية ، وإذا تزوجت فقيرا ، فسوف يركن الى غنائك ، ولا يسعى للغنى •

ـــ يا نينـا لا أستطيع أن أفكر فيه كزوج •• انه ابن خالتى مثل أخى تماما •

ـــ عدنا الى هـذا •• وأنا ألست متزوجة من ابن عمى ؟

وترددت هنـاء هنيهـة ، ونظـرت الى حيث لا تلتقى عينـاها بعينى أمهـا :

ـــ وهل أنت سعيدة يا نينـا ؟

وأرتج على سهير ، فمـا تدرى بمـاذا تجيب ابنتها ، وقبـل أن تصوغ جوابا ، سمعت أقدام سليمان صاعدة على السلم فنادت :

ـــ سليمان •

ـــ نعـم •

ـــ وصفى منتظرك فى بيته ، ويريدك أن تذهب اليـه الآن •

ـــ الآن ؟

ـــ نعـم •

وعاد سليمان طريقـه الى الباب الخارجى ، وما كاد يتركه حـتى دخل البيت عبد البديع ووراءه السيد حاملا حقائبه •

وأرسل عبد البـديع الى سهـير يستأذنها أن يلقـاها فأذنت ، وصعد اليهـا ينبئها أنه جاء بسيد ليقيم لديهم ، فرحبت به وطلبت الى عم دهب أن يعـد حجرة للسيد ، وينصرف عبـد البديع داعيـا لسهير وأولادها بطـول العمر والرفاهيـة ، ولا ينسى عبـد البديع ألا يدعو لسليمان بأى خير ، فما كان يرجو له خيرا •

(١٦)

كان وصفى جالسا ف بيتـــه ثائر الأعصاب يفـــكر ف هـــذا الأمر الذى لقيـــه به وزير الأشغال ف يومه هـــذا •• أى مخجلة تلك التى يطالعه بها أقاربه •• وأى قريب •• انه زوج سهير ، لا يطيق وصفى أن يروع حيـــاة سهير وأولادها بأكثر مما روعهـــا •• انه يشعر أنه المسئول عن هـــذا الزواج الذى ألقيت اليـــه سهير •

ولم يشأ جعفر أن يترك أباه ف زحمة من ضيقه هـــذا ، بـــل هـــو يدخل اليـــه يطلب بعض المـــال ليشترى كتبا جديدة ظهرت ، وقـــد تعود وصفى ألا يرد لابنـــه طلبا مثل هـــذا ، ولكنه ف ضيقه هـــذا يوشك ألا يحفل أمر ابنـــه ، ثم ما يلبث أن يعطيه ما طلب ، ويخرج جعفر ، وما هى الا بعض دقائق حتى يدخل سليمان :

ــ خير يا باشا ؟

ــ أى خير يا سى سليمان ؟

ــ ماذا •• ماذا حصل ؟

ــ يا سليمان أنت تعلم كـــم جاهـــدت من أجلك ، حـــتى تصـــل إلى مركزك هـــذا •

ــ نعـــم أعلم •

ــ أيليق بك بعـــد هـــذا أن تلوث سمعتنا ، ونحن نعتمـــد على الشرف ف حياتنا ، ونحارب أعـــداءنا بنزاهتنا ، ماذا يقـــول الناس عنـــا •• ؟

وأحس سليمان أن وصفى عـرف ما ارتـكبه ، وأوشك أن يمارى الحق . ولكنه عـدل عن ذاك وارتأى أن يستمر فى تغابيه :

ــ ماذا ؟

ــ احسان بك عبد الفتاح •

وأرتج على سليمان لحظة ، ثم قال :

ــ ما شأنه ؟

ــ ماذا جرى يا سليمان ؟ •• أتراني فارغا لهـذا التغابى ؟ •• لقـد كنت عند وزير الأشغال الآن وهو الذى أخبرنى ••

ــ أخبرك بماذا ؟

ــ بأنك أخـذت رشوة من احسان •

ــ أنا ؟ •• أنا ؟

ــ نعـم أنت •

ــ لـماذا ؟

ــ لتحفر له ترعة فى أرضه التى اشتراها حديثا بعقد عـرفى •

ــ انه لم يقـل انها رشـوة •

ــ فماذا قال ؟ •• هـدية ! ؟

ــ أبدا ، وانما قال انه يتبرع بهـا •

وقال وصفى ساخرا :

ــ يتبرع بهـا •• ! ؟ لـماذا •• ؟ هل أصبحت جمعية خيرية على آخر الزمن ؟

ــ لا ولـكن كنت أفـكر أن أشترك فى جمعيـة العميان ، وكان الحديث معى فى ذلك الشأن يجرى أمام احسان بك فتبرع بالمبلغ •

ـ بخمسمائة جنيه ؟ ! أهـذا تبرع ؟ .. انها رشوة يا باشمهندس رشـوة ..

وحاول سليمان أن يفتعل ثورة :

ـ لا .. أنا لا أقبـل الرشوة .. لا أبدا ..

وقطع وصفى افتعاله فى جمـود :

ـ اسمع .. هات الفلوس .

وامتقـع وجه سليمان :

ـ ماذا ؟

ـ أقول هات المبلغ .

ـ ولكنه ليس معى .

ـ انه معى أنا .

ـ لا أفهـم .

ـ لقـد دعـوت احسان ، وهو قادم الآن ، وقـد أعـددت له المبلغ ، وسأعطيه له الآن ، فاكتب أنت لى شيكا بالمبلغ .. الآن .

ـ أكتب شيكا ؟ !

ـ نعـم .

ـ ولكن ليس معى دفتر الشيكات .

فقال وصفى فى حزم صارم تمور فيـه ثورة وتهديد :

ـ سليمان اكتب الشيك على ورقة بيضاء .

وفهم سليمان كل المعانى التى تصاحب هـذا الأمر فسارع يكتب الشيك مذعنا ، وما ان فرغ من كتابته ، حتى جاء الخادم يعلن قدوم

احسان بك ، فأذن له وصفى ودخل ، وما كاد يجلس حتى أخرج وصفى من جيبه ظرفا وأعطاه لاحسان قائلا :

خذ هذا .

ــ ما هذا يا باشا ؟

ــ الرشوة التى دفعتها لسليمان .

وتلاقت عيون احسان وسليمان ، ثم أطرق احسان خجلا قائلا :

ــ ولكنها ليست رشوة يا باشا .

ــ اسمع .. اما أن تأخذ المبلغ ، فأعتبر المسألة كأن لم تكن ، وأجعل طلب الترعة الذى تقدمت به يسير فى طريقه الطبيعى بلا عرقلة ولا محاباة ، واما أن ترفض قبوله فأعلم أن الترعة لن تشق أرضك ما دمت أنا على وجه الحياة .

ووضع احسان المبلغ فى جيبه فى تخاذل ، وهو يقول :

ــ أمرك يا باشا .

ــ على ألا تعود الى هذا يا احسان بك .

ــ أمرك يا باشا .

ــ شكرا .

ــ تسمح بالانصراف ؟

ــ لا مانع .

وخرج احسان دون أن يدعوه وصفى ليشرب القهوة ، فقد رأى فيه صورة بشعة تشبه المرأة الداعرة التى تغرى الشباب

بالخطيئة • وحين أراد سليمان أن ينصرف استبقاه وصفى ليقول له :

ــ أتذكر حديثا بيننا منذ سنوات بعيدة •• بعيدة جدا حين جئت لتطلب أول درجة ارتقيتها فى سلك الحكومة •

ونكس سليمان رأسه قائلا :

ــ نعم أذكر •

وقال وصفى فى حزم :

ــ حسنا ، فأنا لا أحب أن أعيد هذا الحديث ثانية ، وبطبيعة الحال لا لزوم أن تعرف سهير شيئا من هذا ، فمرض القلب الذى تعانيه لا يحتمل هذه الأزمات ، قل لها إذا سألتك عما أردتك فيه •• قل لها اننى •• اننى ••

وداخل صوته شىء من السخرية وهو يقول :

ــ قل لها اننى أردت أن أبلغك رضاء الوزير عنك •

وأطرق سليمان ، لأنه لم يعرف أين يولى وجهه ، وقال وهو خارج :

ــ نعم •• نعم هذا ما سأقول •

وخرج •

(١٧)

شهور مضت تليها شهور وأنا هنا حبيس فى هـذا البيت أو القصر أو أى شىء كبير ، لا أملك أنا فيها شيئا إلا هذه الملابس التى أتلقفها من أحمد بك • شهور مضت وتلتها شهور ، وأنا حبيس لا أصنع شيئا إلا أن أجلس مع أحمد بك ومع صديقه ، هـذا المتذاكى الذى لا يكف عن الانتقاد والسخط •• شهور وأنا أرى هنـاء •• هناء هانم تأتى إلينا فى حجرة المكتب ثم تتركنا بعد أن تسمع الحديث الطويل الذى برع فيه السيد الحكيم ، العـالم التافه فوزى عبد المجيـد ؛ ذلك الحديث الذى يلقيه فلا يجد أحدا يرده ، فالجميع به معجب ، وأى جميع ! إنهم أو إنهما أحمـد وهناء ؟ ألا تكفى هنـاء حتى أقـول الجميع ، إنها الجميع لا شك ! إنها كل شىء حين أنا لديهـا لا شىء • وماذا أكون أنا ، وأنا لا أتحدث فى أى موضـوع ، إننى حتى حين حاولت أن أظهر علمى الدينى لقيت من الجميع سخرية وهزؤا ، فمـا الدين عند ثلاثتهم بالأمر الخطير ، الدين جميعه لا يهمهم فى شىء ، فكيف أحادثهم عن أركان الوضوء واقامة الصـلاة وغير ذلك ممـا كنت أنال به فى العواسجة التبجيل والتوقير والاحترام • إن هـذا الفوزى لا يترك مجالا لأحد أن يتكلم إلا إذا جاء جعفر بن وصـفى باشا فهو وحده الذى يقف له بالمرصاد ، ويرده فى عنف حينا وفى لطف أحيانا ، أما حسام فلا شأن له بأى موضوع يتكلم فيه أحـد • كل ما يعرفه أن يظل رانيا إلى هنـاء ، نظرات تحسها هى ، ثم ما تلبث أن تنفضها عن نفسها فى زهو وخيلاء إنها كمة أنظار ، ثم لا تفعل

بعد ذلك شيئا إلا أن تعجب بفوزى عبد المجيد وحديثه الطويل عن الغنى والفقــر والظلم والعــدل والديمقراطية والاشتراكية •• أين يجد هــذا الكلام •

وأنا ماذا ألم بى •• لمــاذا لا أخرج •• لقد ضرب على عم دهب حصارا عنيفا ، فأنا لا أخــرج الا وهو على علم بكل مكان أقصــد إليه ، وأنا لا أنال من النقود إلا صبابة لا تغنى ، وكنت فرحا أننى آت إلى مصر أعوض فيهــا ما فوته على أبى حين أمسك بى عنــد الذرة ، فاذا بيده التى انصبت على قفاى لا تزال تلاحقنى هنا بقبض المــال عنى ، وبعيون عم دهب الرواصد على • وأحببت هذا الحبس أول الأمر ، فرحان أن أكون إلى جانب هناء ، فاذا هناء لا تحس بى ، وكيف لها أن تحس ، وأنا مهما أكن طالبا فى الجامعة فلن أزيد على ابن عبد البديع ، فان احترمتنى فأنا ابن عبد البديع أفندى ولا زيادة• شهور مضت وتلتها شهور ، أفأظل هنــا قابعا إلى فتاة ما أظن أنها ستحس بى يوما ، أما آن لى أن أخرج إلى الحياة •• لقد رفضت أن أشترك فى أى نشاط فى الكلية ، حتى تظل فترة المســاء كلها خالصة لهنــاء ، ولكن ماذا جنيت من كل هذا ؟ لا شىء •• ضياع فى مجالات الهوى ، وضياع فى مجالات المجــد ، لقد رفضت حتى أن أشــترك فى نشاط الجماعة فى الكلية •• والله لن يكون هذا منذ اليوم ، إننى إلى الحياة خارج •• فافتحى لى صدرك أيتها الحياة •• إلى أين •• أين يمكن أن ألتقى بالحياة ؟ •• على أولا أن أحدد الجهة •• إنهــا شارع فؤاد لا شك فى ذلك ، فالحيــاة تمور فيه مورا ، والنســوة لا ينقطعن عنه ذهابا وجيئة •

ولكن أى منطقة فى شارع فؤاد خليقة أن أجعلها مرقبى •• إنهــا

تلك التى يقع فيها محل الأمريكين ‥ إن هناك اتفاقا غير مكتوب بين الفتيات والفتيان أن يلتقوا فى هذا المكان ، فاليه ‥

دارت هذه الأفكار فى ذهن سيد ، وهو يختار أجمل ملابسه ، ويضعها على نفسه ، حتى اذا أتم زينته ، خرج من باب حجرته ، وصعد بضع درجات ، فأصبح على سطح الأرض ‥ أرض الحديقة‥ وتلفت حواليه فاطمأن إلى أن عم دهب غير موجود ، فعبر الحديقة مسرعا يتحسس الجنيه الذى أوهم عمه دهب أنه سيشترى به كتابا لابد منه للكلية . وبعد حين كان سيد عبد البديع يلوب فى مكانه حول باب الأمريكين ، والنساء يتهادين أمامه ، يرى الواحدة منهن فيوشك أن يتقدم منها ، ثم يثنيه عن الأقدام خوف راعد يملأ نفسه ، وطال به الأمر وهو حائر لا يدرى كيف يبدأ حديثه ، وأخيرا رأى إلى جانبه فتى شديد الأناقة يقف فى مكانه متحفز النظرات ، لا تستقر قدماه على حال ، ولا يستقر رأسه إلى جهة ، فهو دائم التلفت ، يتربص بالشارع جميعا ، حتى مرت به أخيرا فتاة غيداء ، أنيقة غاية الأناقة ، ما كان سيد ليجرؤ أن يرفع إليها نظره ، فهى حلوة المشية ، متعالية رفيعة النظرات ، لا تذكره إلا بهناء فى ترفعها وكبرياء تصرفاتها .

اقتربت الفتاة منه ومن هذا الفتى الذى يقف إلى جانبه ، وكان الفتى إليها أقرب ، فسارع إليها قائلا :

— مساء الخير .

وذهل سيد حين سمعها تقول فى هدوء :

مساء الخير .

ماذا ‥ مساء الخير ‥ دون أن تضربه أو تدفعه عنها ، أو حتى

تسير ولا تلتفت إليه •• أهى مسألة ميسورة سهلة إلى هذا الحد •• مساء الخير ، ثم أضع ذراعى فى ذراعها ونمضى • وأنا هنا واقف منذ ساعات أقدم رجلا وأؤخر ستين رجلا •• ما أغبانى !!

وتربص سيد بالطريق ، وما هى إلا دقائق حتى مرت فتاة أخرى ، إن تكن أقل أناقة من سابقتها ، إلا أنها لا بأس بها ، ولو أنها كانت أقل من هذا بكثير لما تورع عنها •• وأين أولئك النسوة ، أين هن جميعا من أجمل فتاة بقرية العواسجة ، أين هذه الملابس المهفهفة ، والنحور العارية ، والأثداء المشرئبة ؟ أين هذا جميعا من ذلك الثوب الأسود الذى ترتديه فتيات العواسجة ، خيبة الله عليهن •• واقتربت الفتاة من مكانه ، فسارع إليها قائلا :

ـــ مساء الخير •

ونظرت إليه الفتاة فى سخرية ، وسارت فى طريقها دون أن تجيبه. أو تشعره أنها أحست به • ولكنه وقد بدأ الحديث ، أبى أن يترك الفرصة ، فهو يترك مرصده ويسير خلفها :

ـــ مساء الخير •

ولم تلتفت إليه الفتاة ، بل ظلت سائرة فى طريقها ، وأعاد هو التحية مرات ومرات ، والفتاة على حالها من الجمود والتجاهل ، وظن سيد أنها ما دامت لم تزجره ، لن تلبث أن تجيب تحيته ، وعلى هذه الأمنية سار خلفها •• دقائق •• وسمعها تقول شيئا :

ـــ يا شاويش •• ابعد هذا الأفندى عنى •

وسمع السيد ما قالت ، فثبت مكانه كالتمثال المنصوب ، ولم يفق من ذهوله إلا على الشاويش ساعيا إليه ، فاذا هو ينفض

الجمود الذى أمسك بأقدامه ويروح يعدو عائدا ، حتى إذا وجد الطوار مزدحما بالمارة ، وخشى أن يلحق به لشرطى ، قطع عرض الشارع غير آبه بالسيارات التى تسعى فيه ، ولولا أنه كان يعدو كالصيد يروغ من صسائده ، ولولا لطف الله لما وصل السيد إلى الشارع الجانبى سالما •

ووقف سيد يلتقط أنفاسه •• ويفكر فى هذه المصيبة التى كانت موشكة أن تصب عليه •• لن أعود لهذا •• لن أعود أبدا •• وفى خطوات حازمة مشى السيد إلى هدف آخر ، وقد تحدد مقصده ، وتبين له الطريق •

وقف السيد أمام شاب وقور السمت ، نامى اللحية ، فى وجهه عزم واصرار ، وفى عينه ثورة يخفيها هدوء يغشى ملامحه جميعا • وكان يجلس إلى مكتب متواضع ، وقف أمامه سيد يقول :

ـــ أريد طلب انضمام •

ـــ وأين تحية الاسلام ؟

ـــ السلام عليكم •• السلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

ـــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته •• ما اسمك ؟

ـــ السيد عبد البديع الذكر •

ـــ تشرفنا ، أنا عبد العاطى بسيونى •

والتقت يدان فى مصافحة قوية •

(١٨)

كان أحمد جالسا إلى فوزى فى حجرة المكتب التى خصصت لأحمد فى القصر •• إنها حجرة جده ذاتهـا ، وكان فوزى جالسا فى عظمة ، وقد وضع ساقا فوق ساق ، حين قال له أحمد فى مرارة :

ــ أرأيت ! لقد رفضت المجلة نشر مقالتى الأخيرة أيضا •

ــ طبعا يا أخى • إن كتابتك تقدمية لا تقبلها هـذه المجـلات البروجوازية •

ــ إن جعفر ينشر مقالاته بانتظام بها •

ــ وفيم يكتب جعفر ؟ •• مقالات تافهة لا أفكار فيها ولا جرأة •

ــ نعم ولكنه ينشرها •

ــ لابد أن أباه أوصى به رئيس التحرير •

ــ أبدا يا أخى ، عمى وصفى لا يتدخل فى هذه الأمور أبدا ق .

ــ إذن فرئيس التحرير يجامله من أجل أبيه •

ــ فلماذا لا يجاملنى أنا من أجل عمى ؟

ــ فمقالاتك لا تصلح لمثل هذه المجلات التافهة •

ــ فأين أنشر إذن ؟

ــ سيأتى اليوم الذى تكون لنا فيـه مجلة ، وسأنشر أنا لك فيها ، ولكن اسمع ••

ــ ماذا ؟

ـــ الليلة اجتماع الخلية ، وستلتقى هنـــاك بفؤاد زين العابدين قبل سفره إلى موسكو ، فقد عين فى السفارة المصرية بها .

ـــ يا أخى دائما تخطىء ، إن اسمه زكى .

ـــ هذا اسمه الحركى .

ـــ والمفروض أننا لا نعرف إلا اسمه الحركى .

ـــ طيب يا سيدى .. علمنى .. علم .

ـــ وأين الاجتماع ؟

ـــ فى مكانهـــا .

ـــ ألم يتغير بعد ؟

ـــ لا .. لم تصدر الأوامر بالتغيير .

ـــ يا أخى أنا غير مرتاح لهذا المكان .

ـــ أنت محق .

ـــ وبعـــد ؟

ـــ لا شأن لنا .. علينا أن ننفذ الأوامر .

ـــ الأوامر .. الأوامر .. أليس لنا رأى ؟

ـــ الرأى رأى المحترف يا أحمد ، ماذا ؟ أنسيت ؟

ـــ لا .. لم أنس ، ولكنى أخشى .

ـــ المفروض أننا لا نعرف الخشية .

ـــ أعرف .

ـــ موعدنا الليلة الساعة التاسعة مساء .

وطرق باب الغرفة ، ودخل سيد :

ـــ السلام عليكم ورحمة الله .

ـــ أهلا أبا السيد .. ذقنك .

ـــ مالها ياسى أحمد .. دع ذقنى ف حالها .. يكفينى ما بى .

ـــ خير يا سيد .

ـــ من أين يأتى الخير ؟

ـــ من ذقنك يا أخى .

ـــ يا أخى صل على النبى ..

ـــ لا .. لا لزوم لذلك .

ـــ أنت حر .. الليلة اجتماع الأسرة .

فقال فوزى مسرعا :

ـــ أين ؟

ـــ لا شأن لك ياسى فوزى .. نحن أيضا لنا أسرارنا .

ـــ طيب وماذا يضايقك ف هذا .

ـــ يضايقنى أننى لم أذاكر منذ أسبوع ، والعــوض على الله ف هذه السنة .

فقال أحمد :

ـــ الملحق يا أبا السيد .. البركة ف الملحق .

ـــ كل عام ملحق .. أنت لا تعــرف الذل الذى أراه من أبى حين يعرف أن عندى ملحقا .

فقال فوزى :

ـــ لا عليك .. الملحق ف سبيل الله .. ف سبيل الحق .

فقال سيد :

ـــ ماذا جرى ياسى فوزى ؟ •• على كل حال أحسن من الملحق فى سبيل الرفيق •• فى سبيل الشيطان •

وقال أحمد مغيظا دون أن يبين عن غيظه :

ـــ أى شيطان ياسى سيد ؟

وقال السيد متخاذلا :

ـــ الشيطان الرجيم يا سيدى •• الشيطان الرجيم •

وفتح باب الحجرة ودخلت هناء :

ـــ مساء الخير يا جماعة •

فسارع فوزى قائلا :

ـــ إن تحيتك هذه للسيد وحده •• فهو الجماعة •

فقال سيد فى هدوء :

ـــ لا يا سيدى ، فسيد وحده هو المستثنى من التحية •

فقالت هناء :

ـــ مساء الخير يا أولاد •

فقال فوزى :

ـــ عظيم •• أصبحت التحية لنا جميعا •

والتفتت هناء إلى أحمد تقول له :

ـــ أقرأت خطبة عمى وصفى فى البرلمـــان ؟

ـــ لا ••

ـــ انها •• رائعة ••

وقال فوزى فى تعاظم :

ـــ أما تزالون تهتمون بهذه التفاهات ؟

فقالت هناء فى تعجب :

ـــ خطبة وصفى باشا فى البرلمـــان تفاهة .

ـــ طبعـــا .

ـــ الجرائد كلها تعلق عليها ، والناس لا حديث لهم إلا الخطبة .

ـــ الجرائد عبـــارة عن كتاب مأجـــورين ، والنـــاس ما هم إلا ببغاوات .. لا أعتقد أن فتاة لها عقليتك الواعية الذكية تهتم بآراء الجرائد أو قطيع الناس .

وقال سيد مغيظا :

ـــ الناس ببغاوات وقطيع ، والجرائد مأجورة ، ومجلس النواب تفاهات ، فما الذى يعجبك فى مصر ؟

فقال فوزى فى كبر :

ـــ أنا .

وقال سيد فى ثورة يحاول جهده أن يكتمها :

ـــ فقط ! .

ـــ ومن يرى رأيى .

ـــ ومن يخالفك ؟ .

ـــ لا يخالفنى إلا مغرض جبان مقيد بالتقاليد العفنة وبالرغبات الحقـــيرة .

وتلعثم ســـيد ، وحاول أن يجمع إجابة ترد فـــوزى إلى بعض تواضع ، ولكن قبل أن يتكلم دخل جعفر وحسام ، وقبل أن يتبادل

الداخلان التحية مع الجالسين ، سارع سيد قائلا ، وكأنما هو غريق يجد منقذه :

ـــ الله أكبر •• جعفر بك جاء •• سيريحنا أو سيريحنى أنا شخصيا من الرد عليك •• أنقذنا يا جعفر بك ـــ أنا فى عرضك ـــ فوزى يا جعفر بك •• فوزى يا أخى سيقتلنى بغروره •

ـــ أولا وقبل الكلام عن فوزى ، ما هذه البك التى عادت إلى الظهور فى كلامك ؟

ـــ والله تعودت ، سمعت أبى يقولها •• تعودت يا بك •• يا جعفر •

ـــ نحن زملاء ، ولا أحب مطلقا هذه الطريقة •• والآن فلنعد إلى فوزى •• ماله •• فيم يتعبك ؟

ـــ لا يعجبه أحد فى البلد إلا نفسه •

ـــ هذا من حقه يا أخى •• ومن يعرف ؟ لعلنا جميعا نعجب بنفوسنا هذا الاعجاب •

فقال فوزى :

ـــ أنا أتكلم عن الجرائد والناس ، وأرى أن الجرائد كلها مأجورة ، والناس قطيع وببغاوات وجهلة •

فقال جعفر :

أى ناس ؟

ـــ الشعب •

ـــ الشعب ؟! الشعب الذى تريد له المساواة قطيع وببغاوات •

ـــ وما دخل هذا فيما أريده له ؟

ـ سبحان الخلاق العظيم •• إن مذهبك يرمى إلى جعل الشعب على درجة متساوية فى الغنى ، ومستوى المعيشة •

ـ لا يا سيدى ، ليس هذا فقط ما أريد ، وإنما أريد أن أثقفه •

ـ من هذا الذى يريد ؟

ـ المذهب الذى أراه •

ـ وهل المذهب سيثقف الشعب من تلقاء نفسه ؟

ـ لا •• سيقوم بذلك زعماؤه •

ـ ومن سينتخب هؤلاء الزعماء •• هل الشعب هو الذى سينتخبهم ؟

ـ نعم •

ـ أهذا ما يحدث ؟

ـ إنهم الآن فى فترة انتقال ، ولابد أن يفرض الزعماء لفترة معينة، ثم ينتخبهم الشعب •

ـ ومن الذى يفرضهم ؟

ـ هم يفرضون أنفسهم •

ـ ومن يعطيهم هذا الحق ؟ •• كيف لهم أن يعرفوا أنهم أصلح الناس للحكم ؟

ـ لابد ممن يحكم ، وهم يملكون الجرأة •

ـ الجرأة وحدها ؟!

ـ لا أفهم •

ـ بأى قوة يفرضون أنفسهم ؟

ـ بقوة السلاح •

ـ إذن فأنتم ترغمون الشعب أن يقبل حكاما لا يريدهم ، وترغمون الشعب أن يرضى بلون من الحكم لا تعرفون رأيه فيه ، وترغمون الشعب على أن يقبل نوعاً من الحياة لم يتعودها ، ثم تتغنون بالحرية التى يجب أن يتمتع بها الشعب وبحق الشعب فى الحياة ، ولا تخجلون مع هذا أن ترموا الشعب بالجهل وبأنه قطيع .

ـ إنها فترة انتقال .

ـ إن فترة الانتقال فى ظل الدكتاتورية لا تنتهى .. لأن الحاكم حين يصل إلى كرسى الحكم ، يعلم أنه وصل إليه على غير حق ؛ فهو يحيط نفسه بالحرس ، ويفرض أوامره ، فاذا هى قوانين ، وينهب الأموال ، ويعيش عيشة رغدة بلا رقيب ولا حسيب ، فالذين حوله جميعا يتمتعون بما يتمتع به من رغد ، وتنشأ طبقة حكام أغنياء ، وطبقة محكومين فقراء ، وبناء على نظريتكم ، لابد أن تقوم ثورة أخرى لتتم المساواة فى الرزق ومستوى المعيشة ، ويسقط هؤلاء الحكام ، ويتولى الحكم حكام آخرون ، وتتكرر المأساة ، وكل حكم جديد يحتاج إلى فترة انتقال .. فان سألت : انتقال إلى ماذا ؟ وإلى أى مدى يدوم هذا الانتقال ؟ فلن تجد جوابا ، ولكننا نحن نعرف الجواب .. إنه انتقال إلى الآخرة .

ـ نحن .. عن أى نحن تتكلم ؟.

ـ نحن أعداءكم الذين نحب الديمقراطية .. الشعب يختار حكامه ، ويختار من يمثله ليحاسبهم ، وتقف مهمته عند هذا ليفرغ إلى حياته .

ـ تقف مهمته !.. والذين يمثلون الشعب هؤلاء .. أيقف عملهم

عند محاسبة الحاكمين ؟ أم أن عملهم الأساسى الرجاء لدى الحاكمين ، والسعى لانجاز الخدمات والمصالح ؟

ــ أولا أنا أحادثك عن النظام الديمقراطى فى عمومه ، وأنت تحادثنى عن النظــام الديمقراطى فى مصر •• وعلى كل حال الذين يسعون لدى الحاكمين يريدون أن يصنعوا خيرا لأفــراد من الطبقة التى لا تستطيع الوصــول إلى هؤلاء الحاكمين ، وما أرى فى ذلك بأســا •

ــ والرشاوى التى يدفعها هؤلاء الفقراء ؟

ــ ذلك هو الفساد ، وهو فساد أشخاص ، وفساد الأشــخاص لا يعنى فساد نظام •

ــ نظام متعفن •• رأسمالى اقطاعى يقوم على النهب ، واستلاب أموال الناس ، قلة ضئيلة تبتلع أموال أمة •

ــ إذا بدأت الشتيمة فى النقــاش ، فمعناها أن الحجة ضاعت ، وعلى كل حال أنت تجور فى حكمك ، لأن هؤلاء الذين تقول عنهم أنهم يأكلون أموال الأمة هم الذين يدفعون الضرائب ، وهم الذين يعولون من حولهم من الفقراء ، ويمدونهم بالعون •

ــ يعتقدون أنهم متفضلون •• إنهم يعطون الفقراء من حقهم •

ــ لا يا سيدى •• إن الله قــد شرع نظاما للزكاة ، وإن كثيرا من الأغنياء يطبقون هذا النظام ، وإن الضرائب التى تفرضها الحكومة هى نوع من الزكاة التى شرعها الله •

وتدخل أحمد فى الحديث :

ـــ الله •• الأفيـــون •• المخـــدر الذى تسكنون به القطيـــع من أبنــــاء الشعب •

ـــ أحمد •• أنت فى أشد الحاجة إلى هذا المخدر •• لن أناقشك فى الله •• فاننا نحسه أولا ، ونؤمن به ، ثم نفكر فيه •• فحين تؤمن به وتحسه ، سأناقشك •

ـــ تهرب من النقاش ؟

ـــ لا ، وإنما أكبر الله أن يكون محل نقاش تافه كهذا •• سبحانه ، إننا نؤمن به ، ونحب أنفسنا ، لأنها تؤمن به ••

وقفز سيد واقفا :

ـــ يسلم فمك يا جـــعفر بك •• بك واحدة •• يا جـــعفر باشـــا يا جعفر ملك •

وقال أحمد ضائقا :

ـــ هرج يا أخى هرج •• يا أخى ألا تتوقر من أجل ذقنك هذه ؟

وقال حسام فى ضحكة عريضة :

ـــ هرج يا أبا سيد هرج ، ولا تهمك الذقن ، فو الله لا يعجبنى فيك إلا قلبك الأخضر مع ذقنك الوقور هذه •

وخرج فوزى من الحجرة جادا ، وترك من فيها يضحكون من سيد ، وما لبث أن عاد وهو يقول :

ـــ أستأذن أنا •

وقبل أن يتكلم أحد ، مد يده مضمومة إلى هنـــاء ، فمدت يدها إليه لتستقبل تحيته ، فاذا أنامله تنفرج فى يدها عن ورقة صـــغيرة

محكمة اللف ، وذهلت هناء هنيهة ثم ما لبثت أن تمالكت أمر نفسها ، وسحبت يدها من يده ، وقد أصبحت الورقة فيها •

وكان أحمد مشغولا بإثارة جعفر ، وحسام مشغولا بالسخرية من السيد ، ولم يكن منتبها إلى هناء إلا السيد الذى رأى كل شىء ، فانعقد لسانه واجما فى ذهول حيران ، يهم أن يمسك بتلابيب فوزى ويقتله ، ولكن يرده عن ذلك خشية أن يذيع ما ينبغى له أن يخفى لا سبيل أمامه غير الصمت ، فيصمه على ثورة فى نفسه تغتلى ، فما أسباب الحياة • وينشغل القوم فى توديع فوزى ، ويجد السيد أن وكبر المحب ، ووفاء المعترف بالفضل لهؤلاء القوم الذين يمهدون له من أمر هناء ، ويرد نفسه إلى الصمت فتثور عليه فى عزة الفلاح ، يهدأ لها أوار •

وما يكاد فوزى يخرج حتى يقول حسام :

ـ هناء •• هل رأيت سيارتنا الجديدة ؟

فما يند عن هناء غير « هيه » ذاهلة ، فيقول حسام :

ـ هوه •• أين أنت •• أقول لك هل رأيت سيارتنا الجديدة •

ويقول السيد فى نفسه : « يا خيبتك الكبيرة •• أتسألها أين هى سارحة •• اعلم يا خائب أنها سارحة فى شىء قريب جدا منك ومنها •• فى جيبها يا خائب •• مد يدك إلى جيبها •• ولكن لا •• لا تفعل ، فأنا أخشى عليها أن تفجع فى سرها •• وقاها الله السوء • •ولكن السوء كله فى جيبها هذا •• أدركنى برحمتك يا رب •• ألهمنى الرشاد •• ماذا أفعل ؟ •• أترانى أفكر فى أمرها من أجل وفائى لأهلها ، أم من أجل حبى لها •• سؤال عجيب ، لماذا لا يكون للسببين كليهما ••

المهم الا أترك ابن الضـــائعة هـــذا يأخذ الفتاة من أهلهـــا •• وهل أستطيع •• نعم إنى أستطيع •• إنى سأرقب هذا الفتى ، فمـــا أجعله يغيب عنى لحظة •• وكيف •• إنى ذاهب الآن إلى اجتماع الأسرة •• لن أذهب •• طيب ، وكيف أستطيع أن أراقبه إذا ركب سيارة أحمد •• ما أظن أنى فى حاجة للمراقبة عندئذ ، فانه لن يذهب فى صحبته إلى لقاء غرامى مع أخته •• وما البأس على إذا أنا راقبت هنـــاء •• هذا أجدى •• أم تراه أمتع •• يا أخى فكر فى هذه المصيبة أولا ، ثم فكر فى حبك اليائس •• على كل حال أنا هنا •• رقيب عليك يا ست هناء •• أينما ذهبت ، فأنا حيثما تذهبين » •

وصحا السيد من غمرته ليجد النقاش لا يزال يدور حول ســـيارة حسام ، فجعفر يقول :

— عجيب أنت يا أحمد •• تركب سيارة فاخرة وتعيش فى قصر باذخ ، ثم تأخذ على الناس أن يركبوا ما تركب ، ويسكنوا فى مثـــل ما تسكن •

— هذه ليست سيارتى ، ولا هو بيتى •

— يا أخى •• بع السيارة وتصدق بثمنها على الفقراء •

— هذه مشكلة تافهـــة ، فما ثمن سيارة وســـط مستنقع الفساد •• النظام جميعـــه فاسد ، رأســـمالى برجوازى •• إننى بســـيارتى أخدم الهـــدف الذى أســـعى إليه ، ولو أن هـــذا سر ما كان لى أن أبوح به •

— والله إن لم تبح به لمـــا أحسست بالمتعة التى تحسها فيـــه •• إنك لا تمشى خلف مذهبك هذا إلا من أجل ما تتوهم أنه أسرار •• تهاويل وطقوس ومراسم هى التى تغريك •

— هذا كلام الانحلاليين .

وقفز حسام عن كرسيه في غضب :

— ليست هـذه عيشة .. إن واحدا منـا لا ينطق بكلمة حتى تنقلب إلى مناقشة وبرجوازية وانحلالية وديمقراطية وزفتية وبعد ، ألا نرتاح من هذه المصائب لحظة .. قل لى يا حبيبى يا أحمد .. قل لى يا أخى .. أتعتقد أن الرفيق الأعلى ، أقصد ستالين بالطبع .. أتعتقد أنه لا يضحك أبدا .. أتعتقد أنه لا يتكلم فى شىء آخر غـير هذا الهذاء الذى تقوله .. إذن فعيشته سوداء .. أنا خارج يا أخى . واستمروا أنتم فى نقاشكم ..

وضحك جعفر ، وهو يقول :

— اقعد .. اقعد .. ولن نتكلم فى هـذا .. اقعد وهرج كمـا تشـاء .

— لا يا أخى لن أقعد .. أنا ذاهب يا أخى إلى أصدقاء حمـير مثلى .. يتكلمون عن .. النهاية .. هنـاء معنا .. يتكلمون يا أخى كخلق الله الآخرين .. نضحك يا أخى نتمتع بحياتنا ولا ننكدها ، السلام عليكم .. يا هناء قولى لخالتك إننى خرجت ، وسأرجع متأخرا بعـد السينما .

وقالت هنـاء :

— خالتى هنا .

فقال حسام وهو واقف بالباب :

— نعم إنها فى الدور الأعلى مع خالتى ومعها نوال .

وخرج حسام ، وقامت هناء وهى تقول :

ـ سأصعد إلى خالتى فانى من زمن لم أرها •

وقال جعفر :

ـ وأنا أيضا سأصعد معك لأرى عماتى •• ألا تأتى معنا يا أحمد ؟•

وقام أحمد متثاقلا وهو يقول :

ـ آتى •

وخلت الغرفة بالسيد ، فأبقى بابها مفتوحا ، واتخذ لنفسه كرسيا مواجها للباب ، ليرى هناء إن هى حاولت الخروج •

صعد الثلاثة الى الدور الأعلى وتبادلوا التحيات ، وجرى الحديث بين الجميع ، والتقط جعفر طرفا منه وراح يتحدث ، ورأى أحمد الجميع ينصتون الى الحديث ، يضحكون أو يبدون اهتماما يرتاح اليه المتكلم •• وراح يسائل نفسه •• لماذا لا يستطيع هو أن يتكلم •• بل لماذا لا يستطيع أن يفعل شيئا على الاطلاق •• جعفر يكتب فى المجلات ، وأنا أكتب ولا أستطيع أن أنشر شيئا •• بل اننى لو خلصت الى ضميرى لحكمت على ما أكتب بأنه غير صالح •• ولقد لجأت الى الكتابة بعد أن حاولت الرسم فلم أفلح فيه •• ولن أنسى يوم أحضرت لى أمى هذه الكمنجة الفخمة ، ثم لم أستطع أن أعزف عليها شيئا •• لا شىء أنا •• لا شىء على الاطلاق •• اللهم الا المذاكرة والنجاح • المصيبة أن جعفر والرسامين من اخوانى والموسيقيين ، أغلبهم يذاكر وينجح ، فبماذا أمتاز عليهم • اننى فى هذا البيت اله •• ان أحدا لا يتمتع فى بيته أو فى ملكه كما أتمتع أنا ، اشارتى أمر ، وكلمتى تقديس ، وأوامرى تنزيل من حكيم عليم ، على حد احترامهم للحكيم العليم •• ولكنى إذا تركت هذا

البيت فما أنا •• أنا لست شيئا الا منذ انضممت الى اخوانى هؤلاء •• أحسست أنى أفكر للكون جميعه ، وأرسم الخطة للعالم أن يسير عليها •• أنا فى ذلك المكان شىء خارج عن قطيع الناس ولكنى أريد أن أكون فيه ذا سلاح •• نعم لم يبق لى الا القلم •• انه أسهل الفنون ، فما يحتاج الأمر فى الكتابة الا أن أخط على الورق •• ولكن هؤلاء الصحفيين لا يعترفون بى •• يقول جعفر «اقرأ» فهل قرأ هو •• نعم •• أظنه فعل •• ولكن جعفر آسن العقل ، لا حرية فى تفكيره ، ولا فى اتجاهه •• مقيد بالتقاليد الآسنة •• الحمد لله أنه كذلك •• والا انضم الى جماعتى •• وحينئذ لن أكون أنا شيئا •• بينما أنا الآن بينهم كاتبهم الأوحد •• لأن أحدا منهم لم يحاول الكتابة •• ولكن ماذا أكتب لهم ؟ ! •• بحسبى أنهم يطلقون على لقب كاتبهم •• وما هو بالشىء الهزيل •

ونظر أحمد فى ساعته ثم قال :

ــ سأترككم أنا فانى على موعد •

وقالت أمه :

ــ أى موعد ؟

فأخطأ أحمد عن عمد وهو يقول :

ــ اجتماع •

ثم قال وكأنه يستدرك :

ــ اجتماع مع بعض أصدقائى •• سنذهب الى السينما •• سلام عليكم •

وكان جعفر مدركا لكل التصنع الذى افتعله أحمد ، ولكنه

سكت •• بينما تعلقت عينا هنـــاء بأخيها هنيهة ، حتى اذا خرج من باب الغـــرفة لحقت بـــه ، وقبـــل أن يهبط الدرجة الأولى من السلم قالت له :

ــ أحمـــد •

ووقف أحمـــد :

ــ نعـــم •

ــ تأكـــد من خلو المـــكان من الجـــواسيس يا أحمـــد • • واذا شككت فى شىء فارجع يا أحمد •

فقال أحمـــد فى تعاظم :

ــ لا تخاف •

ثـــم راح يهبط السلم وهو يحس بعينى أختـــه وهما ترقبـــانه ، فزاده هـــذا شعورا بالكبر والأهمية • وما لبث أن نفض عن ذهنـــه كل ما فكر فيـــه حين كان جعفر يتكلم •• فهـــو الآن واثق •• واثق كل الثقة أنه شىء •• بل انه كل شىء •

(١٩)

قصد حسام الى بار الشباب حيث تعـود أن يقصد ، كلما ضـاق باعرض هناء عنـه ، أو كلما شقى بهـذه الأحاديث الطـويلة التى يسود بهـا جعفر وأحمد وفوزى الحياة فى وجهه •

الى هـذا المـكان يقصد ، وفيـه أصدقاؤه الذين نبتوا معـه من مغرس واحد وفى هواء واحـد ، تنفسوا الطفولة معا وها هم أولاء يتنفسون شبابهم فى اقبـال عليـه وتقـدير له والتذاذ بكل لحظة تجمعهم حول شبابهم هـذا المرح الطليق •

انهـم أبنـاء الحى ، جمعهم السكن ، وأحاطت بهـم جـدران الأفنيـة وأسـوار الحدائق منـذ هم أطفال يحملون ، أو منـذ هم أطفال يتعثرون ، ثم ما لبثت أن ضمتهم جـدران الفصول وأسـوار المدارس ، فأصبحوا وهم متلازمون قل أن يتفرقوا ، ثـم اتجهـوا الى الجامعة وقد مال أغلب جمعهم الى اختيار كلية واحدة ، لا عن رغبـة فى هـذه الـكلية ، وانمـا كان شأنهم فى ذلك شأن القطيع ، يسير خلف واحـد من أجزائه ليس بأحسنه ولا هو بأحكمه ، وانمـا سار طريقا معينا بلا سبب ولا باعث ، وسار القطيع من خلفه ليعفى نفسه من التفكير فى طريق آخر •

وكان أصـحاب حسـام يأخـذون حيـاتهم فى يسر كما يحب أن يأخـذها هـو •



آباؤهم يقـومون عنهـم بمـا يحتاجون اليـه ، وهم الى الدرس وعنـه رائحون غادون بيـاض النهـار ، ثم هم مجتمعون على لعب حين كانوا أطفالا ، وقـد راح هذا اللعب يتطور مع أعمارهم ، فبعد أن كان جـريا بلا هـدف ، شب قليلا ، وأصبحت الـكرة تحـدد أهـدافه ، ثـم شب مرة أخرى فأصبحت المـرأة هى التى تحـدد الأهداف والمتجهات . وقد يتخلف فى مرحلة من مراحل اللعب فـرد من القطيع ، ولـكنه لا ينى عن ملاحقة اخوانه فى مراقى حياتهـم ، فان أحب واحـد من الصحاب الـكرة وظل يلعبها ، فمـا يثنيه ذلك عن أن يحب المرأة ، بل لعله أحب الـكرة ليغوى بها المرأة ، أو لعله أحبهـا كبقية من ذكرى الطفولة ، وأخلاف من عمـر حبيب ، وهكذا سـار القطيع ، ان تخلف فـرد تخلف بفلذة من كيانه ، ولـكنه هو بجميعه يظل سائرا حيث يسيرون .

وكان « بار الشباب » أحدث مكان تواضعوا على الالتقاء فيـه ، فهو حجرة قابعة فى حى العباسية ، لا تـكاد تتسع لغيرهم ، وأمامها رحبة بدائية الاعـداد ، ويتنقلون هم بين الرحبـة والحجرة حسبما يكون الجو ، ويتصـدرهم أينما يجلسون سـعد الصاحب أعظمهـم جسما ، وأطولهم لسانا ، وأكثرهم حديثا عن مغامراته مع النساء . وقد حلت النساء عنـده محل الكرة التى كان يروى لهم أيام غرامهم بها ، كيف هـو قـدير على التحكم فيها واصابة الهدف بهـا ، فان سألوه كيف وهـو على هـذا السمن المفـرط ، ضحك وأخبرهم أن سمنه هـو الذى يسهل الأمر له ، فما على زملائه فى الفريق الا أن يسلموا الـكرة الى قدمه ، وقدمه — من بعـد — كفيلة بأن تصيب بهـا الاصابات جميعا ، وما عليـه هو الا أن ينقل قدميه فى هـدوء وعظمة ، حتى يصل الى الهدف ، فما يجرؤ واحد من الفـريق الآخر

أن يتقدم منه ، وكان اخوانه لا يحاولون أن يختبروا هـذه العظمة فيه ، فهم يعرفون قدرها تمام المعرفة • وكبرت الكرة وأصبحت امرأة ، وأصبح يقص على اخوانه تجاربه مع النساء •• مع جمع كبير من النساء ، كما كان يكتفى بغير الكثيرات منهن • وقد كانت قصصه عن النساء أمتع ، وكان اخوانه يحبون منه هـذا الحديث ، لأنه خفيف الظل حين يسوقه ، ولأن هـذا الحديث بالذات يدغدغ فيهم كوامن رغبات لاهبة •

على أنهم كانوا يعرفون طريقهم الى النساء ، وكان سبيلهم الى ذلك عبد الجواد أفندى الذى يبيع لهم السجائر فى « بار الشباب » وكانوا اذا شاءوا ، طلبوا اليه امرأة أو امرأتين حسبما يكون عددهم يوم يطلبون ، وكان عبد الجواد أفندى يهيىء لهم كل ما يحتاج اليه الأمر من غرفة الى غير الغرفة ، وكان سعد دائما يشاركهم فى هـذه الاجتماعات ، فما يفت ذلك فى عضده ، أو يثنيه عن ذلك القصص الذى يرويه عن النساء •

وكان حسام من أهم أعضاء الندوة ، وما كان حبه لهناء ليمنعه عن شىء مما يفعلون ، فقد كان الأمران فى ذهنه مختلفين كل الاختلاف ، وقد كانت هذه الطريقة فى التفكير مسيطرة على أذهان اخوانه جميعا • فهناء حب وزواج وبيت وأولاد وصلاح وتقوى ، وأما بار الشباب وعبد الجواد أفندى فضحك ومزاح وسخرية من كل شىء واقبال على كل شىء ، واستقبال للحياة كأروع ما تستقبل الحياة ، فما عرف هؤلاء الأصدقاء أحلى من هـذه اللحظات التى كانت تجمعهم مهما يكن سبب اجتماعهم هـذا •

وقــد كان حسام لا يجرى وراء امرأة ، ولا يستخدم سيارته فى تصــيد محبسات السيارات ، فما كان يحب من النساء الا هنــاء •• والا ما يحضره عبد الجواد أفنــدى وبتوصية من الاخوان ، وبحيث يشارك هــو فى الموضــوع بالمقدار الذى يشاركون به • ثم لا يهتم بأمر من النساء بعــد ذلك أبدا •

ولم يكن « بار الشباب » مكانا لا تقــدم فيــه الا الخمر ، بل ان الصحاب قليلا ما تناولوا الخمر ، فان فــكروا فيها فالمسامة العازفة عن الشيء لا يوغــل فيــه • وكذلك كان شأن حســام ، فمــا أحب الخمر يوما ، وما شربهــا الا مــكرها ليجارى الرفاق ، ولا يتخلف عن شيء يفعلون ، ولــكنه لم يزد ، لأنهــم هم لم يزيدوا الى الدرجة التى تتحول بهم من حساة الى سكار ى •

قصد حسام الى بار الشباب فى يومه هــذا ، فوجد الجميع قــد سبقوه ، ووجــدهم واجمين بعض شيء ، وســعد بينهــم ، وأمامه كأس مترعة ، وعلى وجهــه أمارات ألم يحاول أن يخفيها ، فتنحسر حينا عن وجهه لتبدو على وجوه اخوانه جميعا ، ثم يختطف الــكأس فيفرغها فى جــوفه سريعا ، ويطلب أخرى ويتكلم فى محاولة هزيلة للمرح لا تلبث أن تعيد الألم متنقلا بين وجهــه ووجوه اخوانه ماثلا دائما فى الجو المحيط بهــم •

وقعــد حسام باهتــا دون أن يدرى ما هم فيــه ، ولا ما يرويه عليهم سعد ، فما تعــود من سعد أن يروى غير ما يزيل كربهم ويروح عنهم ، وسمعه يقــول :

ــ أراكــم متألــين •• أيهمــكم شــأن هــذه البنت •• ما أكثر

البنات اللواتى وقعن فى حبى •• ألم يبق الا هـذه القبيحة ، أنا لم يضايقنى الا قولها يا « سمين » •• وكنت طول هذه السنوات أحبها •• وكنت أظنهـا تحبنى •• هات كأسـا أخـرى يا بنى ••و المصيبة أن أباها • عمى هذا الجلف يطردنى من البيت • أنا لم أصنع شيئا حتى يطردنى •• لم أصنع شيئا على الاطلاق ، ولكن كيف لم أصنع ! •• ان أبى فقير •• فقير كأبيها يا ناس ، ولكن جاءها الولد ومعه العربة فأنا سمين وأبى فقير بنت الـ • النهاية •• ولكن أبوها عمى •• يطردنى وأنا لم أقل شيئا ، طردنى واللـه ، لأنى أنتقد أن تخرج بنت عمى وحدها مع شخص غريب • كفرت •• ؟ ! هات كأسا يا بنى •

وقال حسام :

ـــ لا تحضر شيئا يا ينى • ما دخل ينى فى هذا الذى ترويه ؟

وسالت الدموع على خدى سعد الكبيرين :

ـــ تصـور يا حسام ، من أجل سيارة •• سيارة أقل من سيارتك بكثير •• يطردنى الرجل من بيته ، وتقول هى ما شأنك يا سمين •• أين الكأس يا ينى ؟

ـــ يا أخى اترك ينى •• وقـم •• قـوموا يا أولاد •• سنركب سيارتى ونمر بها عند بيتها ، وسأجعلك أنت تقـود السيارة •

ويقـول سعد ثائرا :

ـــ أنا •• أنا أذهب الى بيتها •• أو فى شارع بيتها ثانية •• أبدا أين الـكأس يا ينى •• أنت عارف يا حسـام كم امـرأة وقعت فى غرامى ، ولكنى كنت أحبها • أحبها هى •• مالـكم هكذا ؟ اضحكوا ماذا ؟ أهى مصيبة ؟

وأحضر ينى الكأس أخيرا ، وحاول حسام أن يمنعه من تقديمها ، ولكن سميح مال الى أذنه وقال له :

ـــ اتركه يشرب ، فان الخمر تريح فى مثل هـــذه الأحوال .

وترك حسام الـــكأس تأخذ طريقها الى سعد ، وقال هو لسعد :

ـــ فى رجالك .. والله ان « زعلت » تكن امرأة .. أى امرأة تلك التى تبكى من أجلها .. نصف نساء البلد يحببنك .

ودارت أنظـــار الصحاب الى حســـام يعجبــون من جـــرأته فى الكذب ، وزاد عجبهم من سعد أن صـــدق هـــذا الكذب وهو يقول فى بعض راحة :

ـــ أنت تعرف ذلك ، أليس كذلك ؟

وقال حسام :

ـــ وكلنا يعـــرفه .. أين عبد الجواد أفندى .. أين عبـــد الجواد يا سميح ؟ ألم تره اليوم ؟

وانصرفت الجماعة الى البحث عن عبـــد الجواد أفنـــدى ، حتى اذا ما عثرت عليـــه راحوا يهيئون معه سهرة الليلة ، فانشغل معهـــم سعد ناسيا أمر عمتـــه وحبـــه الضائع ، ولم يعـــد يذكر شيئـــا الا عبد الجواد أفندى وما يعـــده لهـــم .

(٢٠)

كانت هنـــاء قـــد اختلست التليفون الى حجرتها ، وأقفلت رتاجها فأمنت أن يعتدى أحـــد على خلوتها وأقامت تنتظر •• ولم يطل بها الانتظار ، فقـــد دق جرس التليفون ، فرفعت السماعة ، ولـــكنها لم تسمع من الطرف الآخر صوتا حتى قالت هى :

ــ نعـــم •

وتكلم الصوت همسا كمن يريد أن يخفى حقيقة نبراته !

ــ هنـــاء •

وقالت هناء :

ــ نعـــم •

ــ كيف أنت ؟

ــ الحمد للـــه •

ــ هل أقلقتك ؟

ــ لا أبداً •• ما أخبارك ؟

ــ لا أخبـــار •• لم يطلع الفجر بعـــد ، ولكنه سيطلع حتما على هذا المجتمع الآسن ، وعلى هذه العقول الرجعية الجامدة •

ــ قل لى يا فـــوزى ، أنا أعـــرف أنك ذكى ، ولـــكن ألا يعجبك أحد آخر فى هـــذه الدنيا ؟

ــ أنت •

ـــ فقط ؟

ـــ فقط •• الآخرون كلهــم يتبعوننى فى إفهامهم • انهم يخشون الحقيقة •• انهم مقيدون برجعيتهم ••

ـــ كلهــم ؟ !

ـــ كلهم الا أنت •• أنت •• أنا معجب بك •• معجب بعقلك !! أنت غير الناس الذين أراهم فى بيتك جميعا ، ان أفكارك تقدمية واعية ، وتتقبلين الآراء الحرة فى جرأة •

ـــ أفكارى أحسن من جميع الذين تراهم •

ـــ جميعا •

ـــ حتى جعفر •

ـــ أغرك هــذا التافه بحديثه المنمق •• أم لعله يعجبك لأنه غنى وابن باشا •• طبعا هــذه مسائل أخرى لا طاقة لنا بها •

ـــ على العكس •• أنا أرى أنه لا عيب به الا غناه •

وقال فوزى :

ـــ أترى هــذا رأيك حقا ؟ أم أنك تجاملينني ؟

ـــ بل أنت تعرف أنه رأيى •

ـــ أنت أعظم الناس •• ولكن لــماذا •• لــماذا يا هنــاء •• لماذا تكرهين الغنى ؟

ـــ أكــره المــال •• أكرهه لأنه •• أكرهه والسلام •• ما يهمك أنت •• ؟

ـــ متى أراك ؟

ـــ غــدا •

ـــ الساعة السادسة ؟

ـــ الساعة السادسة .

ـــ فى نفس المكان ؟

ـــ ولم لا ؟

ـــ والله لا أعرف .. أخاف أن يرانا أحد .

ـــ أنا لا أراك تخاف أحدا .

ـــ أنا لا يهمنى أحد الا أنت .. أنت وحدك التى أهتم بها .. وأحيالها ... أنت .

ـــ على مهلك .. إن كلامك هذا يناقض أفكارك واتجاهاتك .

ـــ وما هى أفكارى واتجاهاتى ؟

ـــ أنت تقول : إنك تحب أن ترانى لأنك معجب بعقليتى ، وتحب أن يلتقى عقلانا بعيدا عن أعين الناس وعن تفاهاتهم .

ـــ وهل يمنع هذا من الحب .. ؟

ـــ ولكن الحب ضعف وتخاذل وإبعاد عن التفكير العملى السليم ، ووقف لميكانيكية الحياة ، والحب عاطفة ، والعاطفة تفسد الأعمال الكبرى التى يجب أن نضطلع بها فى هذه الفترة .

ـــ ولكن ماذا يمكن أن نفعل .. كيف نتحكم فى قلوبنا ؟

ـــ عجيبة .. أتسألنى يا أستاذ .. أنا أعيد ما أسمعه منك .

ـــ حين نلتقى نبحث فى هذا .

ـــ أمرك يا أستاذ .

ـــ فى نفس المكان ؟

ـــ فى نفس المكان .

(٢١)

كانت الأضواء المتهافتة تنبعث من المصابيح فى خوف ، فما يستطيع نورها أن يفسح لنفسه مكانا وسط الظلام ، فالمكان مرتعش الضياء ، تتبين فيه الهياكل والشخوص ، ولا تتبين الملامح أو القسمات .

وكان فوزى جالسا مع بعض شباب آخرين تبدو على وجوههم سيماء الاهتمام الكبير .. منهم من يصطنع هذا الاهتمام ، ومنهم من لا يستطيع أن يضع على وجهه تعبيرا آخر غير هذا ، لأن وجهه جاد بطبيعته ، فما يملك أن يكسبه غير ما يكسوه من حزم وصرامة ، ويبدو بعض منهم آخر مهتما غاية الاهتمام بما يتخذه من هيئة وأردية ، فالقميص أسود ، ورباط العنق أحمر ، وشعر رأسه كث غزير ، وعيناه تستتران وراء منظار ، وهو لا ينسى بين هنيهة وأخرى أن يرفع إحدى يديه إلى شيء من هذا المهرجان الذى يتخذه .. فقد يصلح شأن رباطا رقبته ، أو قد يمسك بطرف نظارته فى وقار شديد ، أو يمر براحته على شعره ، وهو يأتى جميع هذا متظاهرا بأنه لا يهتم بشأن شيء مما يتفقده ، ولكن هذه اللمسة الصغيرة تبين لمن يراه أنه لا يهتم إلا بشعره وقميصه ورباطه ونظارته .

وكان المكان زاخرا بالهمس ، يتجمع فيصبح ضجيجا لا ترتاح إليه الأذن . وكان فوزى منهمكا فى حديث مع بعض إخوانه حين أحس بهذه الضجة ، فلم يلبث أن نظر فى ساعته ثم قال :

ـــ أيها الرفاق ، اجتماعنا اليوم مهم غاية الأهمية ، فالرفيق زكى قد عاد من موسكو ، وسيروى علينا ما شـاهده هنـاك ، وما يجب علينا أن نفعله حتى نصل إلى الكمال المذهبى •• ولكن ينقصنا واحد ، هو الرفيق صالح •

وحينئذ قال أحد الرفاق فى جد :

ـــ طالمـا قلنا إن الرفيق صالح لا يصلح لنا ، ونحن حين نقبله نخالف تعاليم أحد فلاسفتنا ، وأظنه انجلز الذى يعتقـد إن ضم الأغنيـاء إلى حظيرتنا خطأ كبير ، لأنهم يضـطرون إلى معارضـة مصالحهم الشخصية ، ولأن العدالة التى نهدف إليها لا بد أن تصيبهم هم إصابة بالغة •

ورد فوزى فى إصرار مدافعا عن صـديقه أحمد •• فلم يكن صالح هذا الغائب إلا أحمد فى اسمه الحركى ، قال فوزى :

ـــ إن الرفيق صالح معنا منـذ وقت طويل ، وقد أثبت جـدارته فى أشياء كثيرة ولا ننسى أنه كان يمدنا بالمـال ، حين كان المال يتأخر عنا ، ثم أنت تنسى أن مولوتوف من الأغنياء •

ـــ هذا خطأ لا بد أنه سيصحح •

ـــ أظن أننا لم نصل إلى درجة انتقاد الحزب •

وقبل أن يتمادى بهم النقاش ، دخل أحمد وهو يقول :

ـــ أنا آسف أيها الرفاق تأخرت مرغما •

وسارع فوزى قائلا :

ـــ لا بأس يا أحمد •• يا رفيق صالح ، آن لنا أن نسمع إلى الرفيق زكى •• أيسمح حضرة المسئول بأن يطلب إليه الكلام •

ووقف فى صدر القاعة شاب قصير القامة ، يضع على عينيه نظارة سوداء قاتمة ، وتكاد النظارة تخفى خديه الغائرين اللذين يحيطان بفم دقيق ، فيـــه صرامة ، وفيه احتقار لكل شيء ، وفيه حقـــد على كل شيء .

ذاك هو المسئول ، وهو رئيس هـــذه الخلية .. وقف فلم يزد على أن قال :

ـــ الرفيق زكى يتفضل .

ولكن أحدا لم يتقدم .

فقال المسئول مرة أخرى :

ـــ الرفيق زكى .

فامتدت أيد كثيرة إلى ذراع شـــاب طويل القامة ، أشهب اللون ، مشدود جلد الوجه ، جامد القسمات ، فقال فى تؤدة قائلا :

ـــ أيها الاخوان ، إن اسمى فؤاد زين العابدين .

فثارت فى القاعة ضـــجة كبيرة ، ودق المســـئول النضد الذى أمامه بعنف وقال :

ـــ تنبه الرفيق زكى إنه يفشى سرا ما كان له أن يبوح به .

فاستأنف فؤاد حديثه وكأنه لم يسمع شيئا :

ـــ إن إسمى هو فؤاد زين العابدين ، وكلكم يعـــرف ذلك ، وقـــد قصدت أن أجيء اليوم إليكم لأكشف عن عيونكم عصابة من الجهل .. أنتم فى خطر ..

وثارت الضـــجة مرة أخـــرى ، وقال المســـــئول بعـــد أن دق النضـــد :

ـــ إذا كانت السلطات الغاشمة تبحث عنا ، فليس للرفيق أن يفضى بهذا للرفاق ، وإنما كان عليـــه أن يبلغنى أنا لأبلغ المحترف ونتلقى منه الأوامر •

وقال فؤاد دون أن يلتفت إلى المسئول :

ـــ إن الخطر فى أنفسكم •• لقد جئت منذ أيام قليلة ، ولا أعرف شيئا عن السلطات هنا •• أيها الاخوان ، من شاء منـــكم أن يتخلى عن انسانيته ، ومن يشأ منكم أن يصبح قطعة حقيرة من جماد ، ليس فيها من مشاعر الانسانية إلا شعور الخوف الراعد ، والفزع والقلق . ومن يشأ منكم أن يصبح شيئا بلا حرية ولا شـــعور ولا تفكير ، شيئا ليس فيه بقيـــة من آدمية إلا أن يسمع فيطمع ، وإلا أن يظل مرتعشا أن يكون قـــد أخطأ السمع ، أو أخطأ الطـــاعة ، من يشـــأ أن يفقد انسانيته جميعا •• من يشـــأ أن يصبح كذلك ، فليظل على هـــذا المذهب الذى تعتنقون •

وثارت الأصـــوات بالقـــاعة ، فمن قائل « مـــروق » ومن قائل « خيانة » ومن قائل « برجوازية » ومن قائل « انحلال » ومن قائل « رجعيـــة » •

وثار بالقاعة أيضا جو قاتم عقد ألسنة كثيرة من الخوف ، وعقـــد ألسنة أخرى من الدهشة •• حتى المسئول ظل فترة طويلة لا يملك زمام نفسه ، ثم انتبه آخر الأمر إلى موقفه هـــذا ، فدق النضـــد بيده ، ثم قال :

ـــ نعتقد أن الرفيق •• آسف أن فؤاد زين العابدين قـــد أصبح برجوازيا ، وأنه اتصل بأصحاب المذاهب الرجعية ، وبهـــذا أصبح خارجا عن خليتنا ، وإنى أعلن فصله عنا •

واخمل فؤاد حديثه :

ـ الادميون هناك لا قيمـة لهم •• لقد قال لى بعضـهم : إنهم يحيون شعور الخوف ويغذونه فى أنفسهم ، لأنه الشعور الوحيد الذى يربطهم بالآدميـة ، وهم لا يريدون أن يتخلوا عن آدميتهـم •• لا يريدون برغم اصرار السلطات على افقـادهم لهـذه الآدمية ••

الانسانية التى يتغنى بها المذهب لا وجـود لها على الاطلاق •• هناك كل شىء إلا الانسانية •• الانسان قطعة من المهمل •• السلطة تهتم بمسمار فى آلة أكثر من اهتمامها بحيـاة انسان •• الفقر مدقع ، والحكام يعيشون فى بذخ دونه بذخ القياصرة •• كل ما يتغنون به من حقوق الانسان كلام أجـوف لا تطبيق له •• الأفـراد والأسر يعيشون عيشة الحيوانات المذعورة التى تعلم أن الصـياد وراءها دائما ، والصياد لا يرتاح ، والحيوانات لا تستقر •• الخوف والرعب هما كل الحياة ، المقدسات لا وجود لها •• أيها الاخوان ، لو لم أر هنـاك إلا الخوف والرعب اللذين يحيا فيهما القوم لكان هذا كافيا لأن أعتزل مذهبهم •• أيها الاخوان ، سأترككم بعد أن ألقى عليكم تحية الاسلام دين المشـورة ، ودين الأمن والاستقرار وأرجو أن تجيبـوا تحيتى وتتبعونى إلى الهـواء الطلق •• السـلام عليكم ورحمة الله •

وبهـذه الجملة الخطابية خرج فؤاد من القاعة فى هـدوء ، وكأنه لم يستثر كل هذه المشاعر •• وران الصمت على القـوم •• صمت حائر لا يدرون أيصدقون هذا الوافد عليهم من مصـدر مذهبهم ، أم لا يحفلون بما قال •• تزعزعت الثقة فى النفوس ، ولكن المسـئول سارع قائلا :

ـ لا شك أنكم تعرفون أننا نحارَب بكل الوسائل والطرق ، ولا شك أنكم قد سمعتم هذا الكلام قبل اليوم ، فهو كلام أعدائنا ، ولقد انضممنا إلى هذا المذهب بعد أن وثقنا به كل الثقة . فاذا كان لهذا الحديث الذى سمعناه الآن أى أثر فى نفوسنا فمعنى ذلك أننا نستهين بعقولنا ، ونستهين بكرامتنا ، وبمبادئنا .. ولا أظن أننا ضعاف العقيدة لدرجة أن حديثا كهذا يجعلنا نشك فى المبدأ الذى ضحينا فى سبيله بكل شىء .

والتمعت ابتسامة على شفتى فوزى ، فهو يعلم أن المسئول لم يضح بشىء إلا بتوقيع شهرى يقبض فى مقابله مبلغا من المال ضخما ، ولكن هذا لم يمنعه أن يقول :

ـ بطبيعة الحال أيها الرفيق ، هذا كلام انحلالى ، رجعى ، برجوازى ، وإننا نسمعه كل يوم ، فنرجو منك أن تعتبر الأمر كأن لم يكن ، وتدخل فى جدول الأعمال .

وكالقطيع التائه راح الآخرون يرفعون ثغاءهم مؤيدين قول فوزى ، وأخذ المسئول فى حديث آخر .. حديث متخبط ، فما كان يدرى ماذا يقول ، بعد أن أفسد عليه فؤاد برنامج الليلة .

وانتهى الاجتماع ،وخرج أحمد ، مسرعا متجاهلا نظرات فوزى إليه ، التى كانت تدعوه لينتظره ، لم يكن يريد أحدا ليسير معه .. كان يريد أن يخلو لنفسه .

يبدو على فؤاد زين العابدين أنه صادق فيما قال ، ولكن كيف يترك الخلية .. ماذا يصبح إذن ؟ .. إنها كل شىء له .. كيف يترك هذا العمل الكبير .. أهو العمل الكبير الذى يجذبه إليها ، أم تلك التهاوى

والطقوس ، أهو العمل الكبير ما يجذبه إليها ، أم أنه أصبح وله اسم آخر ، وأنه يتخفى من العيون ، وأن عيون السلطات تتابعه ، وأنه ذو أهمية بالغة فى دوائر الحكومة والأمن العام . إنه يهرب إلى هذا المذهب من الفراغ الذى يعانيه فى حياته ، إنه يهرب إلى الرفاق من فشله فى كل شىء حاوله ، وهو الذى لم يعرف فى بيته الفشل أبدا ، لم يسمع كلمة « لا » فى بيته أبدا ، ولكنه سمعها حين أراد أن يكون موسيقيا ، وسمعها حين أراد أن يكون رساما ، وسمعها حين أراد أن يكون كاتبا .. سمع «لا» صارمة ليس فيها رقة ولا مجاملة.. لقد رفضه الفن .. ولم تقبله من جنبات الحياة إلا هذه الخلية التى يستخفى فيها من حقيقة فشله ، ومن حقيقة الحياة التى أبت أن تعطيه إلا مالا ضخما هو أمه ، دون حتى أن تكمل هبتها بأب يستطيع أن يحترمه .. ويله من أبيه .. إنه هو من جر عليه كل هذا البلاء الذى يعانيه .. إنه أب بلا ضمير ، بلا كرامة .. بلا تقدير لأى معنى كريم .. لماذا تعطى الطبيعة لجعفر أبا مثل وصفى باشا ، وتبخل عليه بأب شبيه .. لقد كان يريد أى أب يحترمه .. لا ضرورة أن يكون باشا ، ليكن مثل عمه سامى زوج خالته.. إنه رجل محترم .. ولكن هذا الأب الذى رماه به الزمان والذى يأبى أن يحترم نفسه فى أى مكان .. حتى فى وظيفته حقير .. إنه أوشك أن يلوث وصفى باشا .. بل إن جريدة معارضة لوصفى باشا عرضت برشوة معينة .. أخزاه الله .. لقد كفرت بالله من أجله .. لم أتصور أن يقول الله العالم بعباده إن الرجال قوامون على النساء .. أمثل هذا يكون قواما على أمى .. فى أى شريعة يكون ذلك .. لا .. أنا كافر بهذا الدين ، وكافر بهذا الله الذى يقول إن أبى قوام على أمى .. والذى يقول واخفض لهما جناح الذل من الرحمة .. أخفضه لأمى .. نعم ، ولكن

لأبى هذا •• كيف ••؟ ألا أقول له أف •• أقسم •• أقسم بماذا !••
أقسم بشرف أننى أقول أف كلما ذكرت أبى •• أقولها فى نفسى ولو
كانت لى بعض جرأة لواجهته بها •• بل إنى كثيرا ما أجيب حديثه
بشىء من الكبر •• لا •• لا أستطيع أن أحترمه •• ولا أن أحترم دينا
يحترمه •• كيف أترك مذهبى إذن ؟ •• وإلى أين مصيرى إن تركته ••
فى أى ناحية من نواحى الحياة يكون تفوقى •• الشهادة الجامعية
فى يد الآلاف ، لا بد أن أكون شيئا غير هذه الشهادة ، وأى شىء يمكن
أن أكون ؟ لا مكان لى إلا هذه الخلية •• هى مجدى •• وهى
مجالى •• وليقل فؤاد ما يشاء أن يقول ، فما أستطيع أن أطيعه ••
لا •• لا أستطيع •

(٢٢)

على المقاعد الحجرية •• فى مرفأ القارب •• جلس فـوزى مطرقا مفكرا •• أيستطيع ان يصل ؟! وكيف !؟ أتصبح هنـاء ابنة سـهير هانم ابنة أحمد باشا شكرى لى ؟•• أيمكن هذا ؟•• ولم لا ؟ وإلا فما مجيئها إلى ، وما اهتمامها بى ؟ وحرصها على حديثى ••؟ نعم ، ولكن أيمكن هذا ؟ أنسيت من أنا ؟ وكيف تلتقى بأمى وأبى ؟ كيف ؟ أبى !! أبى ذلك الرجل الذى لم أعرف فى يوم من الأيام نوع تفصيل الحلة التى يلبسها ، ذلك الموظف الصغير •• الصغير جدا بوزارة الأوقاف ، والكبير •• الكبير جداً فى العمر يصبح حما هنـاء •• وأمى •• ماذا هى قائلة لها ؟•• أمى تصبح حماتها ؟ أمى التى لم أسمعها يوما تتحدث إلا عن مهارتها فى صنع الملوخية •• كيف أصل بينها وبين هناء ، وفى أى موضوع يمكن أن يدور الحديث بينهما ، وكيف ستحس أمى بالراحة وهى تتحدث إلى هناء •• وأبى •• نعم عودة إلى أبى •• ذلك الرجل الذى لا يزال كل بضعة أيام يدخل إلينا شاحب الوجه ، مضـطرب الحديث ، راعش الأوصال ، فنعـرف أن رئيس القلم — نعم رئيس القلم فقط — قد استدعاه ، وكلفه ببضعة أعمال •• أبى هذا يصبح حماها •• كيف سـيحادثها ، كيف سيكون الحـال بينهما •• كيف سيعاملها •• ؟! ما شأنى أنا بكيف سيعاملها ، وكيف ستعامله •• إنها ستصبح لى •• هى بكل أمجادها •• ومالى أخشى أن أقـول •• هى بكل ثروتها •• أليس هـذا التفكير برجوازيا •• نعم •• إنه يصبح

برجوازيا لو أفصحت عنه ، ولكن ما دام فى نفسى لا تعرف به إلا نفسى ، فهو بعيـد عن البرجوازية كل البعـد •• أظن أننى كنت موفقا كل التوفيق فى التأثير عليها ، وما أظن إلا أنهـا ستقبلنى ••

ولكن ماذا هى قائلة لأبيها •• أقصد لأمها ، فما أبوها بذى شأن •• لا أدرى •• ولكن أترضى بى ؟ •• ولم لا ؟•• إنها خيالية فى تفكيرها ، وقد تقبل الزواج لتحقق آمالها من الزواج بفقير •• ما الذى يدعوها إلى هذا •• لعله زواج أمها الفاشـل ، ولكن أباها نفسه فقير بالنسبة لأمها فيما أعلم ، لا أدرى •• إن للأغنياء جنونا •• وما أحب هـذا الجنون إلى •• فبـه أستطيع أن أصل إلى الأمل المنشود •• وما لى ولأمى حينذاك ولأبى •• على أن أشـق طريقى فى الحيـاة •• فإذا تزوجتها فطريقى رغد وهنـاء ••

وقطعت هنـاء تفكيره بقدومها :

ــ هنـاء •

ــ تأخرت عليك ؟

ــ نعـم •

ــ دقائق •

ــ هى عندى سنوات •

ــ لا •• كنت أنتظر تعبيرا جديدا •

ــ وأى جديد تريدين ؟

ــ لا أدرى ، ولكن هذا التعبير استعمل كثيرا •

ــ وما أدراك ؟

ــ اقـرأ •

ـــ آه •• صحيح •• نسيت أنك تكثرين من القراءة •• فأنت من قراءتك فى أحلام لا تنتهى •

ـــ وأنت ، ألا تقرأ ؟

ـــ بالقدر اللازم •• فالقراءة البرجوازية تفسد الأفكار •

ـــ أهناك قراءة برجوازية ؟

ـــ نعم قراءة القصص •

ـــ كل القصص ؟

ـــ لا بالطبع •• القصص التى لا تتحدث إلا عن الحب والعشـــق والهيـــام •• هذه قصص لا فائدة منها •

ـــ أرأيت ؟! ومع ذلك تحدثنى عن الحب ؟

ـــ نعـــم •

ـــ كيف ؟

ـــ هذه مشاعر لا يمكن التحكم فيها •

ـــ ولكن هذا يخالف مبدأك ؟

ـــ لا أبدا •• أنا أقصد الحب غير عملى •• أما حبى لك فعـــملى واضح •• ولولا أننى أخشى من أشياء كثيرة لطلبت يدك •

وأطرقت هناء فى خجل ، وأكمل هو حديثه :

ـــ إن ذكاءك أعظم من الخجل •

وظلت هناء على خجلها ، واستطرد هو :

ـــ طبعا يا ستى •• وأين أنا من حسام ، أو من جـــعفر ، أو من هؤلاء الأغنيـــاء الذين يتمنون رضاك •• أنا رجل فقير ، أبى موظف صغير ، وسيظل صغيرا إلى أن يخرج إلى المعـــاش ، وأمى امرأة



بسيطة ، وكل ثروتنا لا تتعـــدى نصف البيت الذى نعيش فيه ومرتب أبى ، أين أنا •• ؟

وأحس فوزى أنه يمسك بالخيط البالغ إلى قلبها ، فلم يترك هذا الحديث ، واندفع فيه فى اسهاب وقدرة واستغراق ، حتى لم يحس بســيد ، وهو يطل عليهما منا لحــديقة ، ولم يحس به وهو ينصرف عنهما •• لم يحس شيئا من ذلك ، ولم يسكته إلا حين رفعت هنـــاء وجهها عن الأرض ، والتقت العيون •

❋ ❋ ❋

كانت سهير جالسة بالدور الأعلى حين أقبل عليها عم دهب ، فعجبت من صعوده ، فما تعود ذلك إلا إذا كان يريد أمرا هاما •

ـــ خير يا عم دهب •

ـــ والله يا ست لا أدرى •

ـــ وكيف لا تدرى ؟

ـــ السيد بن عبدا لبديع أفندى •

ـــ ماله ؟

ـــ يريد أن يقابل سعادتك •

ـــ يقابلنى أنا ؟!

ـــ نعـــم •

ـــ لـــماذا ؟

ـــ والله لقد رفض أن يقول لى •• رفض رفضا باتا لم أتعوده منه طول عمره •

ـــ عجيبة •• دعه يصعد •

ولم يتكلف عم دهب أكثر من أن نادى :

ـــ يا سيد أفندى •

ورجع صدى صوته بسيد ، وحيا السيد سهير فى أدب ، ثم نظر إلى عم دهب الذى انصرف متعجبا ، وأقفل السيد باب الحجرة ، ووقف فى اضطراب ، وقد أخذت لحيته ترتعش مع شفته ، حتى استطاع أخيرا أن يقول :

ـــ يا ستى سهير ، أنا وأبى وجدى نشأنا فى بيتكم ، فان لم نحفظ لكم الفضل ، فنحن كفار •

ـــ قل يا سيد ما تريد •

ـــ ستى هناء ••

وفرجت سهير فاها ، وأنعمت فيه النظر فى دهش ، واستطاعت بصعوبة أن تقول :

ـــ مالها ؟

ـــ والله يا ستى أنا حائر لا أدرى ماذا أقول ، ولكنى أيضا لا أستطيع أن أسكت •

وقالت سهير وهى واجفة لا تزال :

ـــ قل مالها •

ـــ إنها تلتقى منذ زمن بعيد بفوزى صديق أحمد بك •

ـــ ماذا ؟

ـــ وفوزى هذا ولد ضائع •• وقد رأيتهما الآن معا •• يا ستى أنا آسف ، ولكنى لم أستطع أن أسكت •

وقالت سهير ذاهلة :

ــ أشكرك يا سيد •

ــ أستأذن يا ست هانم •

واستدار السيد يريد أن ينصرف ، فإذا الباب يفتح ، وتدخل منه هنــاء ، فيتنحى السيد عن فرجة الباب ويطرق برأسه إلى الأرض ، وتنظر إليه هنــاء بدهشة بالغة ، وتظل رانية إليه لحظات ، ثم يبين على وجهها كأنها فهمت ، فتصرف عنه عينها وتدخل الحجرة ، ويخرج هو متعثرا مطرقا لم يرفع رأسه •

ونظرت هنــاء إلى أمها ، فوثقت أن ما فهمته هــو الحقيقــة •• ووجدت هنــاء نفسها مضطربة ، فقد كانت تعد نفسها لأن تقول هى لأمها ما انتوت •• أما أن يسبقها النبأ •• وتلاقيها أمهــا بهــذا الوجه المكفهر • فهــذا ما لم تكن تتوقع •• ولكن ما يهم •• أنها قد عزمت •• قالت الأم :

ــ أصحيح ما سمعت يا هناء ؟

وقالت هناء فى حزم :

ــ نعــم •

ــ صحيح ؟

ــ نعــم •

ــ كيف •• كيف يحدث هذا ؟

ــ أليس لى الحق أن أختار ؟

ــ تختارين ولدا ضائعا فقيرا لا يملك شيئا !؟

وقالت هناء فى ثورة :

ــ أنا أكره المـــال •• أنا أكره المـــال وسيرة المـــال •• أبى تزوجك من أجل المـــال فقط ، فانظرى إلى حياتك •• أبى لا يهتم بغير المال •• جمع المـــال وبدد احترامنا له •• وفقد احترامك •• وفقد احترام الخـــدم •• أنا أكره المـــال •• أكرهه •• لا أحب الغنى ، ولا أحب الأغنياء ، ولا أريد المـــال •• لا أريد المـــال •

وطفرت الدموع من عينى سهير ، ولكنها تمالكت أمر نفسها سريعا ، وجففت دموعها ، محاولة أن تخفى الدموع ، وتخفيهـــا عن ابنتها ، وحاولت ببقايا روحها المبهورة الكســـيرة أن تلتقى بابنتها فى ثورة كثورتها !

ــ حمق •• حمق هذا الذى تقولين •• حمق وخرافة •• إن كان أبوك قد تزوجنى من أجل المـــال فقسدت حياتى ، فلأى سبب تعتقدين أن هذا الولد يطلبك •

ــ لا أدرى لأى سبب ، ولكن ليس من أجل المـــال •

ــ أيتها الحمقاء •• كيف تعرفين ؟

ــ أنا لست طفلة •• كلامه لا يدل على أنه يريد مالا ••

ــ لن يكون هذا •• لن يكون هذا أبدا •

وقالت هنـــاء فى حزم :

ــ أظن أنه يحسن أن يتم هذا برضاك •

وفطنت سهير لمـــا تقصد إليه ابنتها ، ولكنها لم تصدق ما سمعت ، فهى تقـــول :

ــ ماذا تقولين ؟

وأعاده هناء الحديث فى إصرار :

ــ نعم يحسن أن يتم هذا برضاك .

وقالت الأم ذاهلة .

ــ ألهذا الحد ؟

وقالت هناء وهى على إصرارها لا تزال :

ــ نعـــم .

ثم تركت الغرفة ، وخرجت واثقة الخطوات ، حازمة القسمات ، وظلت أمها تنتظر إلى ظهرها وهو يغيب عنها ، فما ردها غيابه عن أن تظل مثبتة العينين إلى حيث اختفت ابنتها ، ذاهـــلة النظرة ، والهة حسرى ، تتنزى نفسها ألمـــا وخوفاً وحيرة .

(٢٣)

كان أحمد جالسا فى حجرة مكتبه حين دخل إليه السيد حليق اللحية ، لا يزال الدم ينهمر من مواضع كثيرة فى وجهه ، من أثر السرعة التى أزال بها لحيته ، وكانت عيناه تائهتين فى نظرة هالعة ، وجسمه جميعه ينتفض فى خوف راعد ، ولم يلتفت أحمد من أمره إلا إلى هذا الجديد الذى طرأ عليه ، فقال فى سخرية ضاحكة :

ــ الله •• شيخ سيد •• ذقنك •• أين المرحومة ؟

وأجاب سيد فى هلع غير مكترث بمزاح أحمد :

ــ أحمد •• البوليس يبحث عنى •

وارتسمت على وجه أحمد أمارات الجد وهو يقول :

ــ ماذا ؟؟ •• البوليس ؟ لماذا ؟

ــ منذ مقتل النقراشى والحكومة تقبض على أفراد الجماعة جميعهم •

وضحك أحمد محاولا أن يهدىء من روع السيد ، وقال له :

ــ ما هذا الكلام ؟•• وأنت ما دخلك بمقتل النقراشى ؟

ــ لقد قبض على جميع زملائى ،، وأعتقد أنهم سيقبضون على حالا •• أحسن طريقة أن أترك البيت •

وقال أحمد ساخرا ، فما كان يعتقد أن للسيد هذه الأهمية كلها :

ـــ ما هذا الكلام الفارغ ؟•• أنت تخيف نفسك بلا مبرر •• وعلى كل حال ماذا تريد أن تفعل ؟

ـــ أريد أن أهرب ، وسأتصل بك يوميا فى التليفون ، فاذا لم أتصل بك يوماً فاعلم أنهم قبضوا على ، واتصل بوصفى باشا فورا .

ـــ وصفى باشا ؟

ـــ قل له إننى سأترك الاخوان •• أرجوك يا أحمد ، أنت لا تُعرف مقدار شقائى بالسجن إن أنا سجنت ، أنا أمل عائلة ، ونحن قــوم نريد أن نعيش ياسي أحمد ، وقــد كان طيشا وسأتركه ، أرجــوك يا أحمد بك .

ـــ يا أخى ، أنت لا تحتاج إلى هذا الرجاء الطويل •• وماذا تظننى كنت فاعلا •• طبعا كنت سأذهب إلى وصفى باشا .

ـــ طيب سلام عليكم .

ـــ وعليكم السلام •• أنتظر •• أين ستختفى ؟

ـــ هل معك نظارة سوداء ؟

ـــ نعم ها هى ذى •• أين ستختفى ؟

ـــ لا أدرى •• قد أخبرك حين أتصل بك .

ـــ وكم معك ؟

ـــ ماذا ؟ فلوس ؟ معى جنيهان ؟

ـــ مبلــغ لا يكفى طبعــا •• خــذ •• أنا ليس معى إلا أربعــة جنيهات ، خذها .

ـــ شكرا •• أظن أن ما معى يكفى .

ـــ خذ •• وحين تكلمنى أكون قد أعددت لك مبلغا آخر .

وأخذ السيد الجنيهات الأربعة ، واستدار ليترك الغرفة ، ولكن الباب فتح ودخل منه ضابط وشرطيان ، ونظر السيد إلى أحمد يائسا ، ونظر أحمد إليه دهشا ، فقد كان يظن أنه يضفى على نفسه من الأهمية ما لا يتمتع به .

* * *

استقبل وصفى أحمد متجهما بعض الشيء ، الأمر الذى عجب له أحمد ، فما تعود منه هذا .. وسأله وصفى :

ـ خير ؟!

ـ لقد قبض البوليس على السيد بن عبد البديع أفندى .

ـ لماذا ؟.. أهو من الجماعة ؟

ـ نعم .

ـ هيه .. ومتى سيقبضون عليك ؟

وفغر أحمد فاه وانفرجت عيناه عن نظرة دهشة واسعة :

ـ على أنا ؟

ـ نعم أنت . أتظننى لا أعرف .. ألا تفكر فى أمك المسكينة .. ألست إنسانا ؟ .. ماذا جنت حتى تفعل بها هذا أنت وأختك .. ألا تعلمان أنها مريضة بالقلب .. ألا تخشى عليها أن تموت ؟

ـ أنا ، ماذا فعلت يا عمى ؟

ـ أنت شيوعى يا سى أحمد

ومست قلب أحمد فرحة أنه مثار اهتمام ، وأن عمه وصفى باشا يعرف أهميته ، ولكنه قال :

ـ من قال يا عمى ؟

ـــ لا تحاول أن تتنكر ..

ـــ ولكن يا عمى ..

ـــ وحياة والدك لا لزوم لهذه الطريقة الصبيانية ، أرجـوك .. من أجل أمك .. أشفق عليها يا أخى من أجل مرضها على الأقل .. وثق يا أحمد أنه إذا قبض عليك ، فانه يصعب جدا أن تعتمد على كما تريد أن تعتمد على الآن فى مسألة السيد .

ـــ والله يا عمى ..

ـــ والله يا بنى أنا حذرتك وأنت حر . اترك حكاية السيد ، ولا تنتظر أن تنتهى بسرعة ، أمامها مدة .

ـــ شكرا يا عمى .

ـــ الشكر يكون بمراعاة أمك ياسى أحمد .. مع السلامة .

(٢٤)

كان القصر يرزح تحت رزء كبير ، فقد كان زواج هناء خطبا فادحا حاول الأب أن يمنعه بسلطته المتهالكة فلم يستطع ، فقد أفهمته سهير أن الزواج فى البيت برضائهما خير من أن تخرج الفتاة عن طوعهما للتزوج وحدها ، وتضعهما أمام الأمر الواقع ، ولن يجديهما يومذاك أن يلوذا إلى القضاء ، فأمامه ستعلن فضيحة ينبغى لها أن تستتر بل إن سهير أفضت إلى سليمان بما يراودها من خوف أن تخرج الفتاة عنهما بلا زواج على الاطلاق ، وما يراودها من خوف أن ينفرد بها هذا الصعلوك ، وينتهز فرصة مقاطعتهما لها فلا يستطيعان لها عونا إن هى احتاجت لعون • فاقتنع سليمان •

وحاول وصفى أن يعين سهير فى محنتها ، وعرض عليها أن ينقل فوزى من وظيفته بالقاهرة إلى الأقاليم ، ولكن الرأى استقر بينهما على أن هذا لن يجدى فى شىء •

وهكذا تم عقد القران فى مأتم بلا معزين ، إلا أهل القاتل وأهل القتيل ، فقد جاءت أم فوزى ، واستطاعت أن تزيد النار اشتعالا فى نفس سهير ، وإن كانت لم تستطع أن تجعلها تخرج عن صمتها اليائس الحزين ، فقد كانت أمه معجبة بنفسها ، تحاول جاهدة أن تصبح ندا لهذا البيت الذى تناسبه • أما الأب فقد كان أكثر ادراكا للموقف ، فاتخذ لنفسه مكانا قصيا ، وصمت حتى انتهت المراسم ، وغادر البيت وجلا كما دخله •

وأغضى سليمان على النـــار عرفهـــا لأول مـــرة تتناش فؤاده ، وخجل أحمد من الهـــدية التى قدمهـــا الى القصر ، ونسى حينذاك مبدأه وأفـــكاره وفلسفته ، وكره هذا اللص الذى تسرب تحت وقاء من الصداقة ، واختلس أختـــه فى ضباب من النظـــريات والألفـــاظ البارقة ، والغش الخادع الخسيس •

ولم يكن أحمد ليغبى أمر فوزى ، وان يكن قـــد قبـــل أن تتوطد بيهما الصداقة • ولم يكن يتوقع أن أخته تقبل أن تلتقط هذا الفتى من عرض الطريق لتجعل منه زوجا لها ، وفى غفلة من عـــدم التوقع هذه لم ينتبه أحمد الى الذئب يجوس فى عقر داره • وقد عزم أحمد على أن يقطع علاقته بفوزى ، ثم سمع هذا الحديث من أمه ، فعزم على أن يجعل صلته بفوزى بحيث لا ينتبه أحد الى انقطاعها ، وأصر فى نفسه على ألا يدخل بيت أختـــه مهما تكن الأسباب والدواعى •

وكان موقف سميحة من هـــذا الزوج هو موقف أختهـــا سهير ، وقد حزن فى نفسها الألم الذى ترى آثاره على ابنها ببيـــاض النهار ، اذا رأته بياض النهار ، والذى ترى آثاره فى غيـــاب ابنها عن البيت الى أعماق الليـــل ، أو هامات الصباح ، دون أن تدرى أين يغيب ، الأمر الذى كانت تجهـــد نفسها أشـــد الجهد فى اخفائه عن زوجهـــا وتمويه حقيقته عليـــــه •

وكان الخدم فى القصر جميعهـــم يشـــعرون بالتعاسة التى ترزح على القصر وساكنيه ، وكانوا يدرون مبعثهـــا ، وكان حزنهـــم لهـــا عميقا ، فقـــد كانوا يتمنون أن يفرحوا بستهم هنـــاء ، وقـــد كانوا يتمنون أن تتزوج من رجـــل يستطيعـــون أن يحترموه ، فمـــا كان

زوجهـا أمامهم الا شخصا يتسقط على مائدة أحمد بك ، ثم لا شيء بعـد ذلك ٠

هـكذا كان القصر جميعه واقعـا تحت هـم واصب ثقيل ، فلم يضم بين جدرانه الا شخصا واحدا لم يحفل هذا الاعراض وهكذا الحزن ، هو هنـاء نفسها ٠٠ فقد اندفعت فى حمأة زواجهـا كشيء أنقى بنفسه الى منحدر يصبب فى هاوية فما يفـكر لأنه لم يعد يملك التفكير ، وما يرتد ، لأنه لم يرغب فى هذا الارتداد ٠ لم يكن حبهـا لفوزى حبـا جارفا يقتلع العوارض والعراقيل ، ولكنها استطاعت مـع ذلك أن تحطم كل ما وقف فى سبيلها ، وهى نفسها عاجبة لماذا تبذل كل هـذا الجهد !! انهـا تعلم أنه ليس حبها لفوزى ما يثير فى نفسها كل هذه القوة ٠ كانت تظن أن كرهها لأبيها ولمـا أنزله بأمهـا هو ما يبعثها الى العنف والاصرار ، ولكنها كانت تعود فتفكر أنهـا هى نفسها بما تعمله تنزل بأمهـا أقسى ألوان العـذاب ، وهى تعلم أنها مفئودة ، وأنهـا تتعرض بهذا العذاب الى نوبة قد تودى بهـا ، وتترقرق فى عينى هناء الدموع اذا جرى بها التفكير الى هذا المتجه ، ولكنها تعـود الى دموعهـا فتحبسها ، والى النسمة الهـادئة التى تراوح قلبهـا فتعصف بهـا فى قسـوة ، ان كل هـذا أهون من أن تتزوج شخصا لم تختره هى ، ولم تصـل بينهـا وبينـه أوشاج من الهوى ، مهما تكن أوشاجا هينة ، كهـذه التى تربطها الى فوزى ٠ ان هـذا جميعه أهون من أن تختار أمها لها أو يختار أبوها ، لقـد كانت خليقة أن تقبل حسـام لو لم يكن ابن خالتهـا ، ولو لم يكن أبوها وأمهـا راغبـين فى تزويجها منـه أشد الرغبة ، ولو لم يكن غنيا ، لقـد كرهت الغنى كما قالت لأمهـا ٠٠ كرهته حين رأت أباها

ولا هم له إلا أن يصبح غنيا مهما يجنح به هـذا العـزم الى انتهاب أموال أمهـا وخالتها التى لجأت آخر الأمر الى زوجها أن يحميها ، ولن تنسى هناء يوم تمت القسمة بين أمها وبين خالتها ، ولن تنسى تلك الدموع التى سفحتها أمهـا ، مـع أنها هى التى ألحت فى تنفيذ هـذه القسمة ، حتى تنقذ أختها من يد زوجها الغائلة ، وحتى تنقذ أولادها مما قـد يكون بين سامى وسليمان من فضائح •• فقد كانت تعـرف زوجهـا •

وتجمعت البـواعث فى نفس هنـاء ، ولم يـكن أقـواها حبهـا لزوجهـا ، ولكنها بواعث قـد تعبرها عين الناظر إذا عرضت عليه متفرقة ، فان تجمعت جعلت من هنـاء هـذا الاعصار الذى يدور فى القصر فينفذ ما يشاء فى تبجح هادىء فما كانت تحتاج الى ثورة •

لم تكن لهناء من مطالب بعـد أن تم عقـد القران ، وحين فكرت أمها فى جهازها ، سكبت دموعها غزيرة ، ان اللـه لم يشأ أن تفـرح بجهاز عروس أبدا ، ان جهازها هى اختير لها ، ولم يكن لهـا فيـه رأى ، وحين أنجبت هنـاء ، كانت تمنى نفسها أن تعوض فى جهازها ما فوتته على نفسها أيام عرسهـا ، ولـكن ها هى ذى ابنتها تخـذل آمالها ، كما خـذلت هى آمال نفسهـا حين تزوجت • وكانت سهير تحاول أن تخفف من آلمهـا بعض الشىء ، حين تهمس الى نفسها أن لعـل ابنتها تسعد فى ظل زوج أحبته ، ولـكنها حين تذكرت قسمات ابنتها وهى تفضى اليهـا باصرارها على الزواج ، وحين ترى ابنتها رائحـة فى البيت غادية ، جامدة النأمات ، صلبـة الوجه ، وحـين تراها مستسلمة لمصيرها هـذا الذى اختارته •• وحين ترى فوزى وترى مقـدار تبجحه على البيت ، واقباله على قـوم يعلم أنهـم

عازفون عنـــه •• حين تذكر وترى هــذا جميعه ، ما تلبث أن تذوب الهمسة المتفائلة فى طوفان من هم كبد •• فما هــذه تصرفات فتــاة فى قلبها هوى ، وما هذا الفتى بمستطيع أن يثير فى فؤاد فتاة حبا •

ولــكن هذه الأفكار جميعها لم تمنعها من أن تسأل ابنتها عمــا تريده فى جهازها ، وقالت الفتاة :

ـــ لا أريد الا أشياء بسيطة فسنعيش فى شقة صغيرة •

وارتاحت الأم أنها تنتوى أن تبتعد عنها بزوجها هــذا الـسكريه ، ولكنها رأت أن تقول لهــا على سبيل المجاملة :

ـــ ولم لا تعيشان معنا هنــا ؟

وقالت هنــاء فى حــزم ، شأنها منــذ أعلنت عن رغبتها فى هــذا الزواج :

ـــ لا •

ولم تجد الأم وسيلة تقطع بها الحديث أن يطول ، الا أن تعطى ابنتها ألفى جنيه تفعل بهما ما تشاء ، وقبلت هناء المــال ، ووضعته فى صوانها ، وضمت اليه مائة جنيه ، دفعها زوجها مهرا ، وانتظرت أن تسأل زوجهــا عما يفعلان •

وفى يوم جاء فوزى وطلب الى هناء أن يخرجا للنزهة ، وخرجت معه فى سيارة أبيهــا ، وما أن تركا البيت ، حتى اسـتوقف فوزى السائق ، وأمره فى ثبــات أن يترك السيارة ليقودها هو • ودهشت هناء بعض الشيء من طريقته فى اصدار الأوامر ، ومن اعطاء نفسه الحق فى قيادة سيارة لا يملكها ، ولــكن دهشتها لم تزد على غصة فى نفسها ، وسألت فوزى :

ــ أتعرف كيف تسوقها ؟

وأجاب فوزى فى اقتضاب :

ــ نعـــم .

وقبـل أن تسأله هنـــاء كيف تعلمت ، قال هو فى نغمة ساخرة بعض الشيء :

ــ طبعا لم تـكن عنـــدى سيارة ، ولكنى تعلمت كيف أســـوق بسيارة أخيك أحمد .

وسكتت هنـــاء ، ولـــكن السائق لم يصدع بأمر فوزى ، فمـــا تعـــود أن يتلقى منـــه أوامر ، ورأت هنـــاء تردد السائق ، فسارعت تقـــول :

ــ اذهب انت الى بيتك يا أسطى عبـــده .

وصـــدع السائق بالأمر فـــور سماعه ، وانتقل فوزى الى مقعد القيادة ، وانتقلت هناء الى جانبه ، وأحس فوزى بتردد السائق ، ولكنه أغفل أمره ، فقد ذكره اسم أحمد بأن يسأله هناء :

ــ وحتى أحمد غير موافق على زواجنا .

وقالت هناء فى استسلام :

ــ وما يهمـــك أنت ان كان يوافـــق أو لا يوافـــق ، ما دمت أنا موافقة ، وما دمنا قـــد تزوجنا فعلا ؟

وقال فوزى فى غير اكتراث :

ــ على رأيك .

ثـــم قال :

ـــ اننى معـــد لك مفاجأة هائلة .

ـــ خـــير ؟

ـــ وكيف تكون مفاجأة اذن ؟

ـــ ومتى أراها ؟

ـــ نحن فى طريقنا اليها .

وصمتت هنـــاء ، واتخذتالسيارة طريقهـــا الى الزمالك ، وأمام عمارة فاخرة ضخمة ،أوقف فوزى السيارة وقال لها :

ـــ انـــزلى .

ونزلت هناء ،وقد ، حزرت ما هى مقدمة عليـــه ، ولكنها لم تشأ أن تصدق حدسهـــا ، فان العمارة التى يدخلانها باذخة الفخامة ، لا تتناسب اطلاقا مـــع ما كانت تهيىء نفسها له من بيت متواضـــع يتفق وقلة المـــال عنـــد فوزى ..

ولم يكن ثمـــة مجال لـــكثير من التفكير ، فقـــد وجدت نفسها فى مصعد أنيق ، ثم وجدت نفسها أمام باب شقة يفتحه فوزى بمفتاح معه ، ثم وجدته يلتفت اليها قائلا :

ـــ هيه .. أتريدين أن أحملك كما يفعل الغربيون ؟

ولم تضحك هنـــاء من محاولة المزاح ، ودخلت البيت ، وراعتها أناقته ، وأذهلتها سعته .. ست حجرات وبهو .. لـــماذا هذا جميعه؟ وسمعت فوزى :

ـــ وطبعا سأتفق مع مهندس لتزيين الجدران ، ورسم الأثاث .

وازدادت هنـــاء ذهولا ، وقالت :

ـــ ولكن أليس كبيرا ؟ !

فقال ساخرا :

ـــ أهو كبير ؟ .. وأين هو من القصر ؟

فقالت هنـــاء :

ـــ ولكن هل يكفى مرتبك لهـــذا البيت ؟

وقال فوزى وهو يغمغم الكلام :

ـــ هـــذا أمر ندبره .

ولم تزد هنـــاء شيئا . وظلت صامتة وهو يتحدث عن مشروعاته فى تجميل الشقة ، وفى اختيار الأثاث ، وفى الميزات التى فى الشقـــة وفى أى مكان مبيت السيارة لا يؤخذ عليـــه أجر إضـــافى ، وصكت كلمة السيارة ســـمع هنـــاء ، فنظرت اليـــه ، ولكنها لم تتكلم ، بل ظلت على صمتها .. لازمت الصمت وهـــو لا ينقطع عن الحديث .. لازمت الصمت وهما فى الطريق الى سيارة أبيهـــا ، ولازمت الصمت وفوزى يحييها مودعا ويترك مكانه من السيارة .. ظلت على صمتها حتى صعدت الى الطابق الأعلى من البيت ، وحين رأت أمها جلست أمامها صامتة .. وطال بهـــا الصمت هونا ، ثم تماوجت دمعـــات فى عينها ، سارعت باخفائها دون أن تلحظ أنها تأخرت فى هذا الاخفاء ، فقـــد كانت الأم مثبتة النظرة اليها ، ترى وجهها فكأنما ترى كـــل ما تخفيه خلفه .. وأخيرا قالت هناء :

ـــ نينا .. لن يكفينى ألفا جنيه للجهاز .

وقالت الأم فى تؤدة وهى ناظرة الى ابنتها لا تزال :

ـــ نعـــم أعـــرف .

(٢٥)

أقبـل حسـام على بار الشباب ، فتطلع اليـه الرفاق فى حب واشفاق ، شأن الكريم هان بعـد كرامة ، وأحس حسام بالاشفاق فى نظرتهم ، فقال غاضبا :

ـ مالـكم ! • ما هـذه النظرة وكأنى مسكين تعطفون عليـه •• هات كأسا يا بنى ، وكان سعد أسرعهم الى الحديث وأجرأهم فيه :

ـ نعم •• أنت مسكين بهذا السم الذى تطفحه كل يوم •

ـ ولمـاذا يا سيدى ؟ •• منـكم نستفيد ، ألم تكن أنت تطفح منـه يوم طردك عمك ؟ !

ـ كنت أهبـل •• وكنت أهبـل لمدة يوم واحـد ، أو سـاعة واحدة ، ثم عقلت ، ولكنك أنت مصر على هبلك •

ـ يا أخى ، أنا حر •

وقال سميح :

ـ ما هـذا الكلام الفارغ ؟ •• لا يا أخى ، أنت لست حـرا •• ما معنى أن تأتى إلى هنا كل يوم ، وتظل تشرب حتى لا تعى ، ونظل نحن ناظرين إليك ، كأنك مريض بيننا •• إن كنت مجنـونا يا أخى فلماذا لا تذهب إلى المستشفى ؟!

وجاء ينى بالكأس ، فشربها حسام دفعــة واحدة ، وطلب أخرى ، ونظر إلى سميح قائلا :

ـــ نعم ياسى سميح •• ألست أنت من قلت لى إن الخمر مفيدة فى هذه الأحوال ؟

ـــ يا أخى غلطت ، وهل تراها حضرتك مفيدة ؟!

ـــ نعم •• إنها مفيدة •• إنها تنسينى ما أحب أن أنساه •

وضحك أصدقاؤه ، وقال سعد :

ـــ يا عم صــل على النبى •• واللــه إن بنت الكلب هــذه تزيد الانســـان تذكرا •• كيف تنسى شيئا لا تزال تفــكر فى أنك تريد أن تنساه •• هذه خرافة وشرفك ••

وقال حسام وهو يشرب الكأس الثانية :

ـــ ما هذا الهجوم ؟ •• أنا سأشرب ••

وقال سعد :

ـــ اسمع •• إن عبد الجواد أفندى أعد لنا الليلة شيئا ••

وقبل أن يكمل سعد حديثه ، قاطعه حسام :

ـــ قديمة •• هذه لعبتى أنا يا حبيبى •• أتضــحك على بما كنت أضحك به انا عليك ؟

وضاق الرفاق بالحديث ، ورأوا أن لا فائدة ترجى من حسام ، وأحس حسام بضيقهم ، فما وقف به هذا عن ابتلاع الكؤوس مترعة متلاحقة ، حتى لم تمض ساعة إلا كان ســكران ، وحين قام الرفاق ليمضوا إلى عبد الجــواد أفندى ، تخلف سعد لأنه رأى حســام لا يستطيع أن يقيم أوده ، فبقى معه ، وظل يحثه على القيام ، حتى

قبل آخر الأمر ، وقام متعتعا يتكفى ويهذى بحديث لا يكتمل ، حتى وضعه سعد فى السيارة وركب إلى جانبه ، وراح يقود السيارة فى طريقه إلى البيت •

وحين وصل الصديقان إلى بيت حسام ، كان حسام نائما لا يحس شيئا مما حوله ، وحاول سعد أن يرده إلى الوعى ، ولكن محاولته فشلت فشلا تاما ، فلم ير بدا من الالتجاء إلى البواب ليحمله خفية إلى حجرته •

وجاء البواب يستغفر الله آسفا أن يرى سيده على هذه الحال ، وتعاون هو وسعد على حسام ، وكلاهما مقطب الجبين ، بادى الألم ، وصعدا إلى الدور الأعلى ، وكانت نوال جالسة فى البهو تتحدث فى التليفون ، فحين رأت أخاها محمولا ألقت بالسماعة ؛ ودقت صدرها بيدها ، وأسرعت تسأل عما أصابه فى لهفة ألهتها عن أن تخفض صوتها ، فأشار إليها سعد أن تحذر ، وهمس لها بالحقيقة ، ولكن همسه جاء متأخرا ، فقد كان سامى جالسا إلى زوجته فى حجرتهما فسارعا يستطلعان ما أثار لهفة ابنتهما ، وطالعهما ابنهما محمولا غائبا ، واندفعت الأم والهة وجمد الأب مكانه واجفا ، ولم يجد سعد بدا من أن يفضى إليهما بالحقيقة ، فقد وجدها أهون مما يخشيانه ، أو خيل إليه أنها أهون مما يخشيان • وحاولت الأم أن تقود حاملى ابنها إلى حجرته ، ولكن الأب قال فى صرامة قاسية :

ــ ألقيا به إلى الأرض •

وتردد سعد والبواب ، ولكن صوت الأب أرعد فى حسم :

ــ ألقيا به إلى الأرض •

فانفرجت يدا البواب عن قدمي سامي ، ووضع سـعد رأس حمله على الأرض ، ولم يكد حتى انفتل إلى السـلم يطويه أربعا أربعا يقع بجسمه الضخم على درجاته ، ثم يقوم كأنه لم يقع ، حتى غاب عن الأنظار التي تبعته في وجوم ، وأمر الأب بالماء فأفـرغ على وجه ابنه حتى أفاق ، ووقف حسام مترنحا وأمه شـاخصة إليه ، حائرة لا تستطيع لأبيـه دفعا ، وهو في خمار السـكر غير مقـدر للموقف الذي ألقى بنفسه إليـه ، ولم يمهله أبـوه ، فراح يصفعه بحده وهو يتقي يد أبيه بيـد مترنحة ، لا تستطيع أن تثبت على مكان ، حتى إذا هـدأ أبوه ـهونا ، راح يدفعه إلى الحجرة وهـو يقـول :

ـ منذ الغد لن ترى القـاهرة يا كلب .. منذ الغد سألقى بك إلى العزبة يا سكير .

وحين أصبح حسام في الغرفة أقفل أبوه عليه الباب ، وعاد إلى حجرته دون أن يلتفت إلى زوجته أو ابنتـه ، ونظرت سميحة إلى نوال ، والتقت بعينيها نظرات ابنتها حسيرة ، وفهمت كلتاهما ما يدور بنفس الأخرى ، فجرت الدموع في عيونهما .

وتذكرت نوال التليفون الذي كانت ممسكة بسـماعته حين جاء حسام .. أو حين جيء بحسـام ، فنظرت إلى حيث تركت السماعة ، ولكنها لم تتحرك ، فقد أدركت أن هنـاء لا يمكن أن تظل منتظرة طوال هذه المدة .

ونظرت الأم حيث نظرت ابنتها ، ثم أطرقت وعادت إلى زوجها

ولم تجد نوال شيئا تفعله ، فعادت إلى السـماعة ، وهمت أن تضعها على الحامل لولا أنها سمعت :

ـــ آلو •

ـــ آلو •

ـــ ماذا جرى يا نوال ؟

ـــ هناء •• هناء •

وانخرطت نوال فى بكاء غزير الدموع ، وهناء على الطرف الآخر لا تزال تلح عليها أن تطمئنها •

وأخيرا قالت نوال :

ـــ إنه ما فعلته بنا يا هناء •• إنه ما فعلته بنا ••

ـــ أنا ؟

ـــ نعم •• أنت •• ويا ليتك سعدت • إذن لارتحت أنا بعض الشىء ، وعزيت نفسى عن شقاء أخى بسعادتك أنت •• ولكنك حتى لم تسعدى نفسك يا هناء •• وتأبين إلا أن تزيدى شقائى فلا تجدى إلا أنا ، لتبثيها ما تلاقينه من زوجك وأهله •• أنا وحدى فى العائلة التى أتحمل الشقاء شقاءين •• شقاء أخى بك ، وشقاءك أنت بغير أخى ••

ولم تر نوال الدموع الجارية على خدى هناء ، ولم تحس النار اللاهبة التى ازدادت اشتعالا فى نفس بنت خالتها التى اتخذتها أختا •• لا لم تر نوال الدموع ، ولا أحست النار •• أو لعلها أحست وميضا خابيا من هذه النار ، حين طرقت أذنها سماعة هناء ، وهى تستقر فى مكانها من الحامل منهية الحديث •

(٢٦)

قام فوزى من نومه مبكرا ، شـأنه كل يوم ، فوجد زوجته قـد صحت وجلست تنتظره ، لتتناول معه طعام الافطار ، وحين جلسـا إلى المـائدة قال فوزى :

ــ ماذا .. فول ؟

ــ نعم وما عيب الفول ؟

ــ كل يوم !.. بعض الرحمة .

ــ إنى أقدمه لك أحيانا فى الفطور فقط ومعه أصناف أخـرى .. كفرت ؟!

ــ يا ستى أنا لم أقل شيئا .. وهل أستطيع أن أقول شيئا .. فـكله من خيرك .. إن كان فولا فأنت من تدفعين ثمنـه ، وإن كان قشدة فأنت من تدفعين ثمنها .. هل أستطيع أن أتكلم ؟

ــ ما معنى هذا الكلام ؟.. إنك دائما تعيرنى بأنى أدفـع ثمن الأكل .. ماذا تريدنى أن أفعل .. يا أخى قل لى ما تريدنى أن أفعله وأنا أنفـذ ..

ــ يا ستى العفو .. وهل أستطيع .. إنما يأمر الرجل الغنى الذى يستطيع أن يدفع ثمن ما يطلبه .

ــ يا أخى مرنى ولا تدفع .. ولكن فقط لا تنكد على عيشتى كل هذا النكد .. ماذا جنيت ؟

— يا ستى ماذا أكون أنا حتى أنكد عليك ؟.. العفو العفــو ..!

ولم تستطع هنــاء أن تكمل طعامها ، بل إنها لم تستطع أن تبدأه ، فقامت على المــائدة مغضبة وهى تقــول :

— لا .. لا أستطيع .. لا يمكن .

وأسرع فوزى قائلا :

— خادمتك .. أمى ستأتى اليــوم ، فأرجو أن تتكرمى باعــداد شىء لهــا .

وسمعت هناء الحديث وانصرفت دون أن تلقى إليه التفاتا . وفرغ هو من طعامه هادئا ، وقام إلى الباب الخارجى وصفقه من خلفــه ومضى .

وظلت هناء فى حجرتها تبكى بكاء مرا ، ولكنها لم تكد حتى سمعت جرس البـــاب ، فظنت أن زوجها نسى شيئا فعــاد لاحضــاره . ولكنها دهشت حــين سمعت صــوت حمــاتها يرن فى البهــو قائلة للخـــادمة :

— أين سيدك ؟

وقبل أن تجيب الخادمة ؟ سارعت تقول :

— وأين ستك ! .. أهى نائمة ؟

وقالت الخادمة فى جمود :

— سيدى وستى تناولا الافطار معــا ، ونزل سيدى إلى عمله ، وستى صاحية فى غرفة نومها .. سأناديها .

ودخلت الخادمة عند هناء ، ولم تمهلها هنــاء لتعلن إليها قدوم الست الكبيرة ، بل عاجلتها قائلة :

— أحضرى التليفون •

وحاولت الخادمة أن تقـول شيئا ، ولكن هنـاء سـارعت قائلة فى حـزم :

— أحضرى التليفون •

وخرجت الخادم لتعود بعـد لحظات حاملة التليفون ، وأدارت هناء القرص ، وما لبثت أن قالت :

— من ؟•• لواحظ ؟ •• أين ستك نوال ؟ •• أيقظيها •

وبعد لحظات من الصمت قالت هنـاء :

— نوال •• سآتى إليك الآن •• سـأخبرك حين آتى ، المهم أن ترتدى ثيابك وتنتظرينى •• نعم فورا •

ووضعت هناء سماعة التليفون ، وقامت إلى ثيابها فوضعتهـا على نفسها دون عنـاية ، ومدت يدها إلى درج خفى فى صوانها ، فأخرجت منه كل ما فيه من مال ، ووضعته فى حقيبة يدها الصغيرة ، ولم تلق إلى المرآة نظرة ، وخرجت إلى البهو لتجـد حماتها قد جلست على الأريكة فى عظمة تقول لها :

— صح النوم يا هانم •

— أهلا تيزة •

— أهلا بك يا أختى ••• أيصـح أن تتركينى سـاعة أنتظرك ، افرضى أنى جائعـة وجئت أتناول الفطور عندك •• أهـذا يليق ؟ ولكن لم لا •• أين نحن منك •• طبعا وهل نتوصل ؟

وقالت هناء فى هدوء بارد :

— كنت ألبس يا تيزة •

ـــ وما لزوم اللبس يا أختى •• أم تريدين أن تشعرينى أنى جئت مبكرة •• حسبت أنى أجىء إلى بيت ابنى فى أى وقت •• نسيت يا حبيبتى أن البيت ليس بيت ابنى •• نسيت •• لا مؤاخذة •

ـــ لا أبدا يا تيزة •• هو بيت ابنك كما حسبت تماما ، هو بيتك •

ـــ العفو •• ومن أين لى ببيت كهذا ؟ •• والله يا حبيبتى اضطررت أن آتى الآن ، لأن عمك ـــ لا مؤاخذة ـــ أقصد زوجى ، ينزل إلى الديوان الآن ، فنزلت معه ، لأنى لا أستطيع أن آتى وحدى ، ولكن لا تخافى يا حبيبتى •• لقد تناولت فطورى قبل أن أجىء •• وسأقعد معك أسليك حتى يجىء زوجك •

ـــ أشكرك يا تيزة •• ولكن هل تسمحين لى أن أنزل لأغيب عنك نصف ساعة فقط ، ثم أعود ••

ـــ الآن •• والساعة لم تصل إلى التاسعة ؟

ـــ نوال بنت خالتى تريدنى فى شىء مهم •• سأصل إليها وأعود •

ـــ إن كنت ضايقتك أنزل أنا •

ـــ أبدا •• البيت بيتك وسأعود حالا •• أتركك بخير •

وقبل أن تسمع هناء كلمة أخرى من هذا الحديث الذى لم تسمع غيره منذ تزوجت ابن هذه المرأة ، سارعت إلى الباب الخارجى للشقة وانفتلت منه إلى الخارج ، وهى لا تكاد تصدق أنها أصبحت فى الطريق ، ونزلت إلى الشارع ، ووجهها كله عزم وإصرار ، ونادت أول سيارة أجرة ، وأعطت السائق عنوان خالتها •

وعند الباب الخارجى نزلت ، وطلبت إلى السائق أن ينتظر ،

وقفزت السلالم قفزا سريعا متواثبا إلى حجرة نوال ، فوجدتها قد ارتدت ثيابها وجلست تنتظرها •

ـ نوال •

ـ ماذا ؟

ـ قلت لى : إن لك صديقة ذهبت إلى يهودى أجرى لها عملية اجهاض ، لأن زوجها فقير لا يريد أطفالا أكثر مما لديه •

ـ نعـم •

ـ ما عنوان هذا اليهودى ؟

ـ وكيف لى أن أعرفه ؟

ـ طبعا صديقتك ليس لها تليفون •

ـ بالطبع لا •• إنها صديقتى من المدرسة ، وقد قصت على هذا الحديث حين زارتنى •• ما الذى أذكرك به ؟

ـ أريد أن أذهب إلى هذا اليهودى •

ـ هل أنت مجنونة ؟!

ـ أريد أن أذهب إلى هذا اليهودى •

ـ وكيف لى أن أعرف مكانه •

ـ ما عنوان صديقتك •• أنت تعرفينه •• لقد قلت لى أنها اصطحبتك يوما إلى بيتها •

ـ ماذا تريدين أن تفعلى ؟

ـ هل تعرفين عنوانها ؟

ـ نعـم •

— فقومى معى •

— هل أنت مجنونة ؟

— ليس بعد . أنا الآن فى تمام عقلى ، وسأكون مجنونة إذا لم أفعل ما أنا مقـدمة عليه •

— ماذا تريدين أن تفعلى ؟

— أنا حامل فى شهرى الثانى ، وأريد أن أجهض نفسى الآن •

ودقت نوال صدرها بيدها قائلة :

— ماذا ؟

— اسمعى •• أمى أضاعت حيـاتها من أجل أخى أحمـد ومن أجلى •• لا أريد أن أضيع حياتى •• لا أستطيع العيش مع فوزى ، لقد حاولت •• حاولت بكل ما أستطيع •• لا أطيق العيش معـه ، لقد حاولت أن أكتم عن أمى ما أقاسيه لأننى أنا من اخترته ، أما الآن فلا يهمنى ما تفعله بى أمى ، لا يهمنى شىء فى الوجود إلا أن أنقـذ نفسى من هذه النار التى ألقيت بنفسى إليهـا ، أنا أكره فوزى •• أكرهه بدمى جميعا ، بل إن شعورى نحوه أشد من الكره •• لا ليس شعورا ما أحسه نحوه •• إنه اسقاط له من حياتى جميعا ، إنه شىء حقير قذر ، دنس فترة من حيـاتى ، ولا أريده أن يدنس حيـاتى جميعها •• لا أستطيع العيش معه •

وترقرقت الدموع فى عينى نوال وهى تقول :

— وما ذنب طفلك ؟

— إنه لم يعد طفلا بعد •• ولا أريده أن يتحمل حيـاة لم يجن هو شيئا فيها •• نعم إنه لا ذنب له ، ولذلك أريد أن أنقذه من أبيه

حين يكبر ، وأريد أن أنقذه من العيشة بلا أب قبل أن يكبر ، وأريد أن أنقذه من الحقيقة التى كشفتها فى أبيه •• إنه شىء بلا أخلاق •• بلا أخلاق على الاطلاق •• ليس لأى شىء قيمة فى نظره •• أريد أن أنقذ ابنى من أبيه ، وأريد أن أنقذ نفسى من أمومة أشك فى أنها ستكون صالحة •• إن هذا الجنين الذى فى أحشائى لا يزال جنينا •• أريد أن أخلصه من الحياة قبل أن يلتقى بالحياة •

وكانت الدموع تنهمر من عينى هناء وهى تتحدث ، كما كانت تنهمر من عينى نوال ، ولكنها مع ذلك استطاعت أن تقول أقسى قول يمكن أن يقال لهناء فى لحظتها تلك :

ـ أليس هذا هو فوزى الذى أشقيت به المسكين حسام ؟

ونظرت إليها هناء نظرات آلمة حزينة ، ثم أطرقت وهى تقول :

ـ لا •• ليس هو •• لم أعرفه إلا حين لم تعد لمعرفتى به فائدة •

وقالت نوال فى حزم :

ـ قومى •

واستأذنت نوال من أمها ، وخرجت مع هناء ، وما هو إلا بعض الحين حتى كانتا بالمكان الذى يقيم به اليهودى ، وما هو إلا بعض آخر من الحين ، حتى أصبحت هناء وهى لا تحمل إلا روحا واحدة هى روحها ، ونزلت إلى السيارة ومعها نوال •

وفى الطريق إلى البيت انخرطت هناء فى بكاء حاد عنيف ، ولكنها لم تجد له فى نفسها ألما ، أحست كأنها انسانة ضحت ، وإن حلاوة التضحية تمسح عن نفسها الألم الذى عانته •• ألم الأم تقضى على ابن أحشائها •

ووقفت السيارة عند باب القصر العتيد ، ونزلت هناء وانية شاحبة اللون ، وصعدت الدرج فى إعياء تساندها نوال ، فما إن بلغت أمها حتى هبت إليها الأم مذعورة تسألها ما بها ، ولكن هناء لم تستطع إجابة ، فقد اجتمع عليها الألم والاعياء والحزن واليأس ، فلم تجب أمها ، وإنما سارت فى خطواتها الوئيدة المتهالكة إلى حجرتها ، وفتحت بابها فى ضعف ، وأمها من ورائها لاتنى عن سؤالها عما بها ، وهى لاتنى عن الصمت ، حتى إذا بلغت السرير ارتمت عليه ، وصعدت شهيقا عميقا ، كأنها تطرد به من نفسها كل الآلام التى قاستها ، ثم قالت فى همهمة :

ــ أخيرا •• الحمد لله •

وتولت نوال إبلاغ الأم بما كان من ابنتها وزوجها والحياة النكدة التى لقفتها منذ تركت القصر • وظلت نوال تحكى حتى أتت إلى آخر المطاف عند اليهودى ، وجزعت الأم من هذه الحادثة وقبل أن تجيب نوال إلى حديثها ، قامت إلى التليفون ، فاستدعت طبيبها الخاص ، ليطمئنها علي صحة ابنتها ، وحين رجعت إلى نوال قالت لها :

ــ إن اجهاضها لنفسها يمنع أى محاولة للاصلاح •• أرجو الله أن يقدرنا على الخلاص من هذا الشاب ، فأنا أعرف هذا الصنف من الناس •• ولكننا سنتخلص منه على آية حال •

ودخل أحمد إلى الغرفة مذعورا بعد أن أنبأه الخدم بمجيء أخته ، وبالحال الذى جاءته عليه ، وحين أنبأته نوال بما أنبأت به أمه ، قال فى هدوء وجد :

ـ لقد كنت مقدرا لهذا جميعه •• على أية حال سيطلقها ، فما أظنه سيجرؤ على عدم الطلاق •

ونظرت إليه آمه فى أبتسامة ساخرة :

ـ أتظن ذلك ؟ •• أتظن أنك ستقول له طلق فيطلق •

فقال أحمد فى وثوق :

ـ طبعـــا ••

ـ ما زلت صغيرا يا أحمد •

ـ إنه صديقى وأنا أعرفه •

ونظرت إليه أمه نظرة عميقة وقالت :

ـ أتعرفه حقا ؟

فتلعثم أحمد هنيهة ، ثم قال :

ـ على كل حال لا أظن أنه سيمانع فى الطلاق •

وقالت الأم فى وثوق :

ـ سترى •• قم إلى التليفون واطلب إليه أن يأتى •

وقام أحمد وطلب فوزى فى التليفون ، ووعد فوزى أن ياتى فورا ، وقبل أن يأتى جاء الطبيب وأجرى الفحص على هناء ، ثم نظر إلى أمها وقال :

ـ أما هناء فبخير والحمد لله ، ولكن أنت •• أنت التى لابد لك أن تستريحى يا سهير هانم •

قالت سهير :

ـ نعم أعرف •

ـ يخيل إلى أنك لا تعرفين أبدا •• إننى بخير أن أفحصك أرى أنك مجهدة كل الاجهاد ، ولابد من الراحة التامة •

ـ أعرف يا دكتور سأستريح •

ونزل الدكتور ، وبعد حين جاء فوزى ، ورآه أحمــد يدخل من الباب الخارجى ، فسارع نازلا إليه ، وحاولت أمه أن تستوقفه لتنزل معه ، فطلب إليها أن تلحق به •

وفى الدور الأسفل التقى أحمد بفوزى ، وأراد فوزى أن يصـــعد إلى الـــدور الأعلى ، ولكن أحمـــد قاده إلى غرفـــة مكتبه التى كانا يجلسان بها ، وما كاد الصديقان يجلسان ، حتى قال أحمد فى تسرع وفى حســـم :

ـــ فوزى ، أريدك أن تطلق هنـــاء •

وفغر فوزى فاه من الدهشة ، ثم تمالك أمر نفسه وقال :

ـــ ماذا ؟

ـــ أريدك أن تطلق هناء •

ـــ هكذا ، بهذه السهولة •• !!

ـــ نعـــم •

ـــ وإذا رفضت ؟ !

وأخذ أحمد من الطريقة التى يحادثه بها فوزى ، ولكنه صبر نفسه وقال :

ـــ لا أظنك ترضى أن تعيش مع زوجة تكره العيش معك •

ودخلت سهير الحجرة فى هدوء ، وقام فوزى فلم تبـــال قيامه ، وجلست على أقرب كرسى ، وجلس فوزى هو الآخر قائلا :

ـــ ما هذا الكلام الذى يقوله أحمد يا نينا ؟

ولم تستطع سهير أن ترد عن قلبها تلك الغصة التى تمسها كلما سمعته يقول « يا نينا » ، ولكنها أغضت على السوء وقالت :

ــ ماذا قال أحمد ؟

ــ قال إنه يريدنى أن أطلق هنــاء •

فقالت الأم فى هدوء :

ــ لا •• هذا غير صحيح •• إنه لا يريدك أن تطلق هناء ، ولكن هناء تريدك أن تطلقها •

ــ ماذا ؟

فقال أحمد فى غضب :

ــ ماذا ؟ ماذا ؟ إن الأمر كما سمعت •• ألم تكن تتوقعه •

وقال فوزى فى هدوء :

ــ الواقع أننى لم أكن أتوقعه •

فقالت الأم :

ــ على كل حال توقعك لا يجدى شيئا •• ما رأيك الآن ؟

وصمت فوزى بعض الحين ، ثم قال :

ــ أيمكن أن أكلمك على انفراد ؟

وقالت سهير :

ــ أى انفراد تقصد ؟ أنا لا أرى معنا إلا ابنى •

وقال أحمد :

ــ أى سر يمكن أن يكون بينك وبين أمى ويختفى على ؟

فقال فوزى :

ــ إنها مسائل عملية لا أحب أن أتحدث فيها أمامك •

فقالت الأم :

ــ لن يختفى شىء عن أحمد •• قل ما تريد •

فقال فوزى :

ـ الواقع أننى لا أستطيع العيش بدونهـا ، فحياتى كلها معلقة برضائها عنى ، ولا أتصور كيف يكون حالى إذا تخلت عنى هنـاء ،

وقالت سهير فى هدوء :

ـ أنا أفهمك تماما يا فـوزى ، ولكنى أريد أن توضـح نفسـك فى جـلاء •

ـ الواقع أننى لا أستطيع الطلاق •

فقال أحمد فى تسرع :

ـ يا أخى هذه صفاقة •

ونظر فوزى إلى أحمد وفى عينيه ثورة مصطنعة ، يخالطهـا أدب متكلف :

ـ أظن أنه لا معنى للاهانات •

فقالت الأم :

ـ أسكت يا أحمد • أنا آسفة يا فوزى •• قل ماذا تريد إذن ؟ وكيف يمكن أن تعيش معها ، وهى لن تعود إلى البيت مهما تفعـل ، لا أظنك تنوى طلبها فى بيت الطاعة •

فقال فوزى متلعثما :

ـ بالطبع لا •

فقالت الأم فى ثبات :

ـ فبيت الطاعة ، كما تعلم ، لابد أن تعده أنت •

وأطرق فوزى خجلا وقال :

ـ نعم أعرف •

ـ إذن ماذا تريد أن تفعل ؟

وصمت فوزى لحظات ، وأخـذ يردد النظر بين سـهير وأحمد ، ثم قال :

ــ ألا يمكن أن نكون على انفراد ؟

ودهش أحمد من اصراره هذا ، وقالت سهير فى حسم :

ــ لا .

فقال فوزى فى بطء :

ــ إذن فأنت تعرفين أننى فى فترة الزواج هـذه قد تعودت نوعا معينا من المعيشة ، وأصبحت لا أستطيع أن أعود إلى المستوى الذى كنت أعيش فيه ، فان هذا يخجلنى أمام أصدقائى .

وفغر أحمد فاه من الدهش ، ولم يجد شيئا يقوله ، بينمـا قالت سهير فى ثبات ، وكأنها كانت تدرك أن فوزى لن يسـوق إلا هـذا الحديث الذى يسوقه الآن :

ــ إذن ماذا تريد ؟

فقال فوزى :

ــ والله أمرك .

ــ أتكفيك السيارة ..؟

وصمت فوزى ، وقالت الأم :

ــ السيارة وأثاث البيت .

وقال فوزى :

ــ وماذا أفعل بأثاث البيت ، إننى لن أحتاج منـه إلا إلى أثاث ثلاث غرف فقط .. النوم والمكتب والمـائدة .

وقالت سهير :

ـــ وماذا تريد أيضا ؟

وعاد فوزى يقول :

ـــ أمرك .

والتفتت سهير إلى أحمد ، وقالت له :

ـــ أحمد .. ارسل عم دهب لينادي المأذون .

وقام أحمد والدهشة عاقدة لسانه لا تزال ، وقال فوزى :

ـــ ألا نتفق أولا ؟

ودق أحمـــد الجرس ، وعاد إلى مقعـــده ، وقالت أمه وهى على هدوئهـــا :

ـــ سنتفق يا أحمد .

وقال فوزى :

ـــ ماذا ترين ؟

وقالت الأم لابنها :

ـــ هات دفتر الشيكات من الدور الأعلى يا أحمد .

وقام أحمد ، وقبل أن يغادر الحجرة ، أقبل عم دهب تلبية لنـــداء الجرس ، فأمره أحمد أن يستأجر سيارة ويحضر بها المأذون فورا ، ثم خرج ينفذ أمر أمه . ولم تتكلم ســـهير ، ولم يتكلم فوزى ، حتى عاد أحمد ومعه الدفتر ، وأخذته منه أمه ، وطلبت إليه قلما ، وكتبت شيكا وقعته وفصلته عن الدفتر ، ثم نظرت إلى فوزى قائلة :

ـــ هذا هو الشيك .. اسمح لى ألا أعطيه لك إلا بعد أن توقـــع الطـــلاق .

وقال فوزى مصطنعا الحيـــاء :

ـــ ألا أعرف الرقم ؟

وقالت الأم فى حسم :

ــ ألف جنيــه •

وهم فوزى أن يقول شيئا ، ولكنه رأى النظرات الجامدة فى عيون أحمد وســـهير • وظل ثلاثتهم صامتين ، حتى جاء المأذون • وطلب إليه أحمد أن يجرى اجراءات الطـــلاق ، وحين حاول المأذون أن يلقى خطبته التقليدية ، قطعها عليه أحمد ، وطلب إليه أن يمضى فى اجراءاته بلا إطالة •

وتم الطلاق ، وتسلم فوزى الشيك ، وهم أن ينصرف ، ولكن أحمد أمسك به من طرف سترته وقال له :

ــ اسمع •• إن أشد ما آسف عليه أننى عرفتك ، فاننى أحتقر تلك الفترة فى حيــاتى التى جمعتنى بك ، لقــد خلقت فى نظــرى مستوى جديدا للانحطاط لم أكن أتصور أن يرتمى فيــه أحــد •• وكل رجائى اليــوم ألا أراك أبــدا ، وألا أذكر هــذه الفترة التى عرفتك فيهــا •

وفى جمود نظر فوزى إلى الأرض وقال :

ــ أشكرك •

ثم انفتل خارجا يتحسس جيبه الذى وضــع فيه ثروته الجديدة •

(٢٧)

كان سيد فى طريقه إلى بيت وصفى باشا حين التقى به فجأة زميله فى الجماعة عبد العاطى بسيونى ، وحاول سيد أن يروغ من اللقاء ، ولكن عبد العاطى لم يتح له فرصة ، وأمسك به :

ــ أين أنت يا أخى ؟

ــ فى الدنيا .

ــ لقد أرسلنا إليك بعد خروجك من المعتقل فلم تأت .

ــ آتى إلى أين ؟

ــ إلى الأسرة .

ــ أى أسرة ؟!

وذهل عبد العاطى ، وقال له فى سخرية :

ــ ألست السيد عبد البديع الذكر ؟

ــ هذا أمر لا شك فيه .

ــ هل جننت فى المعتقل ؟

ــ لا .. بل عقلت .

ــ ألا تعرف الأسرة ؟

ــ لا .. ولكن أعرف أن الجماعة قد حلت ..

ــ لكننا نجتمع .

ـــ لا شأن لى باجتماعكم •

ـــ أكفرت بمبادئنا ؟

ـــ نعم وآمنت بنفسى •

ـــ اتحنث فى يمين أقسمتها ؟

ـــ أنا لم أقسم على القتل •

ـــ هذا مروق !!

ـــ اسمع •• أنا فى طريقى إلى وصـــفى باشا شكرى بنـــاء عى طلبه ، وأعتقد أنه قد أعد لى وظيفة ، وسأقبلها فورا ، وقد خطب لى أبى عروسا من أقربائنا وسأتزوجها ، فأرجوك أن تعتبرنى مستقيلا من الجماعة •• أنا لم أعد عضوا •• أنا أريد أن أعيش يا أخى •• ابعـــدوا عنى •

ـــ أنت مارق •• تتصل بأعداء الله وتخالف تعاليم الشريعة •

ـــ أبدا وشرفك •• إننى سأصلى الخمس ، وأصـــوم الشـــهر ، وسأحج إن استطعت سبيلا ، وسأؤدى ازكاة إذا وجبت على الزكاة، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله •

ـــ خدعتك الدنيـــا •

ـــ بل إنى أعمل للآخرة أيضا •

ـــ سترى •• دولة الظلم ساعة ، والحق إلى قيـــام الساعة •

ـــ انتظروا أنتم قيـــام الساعة ، وأما أنا فسأعمل بقول ربى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » •

ـــ ولكن أولى الأمر لا يطيعـــون الله • ولو أكملت الآية لذكرت قول ربى « فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرســـول إن كنتم

تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » صدق الله العظيم .

ـ فدعوهم لله يحاكمهم .. كيف تعرفون أنتم الحق من الباطل من أعطاكم الحق فى الحكم على الناس وعلى أعمالهم ؟ !

ـ كتاب الله نطبقه .

ـ كتاب الله للجميع .. وإنه يقول « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فمالكم أنتم تتصدون للمحافظة عليه وحدكم ؟..
كيف تعرفون أن أحكامكم على النـاس هى الصادقة ، وكيف تثقون أن تفسيركم أنتم لآيات الله هـو التفسـير الحق .. الدين للديان يا عبد العاطى .

ـ هذا فراق ما بينى وبينك .. أنت كافر .

ـ مع السلامة يا عبد العاطى .. مع السـلامة يا أخى .. دعنى أعيش يا أخى .. مع السلامة .

ومشى عبد العاطى مغضبا دون أن يرد تحية أخيـه سابقا ، وأكمل سيد طريقه إلى بيت وصفى باشا .

وحين أذن له الباشا بمقابلته قال له :

ـ ستذهب غدا إلى سكرتير وزير المعـارف ، وستجد طلبك عنده مؤشرا عليه بالتعيين .

ـ أطال الله عمرك يا سعادة الباشا .

ـ فى هـذه المرة اسـتطعت أن أنقـذك ، فى المـرة القـادمة لن أحاول .

ـ أطال الله عمرك يا ..

ولم يكمـل ، فقد دق جرس التليفون ، وسـمع الباشا يقـول فى جزع :



ـ ماذا يا هنساء ؟

ثم سمعه يقول :

ـ متى ؟

ثم وضع الباشا السماعة وهو يقول « لا حول ولا قوة إلا بالله .. » .

ولم يستطع سيد صمتا ، فقال للباشا دون وعى :

ـ خير يا سعادة الباشا ؟

فقال الباشا فى ذهول :

ـ هذه آخرة لعب العيال .. لقد قبض على أحمد بتهمة الشيوعية .. ماذا نفعل الآن .. الأمر فى يد النيابة ، ربنا يلطف بأمه .

وثبت سيد فى مكانه دهشا قانطا آلما ، لم يستطع إلا أن يقول فى حسرة وذهول :

ـ أحمد بك .

(٢٨)

عرف أحمد السجن ، وما كان يتصور أن يعرفه .. قاده إليه شرطى فظ ينفذ الأوامر فى خشـونة صماء ، فالجميع عنده سواء ، لا فرق ثمة بين متهم فى سياسة ، أو متهم فى جريمة ، وإنما كلهم فى عرفـه مسجين ، ثم لا شىء بعد ذلك ، ألقى أحمد فى حجرة ضيقة ، أدار عينيه فيها فرأى دلوين ، وما احتـاج لسؤال ، فقـد كان يعـرف أمرهما .. أحد الدلوين للشراب ، والآخر لافراغ الشراب ، وغير الشراب ، وهكذا يلتقى الانسـان بالحيوان فى كثير من الأحيان ، أى فارق إذن بينه وبين البهيم فى حظيرته ، يفرغ طعامه حيث يأكله ، ويلقى بجسمه إلى الأرض فى مساواة بينه وبين الدلوين ومساواة بينه وبين الحيوانات .

كان يفرح أنه مسقط العيون من الأمن ، وكان يفرح أنه مثار اهتمام من السـلطات ، وكان يفرح باسمه الحـركى ، وبالأسرار والتهاويل والطقوس ، وكان يفرح بلهفة أخته عليه ، وكان يفـرح بأنه متحرر الفكر ، لا يدين بالله ، كما يدين عامة النـاس والغوغاء الذين يطالب لهم بالانصاف من الأغنياء ، وكان يفرح أنه قطعـة خارجة عن نظام القطيع الذى يسـعى الحياة فى طريق تقليدى ، يسير على آثار السابقين ، وكان يفرح بأنه مهدد بالخطر ، وبأن أصدقاءه يخشون عليه هذا الخطر .

أما وقد وقع ما كان مهددا به ، فذاك ما لم يتوقعه ، فجميل أن

يكون ذا أهمية ، وأن يشعر بأنه ذو خطر يسعى رجال الأمن خلفه ، ولكن ليس جميلا أبدا أن يوقع به رجال الأمن فى السجن ، فالواقع ان أحمد ، برغم أنه كان فرحا بأنه مهدد ، إلا أنه لم يكن يتوقع أبدا أن يدخل السجن ؛ فما كان يتصور أنه هو •• ربيب القصر ، وحاكمه ؛ والسيد الأول فيه والأخير ، يدخل السجن ، وما كان يتصور أن يلقى إلى السجن ، وعمه وصفى باشا يتمتع بهذا النفوذ • كان فى عميق نفسه يستبعد فكرة دخوله السجن ، ولكنه كان يترك هذه الفكرة طافية على سطح شعوره ليستاف منها هذا الأريج الحلو من الاحساس بالأهمية •

وأجال أحمد نظره ثانية فى حجرة السجن ، وعاد إلى نفسه يسألها ، إذن فهذا هو السجن ، فمن هنا إذن عرف الناس الحرية ، وذكرته كلمة الحرية بالخطبة التى ألقاها فؤاد ، جميلة هى الحرية •• إن شيئا فى العالم لا يساوى الاحساس بالحرية •• حرية الحركة ، وحرية الشعور ، وحرية التفكير ، وحرية القول •• من هنا يستطيع أن يدرك قيمة الحرية •• لم يستطع أن يدرك قيمتها إلا حين فقدها •• كم هو غبى وإن ادعى تحررا فى التفكير •• كيف قبل أن يؤيد نظاما لا يعترف بالحرية ، ويرى فيها معنى رخوا لا يسير بالحياة إلى أهدافها السامية •• وما أهداف الحياة السامية ؟ أليست هى معانى تقف الحرية منها موقف الزعامة •

إن الله أعطى عبيده حرية التفكير والعمل ثم حاسبهم ، الحرية أساس النظام الذى أقامه الله •• سبحانك يا رب •• يا رب •• فك قيدى لأقدس الحرية •• إنى ألجأ إليك يا رب ؟ !!

يا ماذا ؟ ماذا أقول •• أأقول يا رب ؟ يا للضلال الذى كنت

فيه !. لجأت إليه عند أول نازلة ، وكفرت به فى النعمة .. أى هباء كنت أعيش فيه ؟. أأقول يا رب بهذه البســاطة ، وكأننى لم أكفر به ، ولم أخرج عليه ، ولم أعتبر التابعيه بهائم مخدرين ، أأقول يا رب ، وأجد لها فى نفسى هذا الرنين ، بل إنى أحس الآن أنى قريب إليه ، وأحس أملا يشسيع فى نفسى من بعد ضيق ، وأحس صـــدرى وقد أشرقت فيـــه أضواء جديدة باهرة حلوة . أكل هـــذه المعانى تتواكب فى نفسى المظلمة من كلمة واحدة تنطلق من صميم الفؤاد .. يارب .. نعم إننـــا نحسه ولا نحلله ، إننا نؤمن به فنصـــل إليـــه ، ولكننا لا نفحصه ولا نضعه على أسس من المنطق والعقل ، وإلا فما هـــذا الشعور الحلو الذى ينســـاب فى نفسى ، ما قـــول المنطق والعـــلم والفلسفة فى هذا الشعور ؟ ما رأى العـــلوم جميعا فى هـــذه الراحة التى أتمـــلاها منذ قلت يا رب ، وما رأى المـــذهب الذى أدين به فى هذا الهدوء الذى يتمشى فى أوصـــالى من بعد اضـــطراب وضـــيق ويأس ، لا يفصل بين الشـــعورين إلا كلمة واحدة قلتها .. يا رب .. فاذا أنا سعيد ..

أى ضلال كنت أسعى فيه ؟. إن مذهبى فيما أذكر تعرض لهـــذا الشـــعور الذى أحس ، نعم إنى أذكر نظريته فى هـــذا الصدد ، لقد أحسوا بالخطر الذى يطالعهم من قول الناس « يا رب » فأنشأوا نظرية ليحاربوا بها الخطر .. يقولون أننا لو هيأنا للانســـان حياة مستقرة ، ينـــال فيها ما يطمح إليـــه ، ومشت به الحياة فى الطريق الهادىء الأمين ، لو فعلنا ذلك ما احتاج الانسان أن يقول يا رب . يا للضلال الذى كنت فيه ! وهل حياة الانسان كلها مادية لا يحتـــاج فيها إلا لمطالب الجسد التى يريد مذهبهم .. أليس للانسان رغبات أخـــرى .. ألم يدركوا تلك الحيـــاة التى تمور فى نفس الانسان ،

متقلبة بين السخط والرضى ، والاقبال والنفور ، والضيق والانشراح ، بلا داع إلى السخط أو الرضى أو الاقبال أو النفور أو الضيق أو الانشراح • أين نولى وجوهنا عند الضيق ، وأين نولى وجوهنا عند الرجاء ، وأين نولى وجوهنا عند الخوف ، وأين نولى وجوهنا عند المرض ، ولماذا هذا التساؤل جميعا ؟•• أين نولى وجوهنا فى هذا السجن الذى ألقيت إليه •• أنا الآن لا أحتاج إلى طعام ولا شراب ، بل إننى هنا فى السجن مكفول الرغبات ، مهما تكن هذه الرغبات محققة بأبخس ما تقبله النفس من خبز أسود وأدم حقير ، الا أننى على أية حال مكفول الرغبات •• فهل أنا مستقر الحياة ، هادىء على الطريق ، لا أحتاج إلى أن أقول « يا رب » ، فما لها انطلقت من صميم الفؤاد ، مالى وجدت نفسى أقول « يا رب » دون أن أفكر فى قولها •• إننى الانسان • أنا عالم فى نفسى • عميق الغور ، جموح العواطف ، موّار الأمواج ، وويل للانسان إن ضحل غوره ، أو هدأ عاصفه ، أو استكانت الأمواج فيه • إن جمال الانسانية فى هذه الاشراقات التى تعقب الضيق ، وفى هذا التقلبات التى لا يستقر بها قرار ، فمن لى فى هذه الأنواء ، وما أقول إن لم أقل يا رب •

لقد فكر المذهب فى كل شيء ونسى الانسان الكامن فى نفس الانسان •• الطبيعة الانسانية هى أشد أعداء المذهب عنفا •

ولكن مالى أجهد فى إقناع نفسى بأن أترك اقتناعى بمذهبى ، هل مر على حين من الأحيان كنت فيه مقتنعا بمبدئى كل الاقتناع ؟ هل أذكر لنفسى فترة كان المبدأ خلالها مستقرا فى عميق إيمانى ؟ •• لا أذكر •• أنا لا أذكر أننى كنت عميق الايمان بشيء على الاطلاق •

لم أكن صادق الايمان بمبدئى ، كما لم أكن خالص الايمان بشىء .
كان هذا هو سر شقائى .. حاولت أن أهرب من القلق والفشل إلى المبدأ ، فخيل لى أننى مؤمن به ، ولكننى كنت أعلم دائما إننى أحب فيه الاسم الحركى ، وأحب فيه الاستخفاء عن الأمن ، وأحب فيه إثارة هذه السحابة من الابهام والغموض والاسرار حولى ، وأحب فيه لهفة أختى على ، كلما رأتنى نازلا إلى موعد اجتماع ، وأحب فيه الاجتماع نفسه ومناقشة أمور الكون جميعا كنا نتحدث عن العالم أجمع ، وكأننا نحن حكامه ، وكنا نتخذ العالم أجمع مجالا لتطبيق النظريات التى تعلمناها ، والمبادىء التى نعتنقها .. كنت أرى نفسى فى هذا الاجتماع ندا الله ذاته ، فحق لى إذن أن أبحث فى وجوده وفى تعاليمه .. لم أكن أحسه فكفرت به ، واعتقدت أننى آمنت بمبدئى ، ولو أننى أزلت عن نفسى ما نتخذه من أقنعة ، ولو أننى التقيت بنفسى لقاء خالصا من كل زيف نتستر خلفه ، لعرفت أننى كنت أومن بمظاهر مذهبى ، دون أن أومن بمذهبى ذاته .

إنى أعرف ذلك فى نفسى ، ولن أنسى تلك الانتقاضات التى كنت أواجهها من نفسى بين حين وآخر ، ولن أنسى أننى كنت أقر مضطر بها ، وأسكن مائجها ، لقد كنت محتاجا لمذهبى ، لأقنع نفسى به أننى ذو شأن .. لم أستطع أن أكون ذا شأن فى شىء ، فاتخذت هذا المذهب ، وإنه والحق يقال ، يمد النفس بشعور ضخم من الأهمية ، إن هذه مشكلة لا بد لى أن أواجهها الآن ما دمت ألتقى مع نفسى فى هذه الصراحة التى لم نتعودها ، وما دمت أنتوى أن أترك المذهب .. هل سأتركه ؟ .. نعم ، لقد آمنت بالله

واحسسته ، والمذهب لا يقبل مؤمنا بالله •• إذن ففيم يكون تفوقى ؟
لو أن المذهب يقبل منضما له ومؤمنا بالله ؟ إذن ••؟ إذن ماذا ؟
إذن لظللت منتظما فى سلكه ، إن للمذهب ألفاظا حلوة الرنين ،
سريعة النفوذ إلى الاحساس •• كان يعجبنى فيه أنه لا يساوينا
بالقطيع •• ولكن أى قطيع يقصد •• أليس القطيع هو الشعب الذى
يريد المذهب له العدالة والانصاف من الأغنياء ، ويريد أن يسوى
بينه وبين جميع الأغنياء ، فلا يكون فى العالم غنى ، ولا يكون فى
العالم فقير •• لا شك أن هذا معنى من معانى القطيع •• وهناك
معنى آخر •• قطيع الذين سبقونا • ولكن أليس المذهب نفسه
يقدس قطيعا سبقه من الذين أسسوه ووضعوا دعائمه الأولى .
قطعان نحن فى كل منحى من مناحى الحياة • ولكن ماذا يضيرنا
أن نسير فى طريق قطعه من قبلنا ، بل كيف نعرف أخطاء السابقين ؛
إذا كنا لا نرود طريقهم ، بل كيف نتقدم إذا نحن لم ندر أين وقفوا ••
إن نقطة البداية فى سير من سبقونا ، هى نقطة البداية فى سيرنا ، وهكذا
يتقدم العالم • لا يستطيع كل جيل أن يكفر بما سبقه ، وإلا ظل
العالم واقفا فى مكان واحد لا يتقدم •• إن تقدم العالم خطوات من
الأجيال المتلاحقة ، واعتراف من اللاحق بفضل السابق ، وتصحيح
من اللاحقين لأخطاء السابقين •• وهناك قيم انسانية وضعتها
الأجيال ، ثم لم تغيرها الأجيال ، وهناك مشاعر انسانية بدأت مع
الانسان ، ولم يستطع الانسان أن يغيرها ، لأنها جزء منه ، هل
يحق لنا نحن اللاحقين أن نعدو على هذا القيم فنغيرها ، أو هل
يحق لنا أن نغير هذه المشاعر •• هل يجوز لنا أن نغير ما استقرت
عليه الأجيال من تقديس الحرية والعدالة والآداب العامة التى
تعارف الناس عليها ، والأمانة والشرف والوطنية •• هذه القيم

وأمثالها ، هل يجوز لنا أن نعدو عليها •• لا نستطيع ، فهل يجوز لنا أن نغير المشاعر ؟ •• السؤال فى ذاته غير جائز ، لأنه ليس فى طوق الانسانية أن تغير المشاعر •• كيف نغير مشاعر الحب والبغض ، والضيق والسرور ، والفرح والألم ، والراحة والاضطراب ، أجيال مضت وأعقبتها أجيال ، والقطيع سائر يتقدم فى العلم وفى الفن ، ولكنه يقف عند هذه المشاعر ، كل جهده إزاءها أن يحللها ويصفها ويرسمها ، ولكنه أبدا لم يستطع أن يغير منها شيئا • فالقطيع إذن كلمة نقولها فنبغضها ، ولكننا إذا مشينا قليلا وراء معناها ، وجدنا أن سير القطيع هو الذى بلغ بالمدنية إلى هذا المدى الذى بلغته اليوم •• على أن يكون فى القطيع عقول واعية تدرس وتفكر وتطمح إلى التقدم ، وتسعى إليه وتبلغه ، أو تترك من الآثار ما يجعل الانسانية تبلغه •• هو ليس قطيعا إذن •• إنه الانسان يسير فى طريق الحياة ، وله هدف محدد واضح ، هو نمو الانسانية وتقدمها وبلوغها إلى أسرار الكون ، وانتفاعها بهذه الأسرار فيما يفيد الانسانية جميعا •• الانسانية إذن تجمع السابقين واللاحقين ، ومن يخرج عن ركابها عضو أبتر فلا نفع فيه ، إن من يقف على حافة الطريق ، ويسخر من السائرين ولا يشجعهم ، عضو أشل ضعيف ، أشفق من السير ، وخاف الطريق ، فوقف يريد أن يعرقل السائرين ويعوق تقدمهم ، ولكن الانسانية أقوى منه ، ومن كيده ، فهو يسخر ثم لا يصنع شيئا •• لقد كنت كذلك •• إننى لم أسر مع أحد •• لم أسر مع مذهبى ولم أقتنع به ، ولم أسر مع غير مذهبى ، وسخرت منه ، لقد كنت إذن على هامش الطريق • الانسانية لم تستفد منى شيئا •• لعلى كنت مشفقا لأنى لم أستطع أن أكون ذا موهبة فى شىء •• ولكن هل لابد لى أن أكون حتى أسير

الطريق .. هل كل إنسان فى العالم ذو موهبة ، كيف تستقيم الحياة ، وكيف يكون صاحب الموهبة فذاً إن كان يستوى فيها مع الناس أجمعين ؟ .. إننى الآن أعرف أننى لست صاحب موهبة ، ولكننى أيضا تبينت الطريق والهدف ، إن خير ما أستطيع أن أفعله أن أكون إنسانا .. إنسانا يسع العالم أجمع فى قلبه ، يشفق على الضعيف ويعينه ، ويفرح للناجح ويشجعه ، ويؤيد القوى إن كان على حق ويضعه على الطريق إن أخطأ ، ويثور فى وجهه إن عدا وظلم وبغى ، فلن ترى الانسانية أبشع من قوىّ يظلم ولا يجد من يقول له ظلمت .. إننى الانسان ، أهم عنصر فى هذا الوجود الضخم .. المواهب جميعها تسعى لاسعادى أنا الانسان .. فهل أستطيع أن أكون إنسانا يستحق ما تقدمه له المواهب ؟ هل أستطيع أن أتذوق الفنون وأحسها ؟ وهل أستطيع أن أتابع التقدم العلمى وأعينه بجهدى الذى لا يتمتع بموهبة . وقبل كل هذا هل أستطيع أن أسع فى قلبى المخطىء ، ولا أهينه ، والمحسن ولا أحقد عليه ؟ وهل أستطيع أن أغالب نفسى فلا تسعى إلى الشر ، بل هل أستطيع أن أتيح لخير نفسى أن يتغلب على شرها .. ولكن هل أصادق الشرير ؟ .. لا .. فليس هذا من الانسانية فى شىء . فمصادقته تشجيع له على المضى فى شره .. فهل أجازيه الشر بالشر ؟ .. إن اقتصر العقاب عليه فنعم . هل أستطيع أن أحب الجميع ؟ .. هل أستطيع أن أحب أبى ؟ .. نعم .. نعم ؟ ! .. إننى أدرى أنه هو الذى ألقانى إلى هذا الشك ، وإلى هذه الحيرة ، لم أستطع أن أحترمه أبدا .. ولكن ما ذنب أبى .. إن فى نفسه عوجا ، ولكن من يستطيع أن يحتمله إن لم أحتمله أنا ، ومن يسينه إن أنا لم أعنه.. إننى أريد أن أكون إنسانا .. فهل أستطيع .. الطريق وعر ، ولكننى سأستطيع .

(٢٩)

لاذت سهير لائذة بسريرها ، مرغمة على الاستلقاء فيه ارغاما ، ولو تركت وشأنها ما استقر بها قرار ، ولظلت حائرة بين السجن وأولي الأمر ، ولكن تكاثروا عليها وأرغموها على أن تظل بسريرها ، وكانت أقوى حجة فى يدهم أن وصفى قطع الأمل عندها أن يستطيع أحد من ذوى السلطان عملا ، فابنها متهم فى جريمة يعاقب عليهـا القانون ، والقضاء وحده هو المختص ، ولا سبيل لأحد عليه • ولكن ماذا يجدى استلقاؤها هـذا ، وقبلهـا هو المريض ، والألم يعتصر قلبها ، وسيظل يعتصره مهما تلجأ إلى الراحة ، إن المرض فى نفسها ، فأين لها المهرب من نفسها ؟! • أحمد فى السـجن •• ويلى مما صنعت الأيام !! ••

ودق جرس التليفون ، وكان المتكلم هـو وصفى باشا ، وقـد ألقى إليها أنه استطاع بعـد جهد أن يجعل النائب العـام يعجـل بالتحقيق مع أحمد ، وقـد تقرر أن يبدأ التحقيق معه فى الغد •

وما لبث سليمان أن دخل الحجرة فأنبأته ، فما زاد على أن أطرق صامتا ، وراحت سـهير تنظر إليـه وتطيل النظر ، لقـد رأت فى وجهه معالم حيـاة •• لقد رأته يتألم ، وأحست ألمه •• كانت تحس ألمه فى نفسها ، كما تحسـه فى وجهه ، لقد التقيـا آخر الأمر على احساس واحد ، وإن يكن هـذا الاحساس هو الألم ، إلا أنهمـا التقيا عليه آخر الأمر •• عجيبة هـذه الأيام ، أكان لا بد لنا من هذه

الفواجع حتى نلتقى ؟! وهل كان لا بد لنا من اللقاء ؟.. عجيبة !..
إن التنافر الذى كان بيننا هو الطريق الذى أدى إلى لقائنا اليوم .
لقد نشأ ولدانا فوجدانا متنافرين ، لم نتحد يوما على تربيتهما ،
ولم نتآزر يوما من أجلهما ، كانت الصلات بين الأبوين مفككة
هشة فنشأت أخلاق طفلينا مفككة هشة . بذلت أنا الأم ما فى
وسعى ، ولم يكن للأب وسع ، فلم يبذل شيئا .. ولكن هل بذلت
ما فى وسعى حقا .. أترانى كنت أقوم بما يجب على ؟ .. أكان كل
واجبى أن أحقق رغبات طفلى مهما تكن هذه الرغبات .. أكان
يجدر بى أن أترك أباهما أمامهما يتضاءل ويضمحل حتى يصبح
شيئا كالهباء من العدم ، فاذا هما ينشآن بلا قدوة أمامهما ، ولا
إيمان بشىء ولا احترام لشىء . أكنت أستطيع أن أقيم من سليمان
شيئا .. ما أظننى كنت مستطيعة ؟ ولكن هل حاولت ؟ لا .. لم
أفعل .. ولم أحاول حتى أن أقيم خلق طفلى ، لم أحاول لهما شيئا
إلا أن أنفذ ما يريدان ، ثم أنطوى على ألمى ضنينة به ، أخشى أن
يزول ، كنت ألتذ ألمى ، لأنه يحمل لى ذكريات من الشباب والهوى ،
وفى غمرة من اللذة والألم والذكريات والشباب والهوى لم أحفل
أمر ولدى فنشآ ضائعين فى بيداء لا هدف لهما فيها ، تائهين لا يحدد
أملهما مطمح أو غاية .

كنت ضعيفة أمام ألمى ، كما كنت ضعيفة أمام طفلى . كنت ضعيفة
أمام ألمى منذ اللحظة الأولى ، لقد هيأت لنفسى حينذاك أننى قوية ،
وأننى أنتقم لحبى المهجور .

فاذا بى أنتقم من نفسى ، وخيل لى أننى فى انتقامى لنفسى
قوية ، ولكن هأنذى على الأيام أتبين أننى ما انتقمت إلا عن ضعف ،

فالانتقام جميعه ضعف •• إنه لا يصـــدر إلا عن إنسان عجـزت نفســه أن ترد الشر الصاخب فيهــا ، ولا يصدر إلا عن إنســان هانت عليه نفسه ، فعقله ضــئيل ، وعاطفة النقمة عنده طاغية ، فهو مغلوب على أمره من عاطفته ، ومن عاطفة شريرة فيه •• كنت ضعيفة حين تزوجت سليمان ، هدنى هجر وصــفى لى ، فـلم أتمالك أمر نفسى وقســوت ، ثم •• هأنــذى أرى أن قســوتى لم تكن منى إلا ضعفا ••

وكنت ضعيفة أمام طفلى •• فمــا زلت أجسم لنفسى أن ليس لى إلا همــا ، فضعفت وكنت أعلل ضعفى دائما بأننى لا أمل لى إلا هما ، ولو كان هذا المعنى عميق الغور فى نفسى لاستطعت •• أو لحاولت على الأقل أن أجعل منهما شيئا آخر غير هــذا الذى صارا إليه •• ولكن الواقع أننى عشت فى الألم الذى خلقته لنفسى منذ أول حياتى ، ثم أبيت أن أخرج عن هــذا الألم ، فكان ما أقاسيه الآن من ابنــة مطلقة ، وهى لا تزال فى أول بواكير الشباب ، وابن ســجين وهــو لا يزال فى أول بواكير الحياة •

❋ ❋ ❋

بكرت الأشعة الأولى من الشمس ، فلم تجد ســهير فى فراشها ، بل كانت قد استيقظت فى زوال الليل ، وارتدت ملابسها ، ومكثت تنتظر أن تعلن إليها هــذه الأشعة أن اليوم الجديد قد جاء ، وأنها تستطيع أن تلتقى بابنها •• على أى حال ستراه ؟ •• إنها لا تدرى ولا يهمها أن تدرى ، كل ما تصبو إليه أن تراه •

واستيقظ سليمان مبكرا ، وعجل بارتداء ثيــابه ، ونزل هو وزوجته إلى مقر النيابة التى سيحاكم فيها أحمد •

ودخلت سهير المحكمة .. الله للأيام ، لماذا يقسو عليها الزمان هـذه القسوة ، أتدخل هى المحكمة لترى ابنهـا مقبوضا عليه ؟! ..

وفى ساحة المحكمة رأت سهير المسـاجين ، والشرطة ، يروحون بهم ويغدون ،وهم كالشياه المستسلمة لا تملك من أمر نفسـها أمرا ، القيود فى أيديهم ، والملابس الزرقاء ملقاة عليهم ، واليأس يمـلأ عيونهم ، والمذلة تغشـاهم . أهذه هى نهـاية المطاف ؟ أيقدر لى أنا ان أرى ابنى ندا لهؤلاء ، بعد أن أفنيه عمرى من أجله ، أكل ما قد فعلته ، وكل ما قد امتنعت عن فعـله ، لا يثمر لى إلا هذه النهـاية الكالحة الشوهاء .. أمن أجل هـذا أهدرت شبابى ، ولذات حياتى ، وامال المطالع الأولى من اشراقات عمرى ، أمن أجل هذه النهـاية لازمت سليمان ، وقطعت كل خيط يصلنى بأمل من سعادة ، وحييت الى وأحييته كلما آذن بضعف ، وكلما أشرف به النسيان من الزمان على وهن . أأنا من صنعت هـذا المصير ، أترانى أنا من مهدت له ، أترانى أنا قـد شغلت بألمى عن ولدى ، فكان هذا المصير الذى التقى به فى أخريات العمر منى ، وفى أوائل العمر منـه . أو كنت أقدر ؟ أم هل كنت أفكر ؟ .. لا .. ما فكرت فيما قد يصـير إليه ولدى ، ولا حتى فكرت فيما قد أصير إليه أنا ، ولكن هل أخطأت إلى هـذا الحد ؟ هل كان خطئى كافيا وحده ليقودنى إلى هذا المكان ؟ .. هنا مع زوجات المجرمين وأمهـاتهم ، أى فارق بينى وبين هـذه المرأة هنـاك ؟ .. تلك التى تحيط بها أجواء من الجهل واليأس والألم ، وأى فارق بينى وبين تلك التى هنا تحمل طفلها على كتفها ، وترنو إلى زوجها الشاب ، يقاد إلى حيث لا تدرى ولا يدرى من مصير .. لعل هذه الأم خير منى ، لعلهـا هى لم تخطىء ولم تكن لهـا يد فى الجريمة التى ارتكبها زوجها ، ولعلهـا ترعى وليدها خيرا مما رعيت

.. ولدى •• ولكن أكان خطئي يستحق هذا جميعه ؟ •• أم أن سليمان كان مخطئا معي ؟ لا •• لا أرى سليمان أخطأ في شيء ، لقد جرى على طبيعته لم يغيرها ، وكان على أنا أن أعوض ولدى عن أبيهما •• لا بالمال وحده ، ولكن بالرعاية والتقويم أيضا ، ولكن ماذا يفيد الندم الآن ؟ بل ماذا يفيد أى شيء الآن ؟•• لا •• ما أظن شيئا يفيد !! •

وبينما سهير في غمرة من هذه الأفكار والذكريات ، أقبل وصفى إليها مصطحبا صديقه المحامى الكبير مصطفى باشا حسنى ، وما إن رأته حتى عصفت بنفسها نوازع شتى من الألم والاطمئنان والحسرة والجزع •

قال وصفى :

ــ لماذا تجلسين هنا ؟

فقالت سهير :

ــ إن سليمان يقول إنه سيمر من هنا •

فصمت وصفى هنيهة ، ثم التفت إلى صديقه يقول :

ــ تذهب أنت إلى غرفة المحامين يا باشا •

وقال مصطفى باشا :

ــ وأتركك •• لا يا أخى •• لا طبعا •• سأنتظر هنا معكم حتى يبدأ التحقيق •

فقال وصفى :

ــ ألا تبلغ وكيل النيابة أنك هنا ؟

فقال مصطفى باشا :

ــ حين يجيء المتهم سأدخل لوكيل النيابة ، لا تنشغل يا باشا ، كل شيء سيكون على ما يرام •

ومست كلمة المتهـم قلب سهير ، ولـكنها ما لبثت أن سخرت من نفسها وهى تسائلها ، وبماذا يمكن أن يسمى •• إنه متهم •• وليس له هنا اسم آخر ••

وبينما كانت سهير شاخصة إلى الباب ، لا تميل ببصرها عنـه ، مال وصفى على سليمان :

— سليمان •• سهير متعبة ، التعب يبدو على عينيها بشكل واضح ، أرجوك أن تأخذها إلى البيت بمجرد أن ترى أحمد •

— نعم يا باشا سأفعل •

وشمل الصمت أربعتهم بعض الحين ، ثم ما لبثت سـهير أن رأت السيد عبد البديع يدخل من باب المحكمة مضطربا بادى الألم ، ورآهم السيد ، فأقبل إليهـم مسرعا ، وحياهم جميعـا فى أدب حـزين ، ثم أراد أن ينتحى ناحية ، ولكنه رأى جعفر وحسام يدخلان الساحة ، فوقف حيث هو ينتظرهما ، وقصـد الشابان إلى حيث كان الجميع يجلسون ، وقالت سهير :

— كيف أنت يا حسام ، متى جئت من البلد ؟

— أمس مساء •• طلبتنى أمى •

ثم التفتت سهير إلى جعفر :

— كيف حالك يا جعفر ؟

— بخير يا عمتى •• الحمد لله •

ثم انتحى جعفر وحسام بالسيد ناحيـة مستترة ، وراحوا يدخنون فى صمت ، وأنظارهم إلى الباب تنتظر مجىء أحمد •

ولم يطل بهم الانتظار ، فسرعان ما جاء أحمد مرتديا ملابسه العادية ، لم يزد عليها إلا القيد الذى يكبل يديه • ونظرت سهير إليه ، وزأرت فى صدرها صرخة مجنونة ، لم يمنعها من الانطلاق إلا أنها فى صدر سهير تمور •• ولم تجد الصرخة سبيلا إلى الهواء إلا فى كلمة واحدة ، قالتها الأم فى صوت خفيض كسير ، ملتهب النغمات ، واله الرنين :

ــ أحمد •

ونظر سليمان إلى ابنه يقترب منه والقيد فى يديه ، ابنه المتكبر الذى لم يره فى القصر إلا عالى الرأس ، حاسم الأوامر ، شديد الترفع ، قليل الحنين لأبيه ، قليل الاحتفاء به •• أحمد الذى لم يستطع رغم علمه بما يدور فى نفسه نحوه إلا أن يحبه أشد الحب • حبا يستخفى ، لأنه لا يجد فرصة للظهور •• أحمد المتكبر الحبيب ، يقاد وفى يديه القيد •• وكالنبع تسده الصخور عن الجريان ، فيحطمها ويسيل ، سالت الدموع من عينى سليمان •

واقترب أحمد ، وراع القوم المنتظريه اشراقه فى وجهه ، لا تتدفق إلا عن نفس مطمئنة هادئة ، ونظرت الأم إلى ابنها ، وحاولت أن تبتسم ، وجاهدت لتفرج فمها عن ابتسامة تصحب ابنها إلى التحقيق، ويسر لها الأمر ابتسامة عريضة طالعتها من ولدها ، فلاقتها بابتسامتها هى المخضلة بالدموع ، ثم لم تزد •

والتفت أحمد الى أبيه فى اشفاق وحب واهتمام :

ــ لا ترع يا أبى •• لن يكون إلا ما يسرك •• أقسم لك يا أبى •• أقسم بحياتك أنه لن يكون إلا الخير كل الخير •

وخفق فؤاد سليمان فى وجيب متدافع .. بحياتى أنا .. أبحياتى أقسمت يا ولدى .. أحياتى عندك قسم .. ألى حياة عندك يا ولدى .. حذار يا ولدى أن يختطفك منى السجن .. فى رعاية الله يا ولدى .. دعاء تردد فى قلب الأب .. فى كل خلجة من خجلات قلبه ، ولكن لسانه ظل مذهولا بالمفاجأة ، معقودا بالدموع ، لا يطيق أن يصل بهذا الدعاء إلى أذن ابنه ، ولكنه كان واثقا أن الدعاء قد بلغ آذان السماء .

ونظر أحمد إلى عمه وصفى باشا ، ومد له يده ، فوجد يده الأخرى تصاحبها ، فأطبق بيديه كلتيهما على يد عمه ، وقال ودمعة متألقة تموج فى عينه تظل بها لا تسيل :

ــ يا عمى ، أنا مقدر مجيئك ، ومقدر كل ما تبذله من جهد لأجلى . أشكرك لا تكفى ، ولكنى لا أجد غيرها .. أشكرك .

وقال وصفى باشا فى ثبات :

ــ أى شكر يا أحمد ؟ .. أنت ابنى .. أريدك أن تثبت ، بل لا أريد منك شيئا ، فهذا الذى أراه فى وجهك فوق ما كنت أنتظر .

وأقبل الشبان الثلاثة على أحمد يحادثونه ، وحاولوا أن يبتعدوا بحديثهم عن العواطف ، وعن السياسة ، وعن التحقيق ، فلم يجدوا إلا كلاما أجوف وقع فى نفس أحمد موقعا حلوا . لقد كان يدرى ما يدور فى نفوسهم ، وكان يقدره .

قص حسام عليه ما صنعه فى البلد ، وما ضاق به فيها ، وما سره ، وقص عليه السيد أمر عروسه وفرحها بأنها ستأتى الى مصر ، ووقف جعفر يعلق على الحديث جميعه ، محاولا المرح ، ما أتاحت

له نفسه هذا المرح ، حتى جاء الحاجب آخر الأمر يستدعى أحمد للتحقيق الذى سبقه الى غرفته محاميه مصطفا باشا • وقال الشبان لأحمد : انهم منتظرون ، وودعته أمه وأبوه بدعوة تتصاعد الى السماء من عيونهم ، ومن دموعهم ، وقال له وصفى باشا :

ـ كن كما أنت يا أحمد ••

ودخل احمد غرفة التحقيق •

وحاولت سهير أن تعود الى مجلسها ، ولكن وصفى وسليمان والشبان اقنعوها ان التحقيق سيطول ، وانها لا تستطيع الانتظار ، وكانت الأم فى حال لا تحتمل معها كثرة اللجاج أو العناد فخضعت ، وخرجت يصحبها سليمان ووصفى •

مكث الشبان الثلاثة ينتظرون نتيجة التحقيق • ومر بهم ضابط بوليس دخل غرفة التحقيق ، ومكث بها بعض الحين ثم خرج واتخذ لنفسه كرسيا بجانب باب الغرفة •

وبعد ساعات طويلة انتهى التحقيق ، وخرج أحمد وانضم اليهم والاشراقة لا تزال ماثلة فى وجهه ، تشيع الاطمئنان حوله ، وتبعث به دافئا الى قلوب اخوانه ، وسألوه عما دار بالتحقيق ، فأنبأهم بأنه لا دليل لدى النيابة ضده •

وقال السيد عبد البديع :

ـ أنا واثق ان التحقيق سيحفظ •• لقد حفظ التحقيق مع فوزى عبد المجيد ولكن ••

ولكنه لم يكمل الجملة ، وكأنما أحس أنه ما كان له أن يذكر اسم فوزى •• أشعره بذلك هذا الوجوم الذى لصق بوجه حسام ،

ولــكن أحمد كان مصغيا للحديث باهتمام ، فهو يقول لســيد محاولا أن يخفف عنه الحرج الذى وضحت آثاره عليــه :

ــ اذن فالقضية جميعها لا دليــل فيهــا •• أنا واثق من ذلك •• لقــد أرحتنى يا سيد •• لأنك بشرتنى بأننى سأخرج •

وقال السيد فى اطراق :

ــ ان شـــاء اللـــه •

وقال أحمــد :

ــ يا أخى ، ليست هــذه لهجة المتفائل •• ألم تقــل ان فــوزى قــد أفرج عنــه ؟ !

وقال السيد فى ألم ووجوم :

ــ لا •• لــم أقل انه أفرج عنــه ، ولــكننى قلت ان التحقيق حفظ لعــدم كفاية الأدلة •

وقال أحمــد :

ــ التحقيق حفظ يعنى أن فوزى أفرج عنــه •

وقال جعفر فى ثبات •

ــ لا •• النيابة أفرجت عنه ولكن البوليس اعتقله •

وبهت أحمد هنيهة ، ووجم حسام ، ولــكن جعفر سارع قائلا :

ــ أظن أنهــم لن يعتقلوا أحمد ، فاذا فعلوا ، فأعتقــد أن أبى سيجعلهم يطلقون سراحه •

وقال السيد :

ـ طبعـــا .

وقال جعفر :

ـ لقـــد كنت أعلم أن فوزى معتقل ، فقد جاءنى صديق لى وله ، ورجانى أن أكلم أبى ليشفع له فى الافراج عنـــه .

وامتقع وجه حسام ، وسارع السيد قائلا :

ـ بعـــد ما فعله يا جعفر بك !!

فقال جعفر :

ـ واللـــه أنا أيضـــا لم أكلم أبى ، ورغم أن صديقه أخبرنى أن أبا فوزى قد أصيب بالشلل ، ولم يعد للبيت رجل غير فوزى .

وظل حسام على وجومه ، وارتبك سـيد فلم يقـل شيئا ، وقال أحمد فى هـدوء وثقـــة :

ـ ولمـــاذا لم تكلم عمى ؟

وعلت وجـوه الشبان الثلاثة دهشة ، كان جعفـــر أسرعهـــم فى التخلص منها ، وقال :

ـ الحـــق ، خشيت أن أغضب اثنـــين .. خشيت أن أغضبـــك ، وخشيت أن أغضب أبى ذاته .

ومست قلب حسام غصة لأن جعفر لم يخش أو لم يقـل انه خشى أن يغضبه هو أيضا ، فقد كان يحب أن يرتبط اسمه بأسرة خالته . وقبل أن يجيب أحمد ، خرج مصطفى باشا من غرفة التحقيق ، وعلى

وجهه فرحة متحفظة ، وشخص أربعتهم اليه ، وهو يقترب منهم ، حتى بلغهم وقال :

ــ مبروك يا أحمد •• لقــد حفظ التحقيق لعــدم كفــاية الأدلة ولكــن ••

وقال أحمــد :

ولكن ماذا ؟

ــ أظن أن الأمن العام سيظل متحفظا عليك فترة أخرى •

وأطرق أحمد ، ووجم السيد وحسام ، وقال جعفر :

ــ المهم يا سعادة الباشا •• هل النيابة أمرت بالافراج ؟

فقال البــاشا :

ــ نعــم •

فقال جعفــر :

ــ ألف شكر •• لا تخف يا أحمــد •• كــل شيء سـيكون على ما يــرام •

وقال أحمد فى ثقــة :

ــ نعم ، أعرف •• كل شيء سيكون على ما يرام •

واقترب الضابط الذى كان جالسا الى جانب غــرفة التحقيــق ، وأمر الشرطى حارس أحمــد أن يتبعــه والسجين ، وفى صمت مشى الموكب حتى بلغ الباب الخارجى ، ووقف الضابط أمام سيــارة ذات

صندوق كبير مغطى بالقماش ، وقف الركب خلفــه ، وتقدم الشرطى الى باب الصندوق الخلفى ، ووقف بجانبه ناظــرا الى أحمد الذى صـــعدق سكون درج السيارة ، وجلس فى هدوء واطمئنان ، وجلس الشرطى الى جانبـــه ، وصعد الضابط الى جانب السائق ، وأمره أن يسير ، وانطلقت السيارة ، وتبعتها عيـــون الشبان الثـــلاثة ، حتى غابت عن الأنظار ، فأفاقوا الى وقفتهم ، وسارعوا الى سيارة حسام يركبونها صامتين •

(٣٠)

دخل الشبان الثلاثة القصر ، فوجـدوا وصفى باشـا جالسا فى البهـو منكس الرأس ، ووجدوا الاضطراب يسـود القصر جميعا ، حتى لم يلحظ أحد دخولهم ، على رغم الأنباء المهمة التى يحملونها ، ولم يرهم وصفى الا حين اقتراب ابنه منه يسأله :

ــ أبى ، ماذا حـدث ؟

وانتبه وصفى الى ابنه ورفع اليه عينين ، رأى جعفر فيهما آثار اضطراب وحيرة ، ولو أنعم جعفر النظر ، ولو كان رأى أباه يبـكى قبل اليوم ، لأدرك أن ما بعينى أبيه آثار دموع ، ولـكنه لم يلحظ شيئا من هـذا ، وانما شغله أبوه بسؤاله :

ــ ماذا فعلتم ؟

وأنهى جعفر الى أبيـه ما يحمله من أنبـاء ، فقفـز وصفى عن كرسيه ، وهو يقـول لابنـه :

ــ سهير حالتهـا خطـيرة ، فاسألوا الأطباء عمـا يجب أن يقـال لهـا ، وما لا يجوز أن يقال ، وأنا ذاهب الآن الى وزير الداخلية .

وخـرج وصفى مسرعا ، وصعد جعفر وحسام الى الطابق الأعلى

فوجدا باب سهير مقفلا عليهــا ، أو لا يكاد يقفل ، فالخدم داخلون خارجون منــه ينفذون أوامر الأطباء فى وجوم وسرعة واضطراب ، فاختار الشابان مكانا لا يعوق الأرجل المتسارعة ، وجلسا فى البهو ، وبعــد حين خرجت هناء من حجرة أمها وهى تقول :

ــ ألم يأت الأكسوجين ؟

وسارع اليها حسام يسألها :

ــ هناء ، هل أستطيع أن أعمل شيئا ؟

وفى غمــرة الخطر المرفرف فى القصر نسى الاثنــان ذكرياتهما ، والتقيا على هــذه الأحداث المحيطة بهما ، ولكن هناء لم تستطع رغم هــذا أن تمنع هذه الحمرة من الخجل أن تصعد الى وجههــا ، دون أن يكون لهــا تأثير فى استئنافها الحديث مــع ابن خالتها وكأنها لم تصرع آماله .. لم تتلعثم رغم اللهفة التى رأتها فى حديثه اليها .. لهفــة محب لم تستطع أن تختفى فى جــلال الموقف الذى يجمعها ، محب يصفح عن حبيبته ، ويهفو اليها ، ويأمل أن تقبله أملا لا يشوبه ذكريات زواجها من غــيره .. فى لحظة عابرة رأت هنــاء فى عينى حسام صفحا وحبــا ، وفى لحظة عابرة رأى حســـام فى عينى هنــاء اعتــذارا واشفاقا .. واقبــالا .. لحظة أومضت فى الحوالك التى تحيط بهمــا ، ثــم عادا الى الدوامــة التى تصخب حوليهما ، قالت هنــاء :

ـــ ماذا فعــل أحمد ؟

فأنبأها حسام متلاحق الأنفــاس ، وطلب اليها أن تسأل الأطباء ان كان يمكن أن يبلغا خالتـــه •• وجمعهما الخطب ، وتبــادلا جملا متقطعة عما يجب أن يفعلاه •• دارت هــذه الجمل عن المرض وعن السجين ، وأحس حسام من هــذا الحديث القاتم اشراقا ينساب الى نفســـه ، وملأه فرحا أن مشاعر متحدة تجمعه وهنــاء فى أحــدث واحدة ، كلاهما مهتم بهــا • وطلبت اليه هناء آخر الأمر أن يتعجل أنبــوبة الأكسوجين فسارع يثب السلم والفــرح يغمــر نفســـه ، ويزجر هذا الفـــرح عن نفسه أنه غــير خليق به أن يفرح ، وخالته أم هــواه تنتزع أنفاسها انزاعا ، وأحمد ملقى فى السجن ، وتنحسر موجة الفرح هونا لتفسح مكانا لبعض شفقة ، أو بعض اشفاق ، ثم ما تلبث موجة الفرح أن تطغى مرة أخرى هازئة بما يجب أن يحسه فى لحظته تلك ، ساخرة ممــا تريد الظروف أن تفــرض عليــه من احســـاس ، محطمة كــل ما يحاول أن يقف فى طريقهــا من عقــل أو منطق أو مشاعر غير الحب والفرح بهذا الحب •

❋ ❋ ❋

كان مرض سهير أقوى حجة فى يــد وصفى حين قصد الى وزير الداخلية ، فما زال به حتى أصدر أمرا بالافراج عن أحمد ، وسارع وصفى الى السجن ، ليصحب أحمد الى البيت • وعلى باب السجن قال أحمد فى هــدوء ووثوق :

ـــ عمى ، انى أشكرك ، ولكن لى رجاء عنـــدك ؟

وقال وصفى باشا :

ـــ اركب أولا يا أحمد ، وقل رجاءك فى السيارة .

ولم يحفل أحمد اضطراب عمه ، بل قال فى هدوء :

ـــ فـــوزى .

وقطب وصفى جبينه ، فمـــا كن ينتظر أن يسمع هـــذا الاســـم الآن ، ومن أحمد ، وفى هـــذا المكان ، وانتزعته الدهشة هنيهة من اضطرابه ليقول :

ـــ ماله ؟ !

ـــ معتقل ، وأبوه مشلول .

ونظـــر وصفى فى عينى أحمد بانعام ، وقد ازدادت الدهشة على وجهه ، يخالطها اعجاب واكبار ، ولكنه عاد يسأل فى تشكك :

ـــ أما يزال صديقك ؟

ـــ أتظن أنه يمكن أن يكون صديقى ؟

وأفاق وصفى الى الاجابة ، وأصبحت نظـــرته الى أحمد اعجابا خالصا ، وازداد تحديقا فيه ، وطالعته معارف سهير من وجه أحمد ، فانتفض جازعا وقال :

ـــ طيب •• اركب •• اركب الآن يا أحمد •

ـــ ولكن يا عمى أتعـــدنى ؟

ـــ يا أخى أمك مريضة جـــدا •• أسرع •

واضطرب أحمـــد لهـــذا النبأ ، وأسرع يركب السيـــارة ، ولـــم ينتبه أنه ســـبق عمه فى الركوب ، وركب وصفى ، وأمر السائق ان يسرع الى القصر •• وفى الطريق راح أحمد يسأل عن تفاصيل مرض أمه ، ووصفى يجيبه ذاهلا ، حتى إذا لم يجد أحمد أسئلة أخرى ، غاص الى نفسه •• أتموته أمى ؟ •• أأكون أنا قاتلها ؟ •• أى حياة سألقاها من بعـــد ؟ •• حذار •• حذار أن أجر على نفسى الخسران فى دوامة هذه الأفكار • • ان الموت والحياة بيـــد الله • • الرحمة يا رب •• نجها يا رب •• أأطلب منه نجاتها لأنى أريدها ؟ •• أم لأنى لا اريد أن أكون أنا قاتلهـــا •• انى على الحالين أنانى •• فأنا هى انباعث فى هـــذا الدعاء على أية حال •• أهـــذه هى الانسانية التى أريد أن أبلغ فيها شأوا ؟ وماذا بيدى ؟ •• كيف أسيطر على هـــذه الأفكار التى تمور برأسى ؟ •• نعم انى أستطيع ، ونظر الى وصفى وقال :

ـــ أنا لن أذكرك بفوزى ثانيـــة يا عمى •

ودهش وصفى هنيهـــة ، ثـــم بـــدا وكأنه قـــدر ما يعتمل بنفس الشاب ، فقال له فى ثقـــة :

ـــ لن تحتاج الى ذلك •

وبلغت السيارة باب القصر ، وجرى أحمـــد ملهـــوفا الى حجره

امه ، وفتحها ودخـل ، فوجد أمـه تلقف أنفاسها من كمامة متصلة بأنبـوبة موضوعة الى جانبهـا ، وما ان رأته حتى أزاحت الـكمامة عن فمها وهتفت :

ـ أحمـد •• ابنى •

وارتمى احمـد على صـدرها يقبلها فى كل مكان ، وراحت الأم تجذب أنفاسها ، وتقبـل ولدها لحظات ، ثـم لم تستطع ، وأحس أحمد ضعفها ، فسارع يبتعد عن وجهها ويعيد الكمامة اليها ، وهـو راكع لا يزال بجانب سريرها ، وأحس أحمد يدا رقيقة تربت ظهره ، وسمع صوت أبيـه يقـول :

ـ الحمد للـه على السلامة يا أحمد •

ونظر أحمد فوجد أباه جالسا على طـرف سرير أمه ، ينظر اليـه فى حـدب ، فوضع رأسـه على ركبتـه ، وانطلق فى بكاء صامت ، تنسكب دموعه من فؤاد جازع حزين • ورأت سهير ما فعل ابنهـا ، واستروحت المنظـر •• وهـدأت أنفاسها قليلا ، وراحت فى سبات عميـق •

(٣١)

أيام قليلة مرت .. أيام قليلة استطاعت فيها سهير أن تنعم بهذه الاشراقة التى أصبحت لا تفارق وجه ابنها ، فتبعث فى نفسها راحة تعينها على آلامها ، واستطاعت فيها أن ترى اقبال ابنها على أبيه ، اقبالا فيه اشماق ، وفيه حب ، وفيه تمهيد للعذر ، وتقدير للطبائع ، وكادت سهير ترى خوالج ابنها الجديدة مجسمة أمامها ؛ ينبض بها قلب كبير بعيد عن الأنانية . وسمعت سهير ابنها يدعو الله أن يشفيها .. سمعت الله يهتف به أحمد ، فخيل اليها أن قلبه هو الذى خفق بالهتفة خفقا شديدا ، كان أعلى دويا من حركة الشفاه واللسان .

ورأت سهير حسام لا يكاد يفارق بيتهم ، ورأت هناء تقبل عليه فى غير ما تكلف وفى ود ، ورأت فى عينى بنتها معانى اطمأنت لها نفسها ؛ وهدأ لها هذا اضطرب الذى يعصف بها عصفا جائحا ..

أيام قليلة .. رأت سهير فيها سليمان يقبل على أحمد اقبال أب ، ويهتم بأمره فى حب ، ويلتقى واياه على الطريق الذى سار فيه أحمد من حب .. حبيب بذل سليمان غاية جهده ليضع معالمه ، ويظهر معارفه ، ولم يكن لسليمان جهد كبير فى هذا الشأن ، ولكنه على أية بجانبه يحاول ، وسهير تحس بمحاولته .

أيام قليلة •• رأت فيهـا سهير البيت كما كانت تتمنى أن تراه •• أو كما كانت تريد أن تصنعه •• وانهـا لتفكر أنه كان خليقا بالبيت أن ينشأ ويظل على ما هـو عليـه الآن لو كان سليمان هـذا شخصا آخر • نعم وصفى الذى كان لا يكاد يغيب عن القصر لحظة فى هـذه الأيام الأخيرة •• وصفى هذا •• ولكن ماذا يفيد الآن •• وما البأس بنا الآن •• أنا لا أتمنى شيئا اليـوم الا أن أشفى •• فهل أشفى ؟

ولم يشأ القـدر أن يحقق هـذه الأمنية ، فماتت سـهير ، وكان موتها بعد حين قصير من خروج الطبيب المعـالج ، باسم الثغـر ، يهنىء الأسرة والقصر بقرب شفاء المريضة العزيزة •• لم يكن الطبيب خاطئا كل الخطأ ، لقد شفيت من آلامهـا جميعا •• من آلام نفسها ومن آلام جسـمها ، وانتقلت روحها إلى عليين لدى ملك لا يمنـع الظل لائذا ، الرحمة الكبرى وراء سـمائه ، تلف التقى فى سيئهـا والمعاصى •

أقبـل المعزون ، ووقف سليمان وأحمـد ووصفى يستقبلونهم ، لا يكاد واحد منهم أن يقيم أوده من الحزن ، وكان وصـفى أشدهم ألمـا ، وأكثرهم اضطرابا ، لأنه الوحيد بينهم الذى لا يستطيع أن يتيح لألمه طريقا يخرج منه إلى الحيـاة •• كانت الدموع تمـور فى عينيه فيحبسها ، فالعرف والتقاليد سـياج حولها أن تسيل ، وتزحم الدموع نفسه • إنها دموع سنوات كثيرة •• إنها ذكريات الشباب الأولى ، والساعات المشرقة فى حياته •• إنها دموع تحمل فى رقراقها

صور الماضى كلها ، والماضى قطعة من نفسه ، بل إنه عند وصفى فى موقفه هذا النفس كلها •• ويلجأ وصفى إلى القصر يبحث فيه عن مكان يستر دموعه السائجة فلا يجد ، ويخرج من القصر إلى الحديقة ، وينفض المكان بعينيه ، فيرى جميع من فى الحديقة مشغولا بأمر المأتم ، وكما كان يفعل فى الأيام الخوالى ، يسير الهوينا فى الماشى حتى يبلغ السلم •• السلم القديم فينفض المكان مرة أخرى دون أن يفكر فيما يفعل ، ثم ينزل السلم وثبا ، كأنه ذلك الشاب الذى كانه منذ حين بعيد •• بعيد غاية البعد ، وما يكاد وصفى يصل إلى المقاعد التى شهدت قطعا كثيرة غالية من حياته ، ما يكاد حتى يرتمى إلى أحدها ، وينخرط فى بكاء عالى النشيج ، يستره القرآن الذى يتصاعد من المأتم أن يبلغ إلى أذن ، ويحيط به هذا القرآن نفسه فى حنان واشفاق وسمو •

كان فوزى بين المعزين ، وقد انتهز فرصة انفرد فيها أحمد ، وجاء ليجلس إلى جانبه :

ــ البركة فيك يا أحمد •

ونظر إليه أحمد ، ثم لم يجب ، فقال فوزى :

ــ خرجت بالأمس من المعتقل ، وقد جئت أعزيك وأشكرك ، فقد عرفت أنك رجوت وصفى باشا من أجلى ، ولولاه لكنت معتقلا حتى الآن •• لقد كنت نبيلا يا أحمد ، وكنت رجلا •

وقال أحمد فى هدوء وفى صوت خفيض :

ـ أقبل عزاءك مع الشكر ، أما شكرك فلا أقبله بحال من الأحوال. فقد سعيت لاخراجك اشفاقا على أبيك المريض ، وأمك التى أصبحت بلا عائل إلا أنت ، وإن رأيى فيك الذى قلته لك يوم طلقت هناء يزداد عمقا فى نفسى .. وإن وصفك لى بالنبل أمر آخذه أنا عنى محمل الهجاء لا الحمد ، فمديح مثلك مسبة للممدوح .. وما زلت أرجو ألا أراك أبدا بعد اليوم .. أشكرك .

وقام أحمد عن فوزى فى نفس الهدوء الذى كان يلقى به هذا الحديث .. ولم ينظر أحمد وراءه ليرى فوزى وهو ينصرف ، ولكنه أحس على رغم قسوته أنه يسير فى الطريق التى يريدها لنفسه .

انتهت الليلة ، وبحث أحمد عن أبيه فى السرادق فلم يجده ، فصعد إلى الدور الأعلى من القصر ، وقصد إلى حجرته ، ولكنه لم يجده ، فعجب بعض الشيء ، وقصد إلى غرفة نومه هو ، وراح يخلع ملابسه ، وما إن استبدلها بملابس النوم ، حتى جلس قليلا مطرقا ، ثم قام فى هدوء خارجا من الغرفة ، قاصدا إلى غرفة أمه ، يسير إليها وكأنه يتوقع أن يجدها .. وفتح أحمد باب الغرفة فطالعه ظلام زاده قتاما أن أغلق الباب من خلفه ، وقصد أحمد إلى حيث كان رأس سهير ، وركع إلى جانب السرير ، وغمر وجهه فى الوسادة ، ولكن صوت نشيج ما لبث أن علا إلى أذنه يأتى إليه من قريب ، ورفع أحمد رأسه وأدار عينه إلى حيث النشيج ، ثم مد يده فلمست كتفا عرفها ، وزحف أحمد إلى جانب أبيه ، واحتضنه بذراعه ، وربت كتفه ، والتفت إليه أبوه ، وكانت عينا أحمد قد تعودتا الظلمة ، فاستطاع أن يرى على ضوء شعاع ينسكب

من زجاج البــاب وجه أبيه مغطى بالدمــوع ، واضــطرب أحمــد لدموع أبيــه العصية ، وازداد اضطرابا حين وجد أباه يرتمى بين أحضانه ، وكأنما هــو الابن فقــد أمه .. اضطرب أحمد هنيهات ، ثم تمالك نفسه ، وسكن جأشه ، واحتوى أباه بذراعيه فى حنــان .. والتقت الدموع .. !

رقم الايداع بدار الكتب المصرية ١٥٣٤/١٩٧٧
الترقيم الدولى ٠٦٠ — ٢٨٦ — ٩٧٧ ISBN

مطبعة نهضة مصر
الفجالة ـــ القـــاهرة

مطبعة نهضة مصر
الفجالة ـ القاهرة

